من روائع الأدب الإيسلندي

حزن الملائكة

يون كالمان ستيفنسن

دار المنى

من روائع الأدب الإيسلندي

حزن الملائكة

يون كالمان ستيفنسن

النص العربي :
سكينة إبراهيم

دار المنى

حزن الملائكة

ISBN 978 91 87333 65 1
Arabic edition © Bokförlaget Dar al Muna AB 2016
© Jón Kalman Stefánsson 2009
Original title in Iceland: Harmur Englanna
Published by agreement with Leonhardt and Hoier Literary Agency A/S, Copenhagen
Arabic text: Sukainah Ibrahim
Printed in Sweden
The book has been translated with financial support from:

MIÐSTÖÐ ÍSLENSKRA BÓKMENNTA
ICELANDIC LITERATURE CENTER

www.daralmuna.com

عيوننا تشبه قطرات المطر

سيكون من الجيد الآن أن ننام إلى أن تتحوّل أحلامنا إلى سماء ، سماء هادئة ، مسالمة ، وفي الهواء تطفو ريشة ملاك أو ريشتان ، وإلا فلا شيء سوى نعمة السهو . النوم ، على أي حال ، يراوغ الموتى . عندما نغمض عيوننا المحدقة تستحوذ علينا الذكريات وليس النوم . في البداية تأتي فرادى ، وتأتي جميلة كالفضة ، ثم سرعان ما تنقلب إلى ثلج متساقط خانق ومظلم ، ولطالما كانت هكذا لأكثر من سبعين سنة . ويمرّ الزمن ، يموت الناس ، يغرق الجسد في الأرض ولا نعرف المزيد . من ناحية أخرى ، ثمة القليل من السماء هنا ، الجبال تنتزع معظمها منّا ، وكذلك تفعل العواصف التي تفاقم عتوها هذه الجبال نفسها ، مظلمة كظلام النهاية ، لكن أحيانًا عندما يتسنى لنا أن نلمح قطعة من السماء بعد عاصفة ثلجية ، يتراءى لنا أننا قادرون على رؤية شريط أبيض خلّفته الملائكة ، على مستوى عالٍ فوق الغيوم والجبال ، فوق أخطاء الإنسان وقُبلاته ، شريط أبيض يشبه الوعد بغبطة عظيمة . ذلك الوعد يغمرنا بسعادة طفولية ، وفينا يعتمل تفاؤل نسيناه مدة طويلة ، إلا أنّه أيضًا يعمّق اليأس والقنوط . هكذا هي الحال ، النور العظيم يخلق ظلالًا راسخة ، الحظوظ العظيمة تتضمن محنًا جسيمة ، وسعادة الإنسان تبدو أنها محكومة بالوقوف على حدّ سكين . الحياة بسيطة جدًا ، أما الناس فليسوا كذلك ؛ وما نسميه أحاجي الحياة ما هو إلا تعقيداتنا الخاصة وأعماقنا

المظلمة . الموت يمتلك الأجوبة ، هذا ما يقال في مكان ما ، وهو يحرّر الحكمة العريقة من قيودها ؛ وهذا طبعًا هراء لعين . ما نعرفه ، ما تعلّمناه لم ينبع من الموت ، بل نبع من قصيدة شعر ، من اليأس ، وأخيرًا من ذكريات السعادة ، بغضّ النظر عن الخيانة الساحقة . نحن لا نمتلك الحكمة ، لكن ما يعتمل فينا يتحكم بنا ، وهذا ربما أفضل . أوغلنا في السفر ، بالغنا في الابتعاد ، أبعد من أي شخص سافر قبلنا ، وعيوننا تشبه قطرات المطر ، مفعمة بالسماء والهواء النقي واللا شيء . لذا لا خطر عليكم في الاستماع إلينا . وإذا نسيتم أن تحيوا فستنتهون مثلنا ، نحن ؛ هذا القطيع المطارد بين الحياة والموت . قطيع مغرق في الموت ، مغرق في الشعور بالبرد ، مغرق في الموت . في أعماق مكان ما ضمن أصقاع العقل ، ضمن الوعي الذي يجعل المرء ساميًا وشيطانيًا ، ما زال يستقر نور وامض يأبى الخروج ، يأبى الاستسلام للظلام الكثيف والموت الخانق . هذا النور يغذّينا ويعذّبنا ، يقنعنا لنستمرّ بدلاً من أن نضطجع كوحوش بكماء وننتظر ما قد لن يأتي أبدًا . يومض النور ، ونحن بالتالي نستمرّ . يمكن أن تكون تحركاتنا حائرة ومتردّدة ، لكن هدفنا واضح - إنقاذ العالم . إنقاذكم وإنقاذ أنفسنا بهذه القصص ، هذه القصاصات من القصائد والأحلام التي غاصت منذ عهد بعيد في بحر النسيان . نحن في زورق تجديف يسرّب الماء ، ومعنا شبكة مهترئة ، وفي نيتنا اصطياد النجوم .

بعض الكلمات هي محار في الزمن ،
وضمنها ربما ذكريات عنكم .

١

في مكان ما بين غشاوة الصقيع والثلج المتساقط ، يبدأ المساء في الحلول ، وعتمة نيسان تحشر نفسها في ندف الثلج التي تتكوّم على الرجل والحصانين . كلّ شيء أبيض بالثلج والجليد ، بيد أن الربيع في طريقه إلى القدوم . يصارع الرجل والحصانان عكس ريح الشمال الأقوى من أي شيء آخر في هذه البلاد ، ينحني الرجل إلى الأمام ويتّكئ على الحصان الذي يمتطيه ، مُحكمًا الإمساك بزمام الآخر ، الثلاثة مجللون بالبياض ومتجمدون ويكادون تقريبًا يتحولون إلى جليد ، وريح الشمال تنوي أن تستخلصهم لنفسها قبل وصول الربيع . يتثاقل الحصانان في تقدمهما خلال الثلج العميق ، الآخر الذي في الأعقاب لديه حدبة مبهمة على ظهره ؛ صندوق ربما ، أو سمك قدّ مملح ، أو جثتان ، والظلام يستفحل ، بيد أنه لم يصبح حالك السواد بعد ، فهذا نيسان على الرغم من كل شيء ، والثلاثة يمضون قدمًا يحفزهم العناد الأخرق أو العناد الباهر الذي يميّز أولئك الذين يعيشون عند تخوم الدنيا الصالحة للسكن . من المغري دائمًا بالتأكيد الاستسلام ، وكثيرون في الحقيقة يفعلون ذلك ، يسمحون للحياة اليومية العادية أن تطمرهم بالثلوج إلى أن يلتصقوا بمكانهم ، بلا مغامرات أخرى ، يتوقفون ببساطة ، ويتركون الثلوج تطمرهم على أمل أنها في وقت ما ستتوقف وأن السماء الصافية ستعود . يواصل الحصانان والرجل المقاومة ، يندفعون إلى الأمام على الرغم من أن الظاهر أن لا شيء هناك في العالم ما عدا هذا الجو ، وكل شيء آخر غيره قد اختفى ، ثلوج كهذه تقضي على الاتجاهات ، تواري

الأرض والجبال الشاهقة ؛ الجبال نفسها التي تسلبنا قسمًا كبيرًا من السماء ، حتى في أفضل الأيام عندما يصبح كل شيء أزرق وشفافًا ، عندما تكون هناك طيور وأزهار ، وربما شمس ساطعة . لا يحاول الرجل والحصانان رفع رؤوسهم عندما يلوح أمامهم فجأة جملون بيت من خلال فرجات العاصفة الثلجية القاسية . ولا يلبث أن يظهر جملون آخر . ثم ثالث . ثم رابع . يواصلون تحسّس الدرب إلى الأمام كما لو أنه ما عاد للحياة ولا للدفء علاقة بهم ، وأن لا شيء يهمّ سوى تحركهم الآلي ، في وسعهم أن يلمحوا من بين ندف الثلج وميض أضواء باهتة ، والأضواء هي رسالة من الحياة . وصل الثلاثة إلى دار كبيرة ، يتقدّم حصان الراكب نحو عتبة الدرج ، يرفع قائمته اليمنى الأمامية ويخدش بها الدرجة الأدنى منه ، يهمهم الرجل بكلام ما ويتوقّف الحصان ، ثم ينتظرون . يقف الحصان القائد شامخًا ، مشدودًا منتصب الأذنين ، بينما يطأطئ الآخر رأسه كما لو أنه يفكّر بعمق ، تفكّر الأحصنة في أمور كثيرة ، وهي الحيوانات الأقرب إلى الفلاسفة .

يُفتح الباب أخيرًا ويخطو شخص ما نحو عتبة الدرج ، عيناه تحدقان في الثلج المتساقط بإلحاح ، رأسه متراجع إلى الخلف ليتحاشى ريح الصقيع . الجو يسيطر على كل شيء هنا ، يشكّل حياتنا مثلما يُشكّل الصلصال . مَن هناك؟ يسأل بصوت عالٍ وينظر إلى الأسفل ، يحجب عنه الثلج المتطاير مجال الرؤية ، لكنه لا يتلقى ردًا لا من الراكب ولا من الحصانين ، يحملقون فيه فقط وينتظرون ، ثلاثتهم ، بما في ذلك الحصان الذي يقف في الخلف مع الحدبة على ظهره . يغلق الشخص الذي على العتبة البابَ ، يتحسس طريقه على الدرج ، يتوقّف في منتصف الطريق ، يمطّ عنقه ليرى على نحو أفضل قبل أن يصدر راكب الحصان صوتًا أجشّ مجلجلاً ، كما لو أنه يجلي لغته من الجليد والوحل ، يفتح فمه ويسأل : مَن أنتَ بحق الجحيم؟

يتراجع الفتى ، يصعد درجة واحدة ، لا أعرف من أنا حقًا ، يجيب

بالإخلاص الذي لم يفقده بعد ، الإخلاص الذي يجعله أحمق أو حكيمًا ، لستُ أحدًا معيّنًا على ما أظنّ .

مَن في الخارج؟ يسال كولبين الربان المسنّ الذي يجلس منحنيًا أمام قدح قهوته الفارغ ، ويوجّه مرايا روحه المكسورة نحو الفتى الذي عاد ودخل ويروم أكثر من أي شيء آخر أن لا يقول شيئًا ، ومع ذلك ينطق من غير تفكير ، ساعي البريد ينز ، يسأل عن هيلغا ، يقول قبل أن يمضي مسرعًا متجاوزًا الربّان القابع في ظلامه الأبدي .

يصعد الفتى السلم الداخلي ، يسارع إلى الردهة ويقطع الدرج إلى العلية بثلاث قفزات . يسلم نفسه كليًا إلى السباق ، يندفع كطيف عبر المدخل ثم يقف في العلية لاهثًا ، ساكنًا بلا أدنى حركة ريثما تألف عيناه اختلاف الضوء . المكان شبه مظلم هناك ؛ على الأرض مصباح زيت صغير ، وقرب نافذة يحجبها الثلج والمساء يستقر حوض استحمام ، وثمة ظلال تتراقص على السقف ، ذلك كلّه جعله يشعر كما لو أنه في حلم . يميّز شعر غيرترود بسواده الفاحم ، كتفها البيضاء ، عظمة خدّها العالية ، نصف نهد ، وقطرات من الماء على بشرتها . يلمح هيلغا إلى جانب حوض الاستحمام ، وإحدى يديها على وركها ، خصلة شعر تحرّرت وتدلّت على جبينها ، لم يرها من قبل قطّ متبسّطة إلى هذه الدرجة . ينفض الفتى رأسه كأنه يروم إيقاظ نفسه ، يستدير فجأة وينظر إلى الناحية الأخرى ، على الرغم من أن ليس هناك شيء خاص يستحق أن يُرى إلى جانب الظلام والفراغ ، ينظر حيث لا ينبغي لعين حيّة أن تنظر مطلقًا . ساعي البريد ينز ، يقول أخيرًا ، ويحاول ألا يسمح لضربات قلبه أن تعكّر صفاء صوته ، وهذا بالطبع مستحيل قطعًا : جاء ساعي البريد ينز ، وهو يسأل عن هيلغا . فتتصدى له غيرترود بقولها : لا بأس عليك حقًا أن تستدير ، أم أنني قبيحة جدًا؟ كفّي عن تعذيب الفتى ، تعترض هيلغا . ما يمكن أن يؤذيه في رؤية امرأة عجوز عارية؟ تجيب

غيرترود، ويسمعها الفتى تنهض من حوض الاستحمام. يدخل الناس حوض الاستحمام، يفكرون في شيء ما، يستحمّون ثم يغادرون حوض الاستحمام، ذلك كلّه مألوف تقريبًا، لكن حتى أكثر الأشياء بساطة في هذا العالم يمكن أن تُبطن خطرًا لا يُستهان به.

هيلغا: يمكنك أن تستدير الآن.

كانت غيرترود قد لفّت منشفة كبيرة حول جسمها لكن كتفيها بقيتا عاريتين، وشعر كانون الثاني الذي يتوّجها انسدل مبلّلاً وهمجيًا وربما أكثر سوادًا من أي وقت مضى. السماء هي العجوز، وليس أنت، يقول الفتى. فتضحك غيرترود ضحكة هادئة، تضحك بعمق وتقول: ستكون خطيرًا يا فتى إذا فقدت براءتك.

ينخر كولبين عندما يسمع هيلغا والفتى يقتربان، يلوى قسمات وجهه المحزز بالتجاعيد والأخاديد العميقة التي سببتها سياط الحياة، وتتحرك يده اليمنى ببطء عبر الطاولة، تتحسّس طريقها إلى الأمام مثل كلب حسير البصر، تدفع جانبًا قدح القهوة الفارغ وتنزلق على غلاف كتاب قبل أن تتراخى قسمات وجهه فجأة. الأدب القصصي لا يجعلنا متواضعين، بل مخلصين، تلك هي طبيعته، ولهذا السبب يمكن أن يكون قوة ذات شأن. تعود عضلات وجه كولبين إلى التصلّب عندما يدخل الفتى وهيلغا المقهى، إلا أنه يبقي يده مستكينة على الكتاب، عُطيل، ترجمة ماتياس ياكمسن. «اثبتا يا يداي! كلتاكما، ورجالي والبقية؛ إن كانت مهمتي أن أحارب، يمكن أن أنجزها بلا تحريض.» رمت هيلغا على كتفيها شالاً أزرق سميكًا، تتجاوز هي والفتى كولبين الذي يتظاهر بأنه ليس مهتمًا بأي شيء، ثم يصبحان في الخارج. ترنو هيلغا إلى ينز والحصانين، ثلاثتهم يكاد يستحيل تمييزهم تقريبًا، مجللون بالبياض ومتجمّدون. لماذا لا تدخل يا رجل،

تسأله ، بشيء من الحدّة . يرفع ينز بصره نحوها ويقول مبررًا : في الحقيقة أنا متجمّد وملتصق بالحصان .

يختار ينز كلماته بعناية عمومًا ، وهو زيادة على ذلك ، يصبح على وجه الخصوص صموتًا بعد أن ينتهي من رحلة تسليم شتوية طويلة وشاقة ؛ إذ ما يفترض أن يفعل المرء بالكلمات في وسط عاصفة ثلجية على أي حال ، وهو في مرج جبلي تنسفه الرياح ، والاتجاهات كلّها معدومة؟ وعندما يقول إنه متجمّد وملتصق بالحصان ، فهو يعني ما يقوله ؛ حينها تكون الكلمات في منتهى الشفافية ولا تخفي أي معان ، ولا ظلال ، كما تميل الكلمات إلى أن تفعل . أنا متجمّد وملتصق بالحصان بقوة : ما يعني أنه اجتاز آخر جدول كبير قبل ثلاث ساعات تقريبًا ، وقد خفيت أعماقه عنه في ظلمة العاصفة ؛ فتشبع ينز بالماء من ركبتيه إلى الأسفل مع أن الحصان طويل القوائم ، أحدق بهم صقيع نيسان في ثانية ، وتجمد الرجل والحصان والتصقا معًا بقوة بحيث عجز ينز عن تحريك عضلة واحدة ، عجز عن الترجّل واضطر إلى ترك الحصان يخدش الدرجة الأدنى ليعلن عن وصولهم . على هيلغا والفتى أن يبذلا جهدًا لينتزعا ينز من على الحصان ، ثم يساعداه ليصعد الدرج ، وهي مهمة ليست سهلة ، فالرجل ضخم ، يزن حوالي مئة كيلو بلا شكّ ؛ وحين نجحا في جذب ينز كان شال هيلغا السميك قد غدا أبيض من الثلج ، وما زال هناك ارتقاء الدرج . ينخر ينز بغضب ؛ جرّده الصقيع من رجولته وحوّله إلى شيخ عاجزٍ . يتثاقل الثلاثة على الدرج . تصارعت هيلغا مرّة مع صياد سمك مخمور في المقهى ، رجل يفوق حجمه المعدّل المألوف ، ثم طرحته خارجًا مثل كومة قمامة ؛ وبالتالي يضع ينز تلقائيًا معظم ثقله عليها ؛ بالمناسبة مَن يكون الصغير؟ يسأل ، لا يبدو أن فيه الكثير لِيُرى ، ويمكن أن يتكسّر تحت ندف الثلج ، ناهيك عن ذراع ثقيلة . الحصانان ، يردف ينز متمتمًا عند الدرجة الخامسة . نعم نعم ، تجيب هيلغا

تلقائيًا . كنتُ متجمّدًا وملتصقًا بالحصان ولا أستطيع المشي بلا دعم ، يقول ينز لكولبين ، بينما هليغا والفتى شبه يحملانه ، شبه يجرانه إلى الداخل . اِرفع الصناديق عن ظهر الحصان ، تقول هيلغا للفتى ، سأتولى أمر ينز وحدي من هنا ؛ ثم خذ الحصانين إلى يوهان ، مؤكّد أنك تعرف الطريق ، ثم أعلِم سكولي أنّ ينز قد جاء . أيستطيع هذا أن يتدبّر أمر الصناديق والحصانين؟ يسأل ينز بنبرة شكّ ، وهو يرمق الفتى بطرف عينه . إنه مفيد أكثر مما يبدو ، يأتي جواب هيلغا الوحيد . ويحمل الفتى الصناديق إلى البيت بصعوبة ، يرتدي ثيابًا سميكة ويمضي خارجًا إلى الليل القاتم والجوّ المكفهرّ مصطحبًا الحصانين المكدودين .

٢

بدّل ينز ثيابه إلى أخرى جافة ، وسرى الدفء في قدميه ، استهلك كمية هائلة من الحليب المخفف بخثارة اللبن ، ولحم الضأن المدخّن ، وكان قد أتى على أربعة فناجين من القهوة حينما عاد الفتى ومعه سكولي المُحرِّر ؛ أما الحصانان فأُخِذا إلى يوهان سكرتير غيرترود الذي يعيش وحده ، ودائمًا وحده ، وهذا مفهوم طبعًا بما أن الناس ميالون كثيرًا إلى خذلان المرء . سكولي طويل ونحيل ، يشبه أكثر ما يشبه سلكًا مشدودًا ، يقبل فنجان قهوة ويرفض الحصول على الجعة بهزّة من رأسه ، يجلس مقابل ينز ويرتب أوراقه وقلمه ، أصابعه الطويلة نافدة الصبر . يمسّد كولبين كتاب عطيل كأنما هو شارد الذهن ، وينتظر شروع سكولي في استجواب ينز ، مانحًا الجميع الفرصة لسماع الأخبار التي سيوردها المحرّر في الطبعة التالية من إرادة الشعب التي تصدر مرة في الأسبوع ، أربع صفحات متخمة بتفاصيل عن السمك والجوّ والموت ومرض الجذام ونمو العشب والمدافع الأجنبية . هناك حاجة عامة لأن يُنعَش الوجود بأخبار من العالم ، كانت الرياح عدائية ، وخلاف ما جرت عليه العادة ، لم تأت إلى الآن في نيسان إلا سفن معدودة ، ونحن متعطشون إلى الأخبار بعد الشتاء الطويل . وينز طبعًا ليس سفينة أشرقت عليها الشمس في بقاع أجنبية ، لكنه الخيط الذي يربطنا بالعالم الخارجي خلال شهور الشتاء الطويلة ، عندما لا يكون لنا جليس غير النجوم وما بينها من ظلام والقمر الأبيض . يقطع ينز الطريق كلّها إلى ريكيافيك ثلاث أو أربع مرّات في السنة ليجلب البريد ، وذلك عندما يحلّ محلّ ساعي بريد

الجنوب ، وما عدا ذلك يسافر من منطقة ديلير ، حيث يعيش في مزرعة صغيرة تحيطها جبال وديعة وريف صيفي الخضرة ، مع أبيه وأخته التي ولدت برأس صافٍ كالسماء ، أي ليس فيه إلا القليل من المتسع للأفكار ، هذا على الرغم من أنه ما من خطايا متأصّلة هناك . درب ينز البريدي هو على الأرجح الأكثر وعورة في البلاد ، وخلال السنوات الأربع الأخيرة كلّف اثنين من سعاة البريد حياتهما . فالديمير و بال ، طالبت بهما العواصف وهما على مرج جبلي في شهر كانون الثاني ، تفصل بينهما خمس عشرة سنة . عُثر على فالديمير مباشرة بعد موته ، صلبًا كالجليد ، غير بعيد عن مأوى جبلي حديث الإنشاء ، أما بال فلم يُعثر عليه قبل الربيع بعد أن ذاب معظم الثلج . البريد بحدّ ذاته ، الرسائل والصحف بقيت لحسن الحظ سليمة في الصناديق الجديرة بالثقة المبطنة بالخيش ، وفي الحقائب المعلقة على كتفي الرجل الميت . وعُثر على حصاني فالديمير حيين ، لكنهما كانا في حالة مزرية من شدة البرد بحيث قُضي عليهما فورًا . بقي الجزء الأكبر من جسمه سالمًا ، بينما نالت الثعالب والغربان من بال وحصانيه . ينقل ساعي بريد الجنوب إلى ينز الأخبار التي يسمعها في ريكيافيك ، وينز يحملها إلينا ، إلى جانب كلّ شيء آخر يطّلع عليه خلال جولته البريدية ؛ هذا الشخص توفي ، وذاك لديه طفل مشكوك في نسبه ، وغراندل انبطح مخمورًا على الشاطئ ، جوّ متقلّب ومتغيّر في الجنوب ، حوت بطول ثلاثين ذراعًا حطّ على الشاطئ شرق خليج هورنا ، جمعية وادي فلوزدلر التعاونية ترسم الخطط من أجل توفير خدمة مركب بخاري في نهر لاغارفلوت ، وقد طلبت مركبًا بخاريًا من نيوكاسل التي في إنجلترا ، يضيف ينز . كما لو أنني لم أكن أعلم ، يردّ سكولي بجفاء من غير أن يرفع رأسه ؛ يطرح الأسئلة على ينز ويكتب بسرعة عظيمة بحيث تكاد الورقة تشتعل . يلاحظ الفتى كيف ينجز المحرّر مهمته ، كيف يصوغ أسئلته ، بل حتى يحاول النظر من فوق كتفه ، ليرى إن

كان هناك اختلاف كبير بين ما يقوله ساعي البريد وبين ما يُخطّ على الورق. سكولي مستغرق، وفي منتهى التركيز إلى درجة أنه لا يلاحظ الفتى، ومع ذلك يرفع بصره مرتين، شبه منزعج، عندما يلحف الفتى في الاقتراب منه بلا داعٍ. يمضي الوقت بسرعة، ينتهي ينز من تناول الطعام، حاشيًا جسمه الضخم بخثارة اللبن والضأن المدخّن والكعك الإنجليزي والقهوة الدافئة كالجنة والسوداء كالجحيم؛ وها قد حان الوقت لقدح الجعة الأول وجرعة الكحول اللتين تجلبهما هيلغا. يجنح المشروب الكحولي إلى تحويل أفكارنا عما له شأن، فتصبح أغاريد الطيور أهم من صحف العالم، وصبي بعينين وديعتين أغلى من الذهب، وبنت بغمازات أكثر تأثيرًا من البحرية البريطانية بأكملها. طبعًا لا يقول ينز شيئًا، لا عن أغاريد الطيور ولا الغمازات؛ هذا ما لن يفعله أبدًا، لكن بعد ثلاث قناني جعة، وجرعة كحول يصبح مخبرًا رديئًا لسكولي. يصبح نوعًا ما ليّنًا، يفقد اهتمامه بالأحداث الجسيمة، والأخبار الرئيسة، وتحركات الجيوش، وإن كان حاكم البلاد يجلس أو يقف أو يعيّن صهره الشاب الغرّ راعي أبرشية في ثينغفيلر. هل فعل ذلك؟ يسأل سكولي بحماسة، يا رفيقي المسكين، ما أهمية أمر كهذا الآن، فكل شيء يخلص إلى النهاية نفسها على أي حال. كلهم متشابهون وهم في المرحاض، يقول ينز مع قدح الجعة الثالث، قبل أن يخبر كولبين قصصًا جديدة عن بال الذي يجوب المرج الوعر بحثًا عن عينيه اللتين سرقتهما الثعالب والغربان، يرويها ليبهج الشيخ، مع أنه هو شخصيًا لم يصادف قطّ شبحًا، والأحياء مزعجون بما يكفي، يقول وهو يرشف جرعة كحول. يجمع سكولي أوراقه ويقف. ألن تلقي نظرة على هاتين؟ يسأله ينز الذي يملك شعرًا أشقر ويمكن أن يكون وسيمًا لولا أنفه الضخم، ويسارع إلى إخراج مغلفي رسالتين من حقيبته ويعرضهما على سكولي. شهاداتان أو تصريحان من مزارعَين تنصّان على أن ينز لم يستطع عبور الجبال بأسرع مما

فعل بسبب العواصف والثلوج ، وبالتالي هو متخلّف عن الجدول ، وهذا مدعاة انزعاج الكثيرين بمن فيهم سكولي . غير ضروري ، يجيب المحرّر باقتضاب وهو يومئ لهيلغا ولا يهتم بالنظر إلى الفتى وكولبين على الرغم من أنه يتردد بل يكاد يقفز مجفلاً عندما يشاهد غيرترود وهي تظهر عند الباب وراء النضد ، لم تبال برفع شعرها الأسود كالليل ، تركته منسدلاً على كتفيها فوق الرداء الأخضر الذي يناسبها كثيرًا جدًا إلى درجة أن سكولي يعجز عن التفكير في أي شيء آخر وهو في طريقه إلى البيت ، يمشي متثاقلاً يخترق العتمة ورأسه مغشي بشعر أسود ورداء أخضر ، والرغبة تُحدق به مثل عاصفة .

٣

الليل في الشتاء مغرق في الظلام والسكون . وهذا يجعلنا نسمع تنهّد السمك في قاع البحر ، وأولئك الذين يتسلّقون الجبال أو يجتازون المروج العالية يمكنهم الاستماع إلى موسيقى النجوم . أهالينا القدماء الذين أتتهم الحكمة من الخبرة ، قالوا أن لا شيء هناك في الأعلى سوى التضاريس المكشوفة والخطر المهلك . إذا لم نحفل بالخبرة نندثر ، لكن إذا أوليناها اهتمامًا كبيرًا نتعفّن . في مكان ما يُقال إن الموسيقى توقظ في المرء القنوط أو توقظ فيه الألوهية . الانطلاق إلى الجبال في الليالي الساكنة ، الليالي الكالحة كالجحيم ، سعيًا وراء الجنون أو البركة ، هو ربما مثل أن يحيا المرء من أجل شيء . لكن ليس هناك الكثير ممن يُقدِمون على مثل هذه الرحلات ؛ حيث تُتلف خلالها أحذية باهظة الثمن ، وسهر الليل يجعل المرء عاجزًا عن مواجهة مهام اليوم ، ومن ذاك الذي ينجز عمله عنه إن لم يستطع هو أن يفعل؟ لا تناغم بين الصراع من أجل كلّ من الحياة والأحلام معًا ، والشِّعر وسمك القدّ المملح على طرفي نقيض ، ولا أحد يأكل أحلامه .

هكذا نعيش .

يموت المرء إذا حُرم من خبزه ، لكنه بلا أحلام يذوي . ما يهم هو نادرًا ما يكون معقّدًا ، ومع ذلك ما زلنا نحتاج إلى الموت لنتوصل إلى استنتاج مماثل في الوضوح .

الليالي في المناطق المنخفضة ليست على الأطلاق بذلك الهدوء نفسه ، وفي مكان ما على طول الطريق من الأعلى إلى الأسفل تتلاشى

موسيقى النجوم . مع ذلك يمكن أن تكون الليالي هنا ممعنة في السكون ، إذ لا أحد يخرج ليصول ويجول ما عدا ربما الحارس الليلي ، يقوم بدوراته متفقدًا مصابيح الشوارع التي لا يُعتمَد عليها ، ليتأكد من أن الدخان لا يتصاعد منها ، وأنها مضاءة فقط عندما ينبغي أن تكون كذلك . وها هو الليل الآن يخيّم على البلدة ، موزّعًا الأحلام والكوابيس والعزلة . ينام الفتى بعمق في غرفته مستكينًا تحت لحافه . أبدًا لم يحصل من قبل على مساحة خاصة به للنوم إلى أن أحضره موت باردور إلى هذه الدار قبل ثلاثة أسابيع . وفي البداية عانى من صعوبة النوم في وسط الهدوء ؛ لا تردّد أنفاس على مقربة منه ، ولا صوت سعال نصف مكتوم ، أو تصاعد شخير ، أو حسّ أحدهم يتقلّب في السرير ، والضراط ، والتنهّد في أعماق النوم . هنا ، هو من يقرّر متى يطفئ المصباح ، ويمكنه بالتالي أن يقرأ كما يشاء ؛ إنها حرية تسبّب الدوار . أنا سأطفئ المصباح الآن ، يقول مزارع ما ، عندما يشعر أنّهم أطالوا سهرهم كثيرًا في الغرفة العائلية ، وبعدئذٍ يحكم الظلام قبضته عليهم . ذاك الذي يبقى صاحيًا إلى وقت متأخر جدًا لا يكون ملائمًا جسديًا لأعمال اليوم التالي ، إلا أن ذاك الذي لا يلاحق أحلامه يخسر قلبه .

ويطلع الصباح ببطء .

تحتجب النجوم والقمر ولا يلبث أن يهلّ فيضان النهار ، ماء السماء الأزرق هذا . النور المبهج الذي يساعدنا على التنقّل في العالم . بيد أن الضوء ليس واسع الانتشار ، فهو يمتد من سطح الأرض نحو السماء عشرات الكيلومترات فقط ، إلى حيث يسيطر ليل الكون . وهذه على الأغلب الطريقة نفسها مع الحياة ؛ البحيرة الزرقاء التي ينتظر خلفها محيط الموت .

٤

أفتقدك يا فتى وأفتقد باردور ، وعلى نحو ما أرى الحياة أصعب الآن ، تكتب أندريا من أكواخ صيد السمك . جلست على سريرهما في الغرفة العليا ، استخدمت ركبتيها وكتاب تعليم اللغة الإنجليزية كمنضدة . أما الرجال فكانوا في البحر : بيتور وآرني وجفيندور وإينار ، مع اثنين من صيادي السمك المتجولين جيء بهما ليحلا محل الفتى الذي عاش والرجل الذي مات . في الخارج في مكان ما ترددت أنفاس البحر ثقيلة ، حيث الثلج المتساقط يغمر الدنيا ويبتلع كل شيء . واستحال على أندريا أن تميز شيئًا بما في ذلك كوخ صيد السمك الآخر ، ولا اكترثت لهذا قيد أنملة ، مع أنه يمكن سماع أنفاس البحر بوضوح في لجة العاصفة ، ذلك الشهيق والزفير العميق لمخلوق بلا إدراك ، صندوق الكنز ومقبرة الآلاف . جدّفوا باكرًا في الصباح وربما كانوا آنئذٍ ينتظرون أمام خيوط الصيد بينما جلست تكتب رسالتها ، بيتور والخوف يجري في عروقه ، لأن كل شيء بدا أنه يفارق الحياة . أفتقدكما يا فتى ، تكتب . وأحيانًا أتمنى لو أنني ما قابلتكما ، إلا أن أفضل ما جرى معي في حياتي غير هذا لا يكاد يُذكر . لا أدري ما العمل . لكنني أشعر كما لو أنه يجب علي أو أنا في حاجة إلى اتخاذ قرار بخصوص حياتي . ما سبق لي قطّ أن فعلت ذلك من قبل . عشت فحسب ، ولا أعرف أحدًا أستطيع أن أسأله النصيحة . أنا وبيتور لا نتحادث إلا لمامًا ،

وهذا لا يمكن أن يكون مريحًا للآخرين ، ما عدا إينار ربما . إنه مخلوق مؤذٍ . أحيانًا يحدق بي كما لو أنه ثور وأنا بقرة . أوه ، لماذا أكتب لك مثل هذه الأشياء ، أنت ما زلت يافعًا ، ولديك ما يكفيك لتتعامل معه . وشخبطاتي لا تكاد تكون واضحة المعالم . أعتقد أنني سأمزق هذه الرسالة ثم أحرقها .

أفتقدُ ؛ والأيام قد مرّت .

المسافة بين باردور والحياة لا تكفّ عن الاتساع كل يوم ، كل ليلة ، لأن الزمن يمكن أن يكون نذلاً فاسدًا ، لا يمنحنا كلّ شيء إلا ليعود ويسترده ثانية .

الفتى مستيقظ ، يعتدل في السرير ، يرنو إلى الخارج حيث الدنيا غارقة في شبه ظلام ، تتبخر أحلام الليل منه رويدًا رويدًا ، تتلاشى ، تتحوّل إلى هباء . الوقت يقترب من الساعة السادسة ؛ لعلّ هيلغا قرعت الباب قرعًا خفيفًا ، فاستيقظ من فوره . ثلاثة أسابيع تقريبًا قد مضت منذ أن وصل إلى هنا مع كتاب شعر مهلِك على ظهره . لأي شيء آخر يُستخدم الشعر إن لم يتضمن القدرة على تغيير المصير؟ هناك كتب تسلي المرء إلا أنها لا تستثير أكثر أفكاره عمقًا . ثم هناك كتب أخرى تحفزه على طرح الأسئلة ، تمنحه الأمل ، توسّع العالم ، ومن المحتمل أن تعرّفه على المنحدرات . بعض الكتب جوهرية ، وغيرها أدوات تسلية .

ثلاثة أسابيع .

أو ما يقاربها .

غرفة فسيحة كغرف الريف العائلية ، حيث يشتغل فيها وينام ثمانية إلى عشرة أفراد ؛ هنا هو وحده في كل هذا الحيز الواسع . هذا مثل امتلاك الوادي بأكمله لنفسه ، امتلاك نظام شمسي متاخم للحياة ، إنه على

الأغلب لا يستحقّه . بيد أن القدر هو الذي يتولى توزيع الحظوظ السعيدة والحظوظ الشقية ، وليس للإنصاف علاقة بهذا ، وبعدئذ هي مهمة المرء أن يحاول تغيير ما يحتاج إلى التغيير .

غرفة النوم لك ، كانت قد قالت غيرترود ، وها هو هنا ، يجلس مشوّش الذهن بين النوم والصحو ، شبه مترقب أن يختفي كلّ شيء : الغرفة والدار ، والكتب على طاولة السرير الجانبية ، ورسالة أندريا . لا ، لم تحرقها ، توقّف ساعي بريد محطة صيد السمك عند الأكواخ بعد مرور فترة وجيزة على انتهائها من كتابتها ، والحيرة لا تكفّ عن اعتصارها ، أينبغي أن تحرق الرسالة أو لا تفعل ، وعلى نحو ما أعطتها لساعي البريد لا شعوريًا ، ثم غيرت رأيها فورًا وهرعت إلى الخارج لتسترجعها لكنه كان قد رحل ، ابتلعته ندف الثلج ، تجرّعه البياض .

العصر والمساء يمكن أن يلفّهما هدوء بالغ في هذه الدار ، إلا عندما يكون المقهى آهلاً بالرواد ؛ وقد كان سيل الزبائن كثيرًا نوعًا ما قبل نصف شهر ، عندما تنحّت الغيوم جانبًا ليومين ، وتدفق البحارة من السفن إلى البلدة . حينها اضطلع الفتى بمسؤولية تقديم الجعة والخمور وجرعات المشروبات الروحية ، وتلقى بالمقابل تعليقات تهكم . استخدام الكلمات سهل بشكل عام ، وهناك أناس يعتقدون أن التصرفات الفظة أو الهمجية تزيدهم عظمة . إلا أن معظم الأمسيات يغلب عليها الهدوء . تغلق هيلغا المقهى ، ويجلس أربعتهم في إحدى غرف الدار الداخلية ، يتدلّى بندول الساعة الكبيرة بلا حراك ، كما لو أنه أسير كآبة لا قعر لها ، والفتى يقرأ لكولبين من كتب الشاعر الإنجليزي شكسبير ، وفي أغلب الأحيان تستمع المرأتان أيضًا إلى ما

يقرؤه . كان قد انتهى من هاملت ، وبلغ منتصف عطيل ، لولا أن البداية لم تجر جريانًا حسنًا بالتأكيد ؛ غضب كولبين غضبًا شديدًا بعد القراءة الأولى بحيث لوح بعكازه ناحية الفتى . وما لبث أن بدأ ينخر بصوت خفيض خلال القراءة ، وهذا لم يكن مشجعًا على نحو مؤكد ، جفّ فم الفتى ولفترة من الوقت أحسّ كما لو أن حنجرته تنقبض وتغلق ؛ وانبرى يزقزق بدلاً من أن يقرأ . يجب ألا تقرأ كما لو أن نفسَك مقطوع ، قالت هيلغا عندما غادر كولبين ، بعد أن ترك الغرفة مثل كبش غاضب ؛ اقرأ على نحو طبيعي كما تتنفس ، هذا سهل جدًا حالما تتدرب على طريقة القيام بذلك .

حالما تتدرب على طريقة القيام بذلك .

في ذلك المساء عانى الفتى من صعوبة الاستغراق في النوم . استدار وتقلّب وتصبّب عرقًا في السرير الفخم ، أضاء المصباح مرات عديدة ، تفحّص هاملت بدقة ، ألقى بنفسه في جدول الكلمات المسببة للدوار ، وحاول أن يدرك المراد منها . سيُرمى بي خارجًا ، تمتم ؛ كيف بحقّ الجحيم يتنفس المرء الكلمات؟

كانت جلسة القراءة التالية كارثية أيضًا .

فاشلة جدًا إلى درجة أن ذلك الشعر الإنجليزي الذي له نكهة سماء لا يسبر غورها ويأس عظيم تحول إلى أرض بلا حياة قاحلة ومقفرة .

بعد خمس دقائق نهض كولبين ، انكمش الفتى غريزيًا بانتظار ضربة لم تأت ، بقيت العصا مرتكزة على الكرسي بلا حياة ، ومدّ كولبين يدًا بدت أشبه بكفّ كلب هرم أشعث ، رفعها بكثير من نفاد الصبر . يُفترض أن تناوله الكتاب ، قالت هيلغا أخيرًا ، بهدوء بالغ ، وبعد ذلك جرّ الغول العتيد نفسه خارج الغرفة وهو يلوح بعصاه التي اكتسبت روحًا نزقة خاصة بها بين

يديه . حسنًا ، فكّر الفتى وهو جالس هناك ، فشل ذريع ، قُضي الأمر ، علي أن أحاول الحصول على عمل في تمليح السمك هذا الصيف ؛ ما أنا فيه كان أروع من أن يُصدّق أيضًا ، كان حلمًا والآن حان الوقت للاستيقاظ . وقف ، ثم لسبب ما عاد وجلس مباشرة . استكانت غيرترود في كرسيها وبيدها لفافة تبغ ؛ تلك على الأرجح أسوأ قراءة سمعتها في يوم ، قالت بصوت أجش قليلاً ، بما أنها تمتلك في الواقع قلب غراب . لكن لا تخف فأنت لم تخبط القاع بعد ، يمكن أن تصبح أسوأ إذا داومت على هذا المنوال . لا أظن ، تمتم . بلى بلى ، لا ينبغي أبدًا أن نستهين بالبشر ، ما يعجزون عن تدميره هو أقلّ من القليل . ثم أخذت نفسًا من لفافتها ، حبست في جوفها السم اللذيذ عدة ثوان قبل أن تطلق سراح الدخان من أنفها ؛ لكن كما قالت هيلغا ليلة أمس ، يجب ألا تفكر ، اقرأ فقط . اقرأ النصّ في غرفتك لاحقًا ؛ وبعدئذ تحصل على وقت كاف إلى ما يقارب منتصف نهار الغد لتتحضر ، اقرأ إلى أن تكفّ عن التمييز بين النصّ وبين نفسك – حينذاك يمكنك أن تقرأ من غير أن تفكّر . لكن كولبين أخذ الكتاب .

تستعيده لاحقًا ، سنذهب ونجلبه ، فهو لا يستطيع قراءة شيء منه .

ما زال الفتى جالسًا في سريره .

يستمع إلى أحلام الليل تدلف من دمه ، وتختفي في غياهب النسيان ، ثم يغادر السرير ويزيح الستائر الثقيلة . الضوء غير مصقول تقريبًا ، لكنه لا يخفي المعالم ، ومع ذلك يبدو المشهد كما لو أن كل شيء فيه محرّف قليلاً ، أو ضبابي ، كأنما الدنيا تعيد ترتيب نفسها ببطء بعد الليل والعواصف الثلجية في الأيام الماضية المعدودة . لا آثار أقدام في الثلج في الأسفل ، إلا أن

الوقت الآن طبعًا السادسة صباحًا ، وقريبًا ينطلق شخص ما ويفسد النقاوة . خادمة في طريقها إلى دكان ، المحترم ثورفالدر يقصد الكنيسة ليبقى وحده مع ربه ، ناشدًا القوة لئلا ينحني تحت وطأة جهاد الحياة الشاق ، يسجد عند المذبح ، يغمض عينيه ، يحاول بلا جدوى تجاهل الغربان المتنقلة على حافة السقف ، تتنقل بحزم ، كما لو أن الخطيئة بنفسها تتبختر هناك ، معلنة عن حضورها . ربما ليس الربّ من خلق الخطيئة إنما العكس .

يجلس الفتى في المقعد الوثير ، يمرّر يده على رسالة أندريا كأنه يقول ، لم أنسكِ وكيف لي أن أنسى ، ثم يتناول كتابًا من طاولة السرير الجانبية ، قصائد من تأليف الشاعرة أولاف سيجورذردوتير . في نيته أن يقرأ قصيدة أو اثنتين ، وعليه أن ينزل إلى الطابق الأرضي ، لا ريب في أن هيلغا تنتظر مع بعض الأعمال التي يجب أن ينجزها ؛ جرف الثلج حول الدار ، والتنظيف ، وفرك الأرضية ، والقراءة لكولبين من الصحف والمجلات ، ثم الذهابِ إلى متجر تريجفي . يباشر القراءة ، وهي تنطق ، كلمات جليلة :

تنطق ؛ كلمات جليلة . تضحك ، أوه قلب رنّان .
تكره ، نقمة عظيمة . تأمر ؛ يا لها من عبارة .
تعمل ؛ اندفاع كبير . تحبّ ؛ أوه نار حلوة .
تهدّد ؛ قوة هائلة . تناشد ؛ يا لها من صلاة .

يتوقّف عن القراءة ويحدق في الفراغ . تحبّ ، تهدّد ، يا لها من تعابير .

٥

كان قد مضى أسبوع تقريبًا منذ أن أرسلته هيلغا إلى متجر تريجفي . وكان يفترض به أن يشتري بعض النثريات ، شوكولاتة وملبّس لقهوة المساء ، ولوز مرّ تريد هيلغا أن تطليه بالسمّ وتبعثره في أرجاء القبو من أجل الفئران التي استقرت هناك ، واعتبرت البيت بيتها أكثر مما ينبغي . كان غونار يقف وراء منضدة البيع ، بشاربه وضحكته التهكمية الساخرة ، ولديه نية واضحة في أن يقول شيئًا يسليه ويسلي المتسكعين في المتجر ، ويجعل الفتى يتنهّد بينه وبين نفسه ، لا يبدو أبدًا أن العالم يعاني نقصًا في أولئك الذين يتجشمون عناء إذلال الآخرين بكلماتهم . يُعمِل الشيطان مخالبه فيهم فيفتحون أفواههم . وهناك وقف غونار فاغر الفم ، بينما لبث بائعان آخران يراقبان ، إلا أنه لم يفلح في قول ما هو أكثر من «حسنًا» ، لأن راغينهيلد أقبلت وسألت الثلاثة مباشرة إن كان لديهم ما يفعلونه . اختفى الموظفان بسرعة كبيرة حتى بدا كأنهما تحولا إلى شعلة لهب ، أما غونار فلم يبتعد ، اكتفى بالتنحي جانبًا وبدأ يتحسّس بعض علب التنك بوجه متجهم القسمات .

عاينت راغينهيلد الفتى من تحت شعرها البني بنظرة فيها ترقّب وبرود ؛ تنحنح وطلب بصوت واطئ ومتردّد الأطايب للبشر والموت للفئران . لم تتحرك ، عيناها مسمرتان على وجهه ، وشفتاها منفرجتان قليلاً ، التقط لمحة من أسنانها البيضاء المتراصة مثل الجبال الثلجية وراء شفتيها الحمراوين . تنحنح ثانية ، وهمّ بتكرار طلب الشوكولاتة واللوز ، لكنها بدأت تتحرك وكل

ما أمكنه التفكير فيه كان : لا تنظر إليها .

حضّرت طلبه .

وهو راقبها .

لكن ما الداعي إلى مراقبة فتاة ؛ أي فائدة في ذلك ، وماذا يفعل هذا في القلب ؛ يثير عدم اليقين ، أم تصبح الحياة أفضل بطريقة ما ، تصبح أجمل؟

وأي شيء جدّ مميز في الأكتاف؟ فكّر ، محاولاً بلا جدوى زحزحة عينيه عن كتفيها ، الجميع لديهم أكتاف ، ولطالما كانت لدى البشر أكتاف في كافة أرجاء الدنيا . كان لدى الناس أكتاف في عصر المصريين القدماء ، وستكون لديهم أكتاف حتمًا بعد عشرة آلاف سنة . الكتف هي المنطقة التي تتصل بها الذراع بعظم الكتف وعظم الترقوة ؛ وتأمّل المرء مثل هذه الأشياء ليس إلا هدرًا للوقت بالتأكيد ، مهما بدت مستديرة . لا تنظر ، أمر نفسه ، ونجح أخيرًا في الامتناع عن النظر إليهما بينما هي تلتفت ليقابله جانب وجهها الأبيض والبارد . راقبهما غونار عن كثب وبإمعان بحيث غفل عمّا يفعله ، اصطدم بكومة علب تنك فسقطت على الأرضية مصدرة قعقعة عالية . عندما أشاح الفتى وجهه عن غونار الذي وقف بين ما يقارب عشرين إلى ثلاثين علبة مطلقًا لسانه بالسباب ، كانت راغينهيلد تواجهه مباشرة ولا فاصل بينهما سوى منضدة البيع ، وفي فمها حبة حلوى . حسنًا ، لا شيء غريب في أن يضع المرء حبة حلوى في فمه ، لا مثقال ذرة غرابة في ذلك ، لكنها أخذت تمصها ببطء وقد وقفا وجهًا لوجه وعينًا لعين . ومرّت ألف سنة . اكتُشِفت آيسلندا واستوطِنت . أو ربما مرّت ألفا سنة ؛ وصُلب المسيح ، وغزا نابوليون روسيا . بعدئذٍ ، أخرجت حبة الحلوى الندية واللامعة من فمها انحنت فوق منضدة البيع وحشرتها في فم الفتى . ارتعشت يده قليلاً وهو يعدّ المال . وحالما تناولته منه راغينهيلد بدا الأمر فجأة كما لو أن الفتى ما

عاد يعنيها البتة .

ربما هي تعذبني فقط لا غير ، فكّر وهو يخطو خارج متجر تريجفي ماضيًا عبر الثلج ، والدهشة تغمره من الشعور الرائع الذي ينجم عن خضوع المرء للتعذيب . كانت حبة الحلوى لذيذة بطريقة لا تُصدق ، مصها الفتى بحماسة وقلبه يضخ الهياج في دمه . وجد ذلك الهياج لنفسه مصرفًا سخيفًا في الليلة التالية عندما استيقظ فجأة من حلم عن راغينهيلد : رآها مستلقية عارية إلى جانبه ، وإحدى ساقيها فوقه ، لكن ، لم يملك أدنى فكرة كيف بدت وهي عارية ، فقط عرف أنها كانت دافئة على نحو بديع جدًا ، وناعمة بطريقة تستعصي على الفهم ، واستيقظ مجفلاً ، ومبللاً . اضطر إلى التسلل إلى القبو ليغسل ملابسه الداخلية ، بين الفئران التي ماتت ببطء من السمّ المرّ .

٦

انتهى الفتى من ارتداء ملابسه ، وها هو يقرأ قصيدتين من شعر أولاف قبل أن ينزل إلى الطابق الأرضي .

يقابله شخير ينز وهو على الدرج . ينام ساعي البريد في غرفة الضيوف في الطابق الأرضي خلال أيامه المعدودة هنا في البلدة ، ولا يتوقّف أبدًا مدّة أطول من يومين ، مدّة كافية ليرتاح الحصانان ، ولا يبقى مدّة أطول إلا في حال هبوب عاصفة ، في حال اشرأب عنق الجو السيئ من قاع البحر محمّلاً بالنقمة الملحفة في القدم . يمتزج أريج القهوة مع الشخير بعد أن يصبح الفتى في الأسفل حيث تنتظره وجبة الصباح ؛ خبز وعصيدة . يمضغ كولبين خبزه المدهون بطبقة سميكة من معجون كبد الإوز . أتيتَ لتنقذني من مرح كولبين المتواصل ، تقول هيلغا . والفتى يغمره شعور طاغ بأنه في البيت إلى درجة أنه يبتسم ، ولا يسمح لتعبير وجه كولبين النكد أن يزعجه . كيف يستطيع ينز النوم وسط شخيره؟ يقول . النوم نعمة لبعض الناس ، تجيب هيلغا وهي تستمع إلى القهوة تغلي ، فالوجبة السابقة من القهوة خُصصت لكولبين فقط الذي يكون خلقه نزقًا جدًا قبل قهوة الصباح ، بحيث أن معظم الأحياء ينفرون منه بما في ذلك الحياة نفسها .

تغلي القهوة وتتخمر .

أوه ، يا لأريج هذا الشراب الأسود .

ما الداعي إلى أن نتذكّره بهذا الوضوح ؛ مضى وقت جدّ طويل منذ أن كان في وسعنا شرب القهوة ، عقود عديدة ، مع ذلك ما زال المذاق والتلذذ به

يطاردوننا . التُهِمت أجسادنا إلى آخر لقمة فيها منذ عهد بعيد ، تعفَّن لحمنا وسُلخ عن عظامنا ، حاولوا أن تستخرجوا أجسادنا من حفرنا ولن تجدوا إلا عظامًا بيضاء تسخر منكم ، إنما على الرغم من ذلك تبقى مسرات الجسد ملتصقة بنا ؛ والتخلص منها مستحيل بقدر استحالة التخلص من الذكريات التي تقهر الموت . يا موت ، أين سلطانك؟

الجو في المطبخ دافئ ومريح . يشمّ كولبين الهواء ، يداه الكبيرتان تمسكان قدحه الفارغ ؛ أتريد المزيد؟ تسأله هيلغا ، فيهزّ الشيخ رأسه . أتداولتما كلمات اليوم الأولى ؛ أفاتتني؟ يسأل الفتى ، لكن كولبين لا يمنحه جوابًا . أما هيلغا فتقول وهي تتثاءب ، الكلمات في مطلع الصباح باهظة الثمن . كانوا قد ناموا في وقت متأخر ، ما عدا كولبين ، الذي ما عاد يتحمّل السهر ، بعدما أصبح عديم الفائدة وخائر القوى . جلسوا في المقهى ، وقصّ عليهم ينز ، بناء على طلب غيرترود ، مزيدًا من أخبار العالم إلى أن أجهده المشروب . يجلس الفتى إلى الطاولة ولحظتها فقط يلاحظ الخدوش على وجنتي الربّان ، عميقة جدًا في موضعين إنما ليست شديدة الوضوح على بشرته السمراء . يعاين هيلغا بنظرة فضولية ، يمرّر سبابته على خدّه ليجلب انتباهها إلى جروح كولبين ، فتهزّ كتفيها في إشارة منها إلى أنها على ما يبدو لا تعلم شيئًا . أهناك اجتماع الليلة؟ يسأل كولبين ، ملمحًا بذلك إلى اجتماع جمعية الحرفيين الذي يعقد شهريًا في المقهى ، كلماته الأولى منذ الصباح ، كلمات عادية وبسيطة ، ومع ذلك يفلح في شحنها بالعدائية . نعم ، في الساعة الثامنة ، تجيب هيلغا ، وهي تجلس عند نهاية الطاولة ترشف القهوة التي تدفئ عروقها ، وتجعل قلبها يشعر بالتحسّن ؛ تتنهّد وتقول : إذا كانت هناك جنة ، فلا بدّ من أن حبوب البنّ تنمو فيها . ثم تردف : ألا يجب أن أضع مرهمًا على تلك الخدوش يا كولبين ، يمكن أن تلتهب . فيعاجل الفتى إلى القول ، كيف أصبت بها؟ يسأل مباشرة من غير أن يتوقع

ردًا من كولبين ، فهو في سنّ أصغر من أن يكون لبقًا . ينخر كولبين ، يتمعج ناهضًا على قدميه ، يمضي خارج المطبخ مثل كبش نكد، يلوح بعصاه ، يضربها بالحائط ، يضربها بقوة مرتين على مقربة من غرفة ينز ، فيصحو ينز مجفلاً ، ينقطع شخيره والصداع الحادّ ينخره . يرهفان السمع بينما يصعد كولبين الدرج ، يجلد ما حوله بعكازه ، وهو يتمنى ربما أن يوقظ غيرترود أيضًا . اللعنة ، إنه أحيانًا مسلٍّ ، يقول الفتى . نعم ، توافقه هيلغا ، لكن ما كان ينبغي أن تسأله بتلك الطريقة ، فخدوشه لم تأت بالتأكيد من أي شيء جيد . يسمعان الباب يُصفق في الطابق العلوي ، لقد دخل كولبين كهفه ، صفق الباب بقوة كافية ليتأكّد من أنهما يسمعان ذلك في المطبخ . الآن لا يستطيع أن يتحمّل أي شخص ما عدا نفسه ، يهمس الفتى بينه وبين عصيدته . أواثق جدًا يا فتى من أنه قادر على ذلك؟ تقول هيلغا بهدوء وهي تنظر إلى الأعلى كما لو أنها تحاول النظر في غرفة كولبين مخترقة الأرضية والحيطان .

يستلقي الربان المسنّ بثيابه على السرير ، ممسدًا عصاه كما لو أنها كلب وفيّ . غرفته فسيحة كغرفة الفتى ، وإلى جانب السرير مكتبة ضخمة تحتوي حوالي أربعمئة كتاب ، بعضها سميك والعديد منها باللغة الدانمركية ، جميعها تعود إلى الوقت الذي كان كولبين قادرًا فيه على الإبصار ، عندما كان لعينيه هدف . الآن يكمن في السرير وعيناه لا فائدة منهما ، يمكن رميهما في البحر ، يمكن أن تهجعا في قاع البحر مغمورتين بالظلام . يتنهّد الربان . مفيد أحيانًا أن يتكلم المرء عندما يشعر بالغضب ، كانت هيلغا قد قالت بينما القهوة تغلي وكانا وحدهما فقط : أنا مستمعة جيّدة . لكن كولبين اكتفى بالتمتمة بشيء هو نفسه عجز تقريبًا عن فهمه . يختار أناس كثيرون السكوت عندما تلحف الحياة في لسعهم ، حينما تكون الكلمات على الأغلب مجرد أحجار بلا حياة أو ملابس رثة وممزقة . يمكن أيضًا أن

تكون أعشابًا ضارّة ، ناقلات أمراض مؤذية ، قطعًا متعفنة من الخشب لا يمكن أن تحمل نملة ، ناهيك عن حملها حياة المرء . مع ذلك هي واحدة من بعض الأشياء التي نجدها في متناولنا عندما يبدو أن كل شيء قد خاننا . تذكّروا هذا . إضافة إلى ذلك الذي لا أحد يستوعبه ، وهو أن أدنى الكلمات أهمية ، وأقلها فاعلية ، يمكنها بشكل غير متوقّع إطلاقًا أن تدعم حملاً ثقيلاً ، وتعيد الحياة غير مصابة بأذى من الوديان المسبّبة للدوار .

تغمض عينا كولبين ، ببطء لكن بثبات ؛ ينام . النوم رحيم ومخادع .

٧

يعاود الثلج تساقطه ثانية بينما تنطلق أولافيا بسرعة لتلتحق بهم . تحمل السماء كمًّا لا نهائيًا من الثلج . يقول الهنود في شمال كندا عندما تتساقط الثلوج ، ها هي دموع الملائكة تنهمر . تثلج الدنيا هنا كثيرًا جدًا وحزن السماوات جميل ، إنه غطاء يحمي الأرض من الصقيع وينير شتاءً قاسيًا ، ويمكن أن يكون أيضًا باردًا ومجرّدًا من الرحمة . يتصبب العرق من أولافيا وهي تقرع باب المقهى ، تقرع برفق بحيث تحتاج إلى الانتظار عدة دقائق ، ربما عشرين دقيقة . وعندما يفتح الفتى الباب أخيرًا كان عرقها قد غدا باردًا على جسمها وأخذت ترتعش مثل جرو ضخم . كان عليكِ أن تقرعي بقوة ، يقول ، من غير أن يعي عبثية طلب شيء كهذا . لن تستطيع أولافيا أبدًا أن تُظهِر بتصميم جلي ، ولا برباطة جأش أن لها وجود . حسنًا ، أفلحتُ مع ذلك في الدخول ، هو كل ما تقوله بينما تشرع في تبديل حذائها ؛ انكبت بهمّة على إزالة الثلج عنها في الخارج ، وإذ تخطو داخلة لا تكاد تكون عليها ندفة ثلج واحدة . يمدّ الفتى رأسه ويقحمه خارج مدخل الباب فيتجلل شعره الأسود بالبياض . تنبسط الأرض في كل مكان تحت طبقة كثيفة من حزن الملائكة ، لا ماشية ترعى في المراعي أو عند الشاطئ ، أُبقيت المواشي في الحظائر ، والمزارعون يعدون كل ورقة نبات تدخل بطونها ، ففي بعض المناطق لم يتبق إلا القليل من الفضلات ، والحيوانات تثغو وتجأر من أجل حياة أفضل ، لكن الغيوم كثيفة ولا صوت يبلغ السماء . آثار أقدام أولافيا التي تقطع المسار وحيدة تبدأ في الاندثار ، والثلج المنجرف غطى منذ مدة طويلة

آثار قدمي ثورفالدر الذي شقّ طريقه صعودًا إلى الكنيسة باكرًا في الصباح ، ليشكر ربه على الحياة والنعمة ؛ إنما أي نعمة؟ نسأل . لعن ثورفالدر الغربان عندما خرج ، رشق مجموعة من كرات الثلج ناحيتها ، إلا أنه أخفق تمامًا في إصابتها ، والغربان لم تتحرك من أماكنها على حافة السقف ، اكتفت فقط بالنظر إلى القسّ ونعقت بسخرية . يغلق الفتى الباب على الدنيا ، يفتح الباب الداخلي ويصيح بصوت عالٍ ، نعم ، أولافيا هنا! يجفلها سماع اسمها يُنطق بصوت عالٍ وبلا تردد ، إذ أي اسم هذا الذي يستحق أن ينادى به بصوت عال ليسمعه عديد من الآخرين ، وأي حياة استحقت أن تكتسبه؟

في الواقع يمكن أن يخلق القضاء والقدر سياقات غير متوقعة ، وعلينا أن نكون شاكرين لهذا ، وإلا فالكثير سيكون متوقّعًا مع القليل من الحركة في الأثير المحيط بنا ، حركة ضئيلة جدًا بحيث يمكن أن يصيبه الركود ، وتصبح الحياة خاملة ومملّة . المفاجأة ، وغير المتوقّع هما القوتان المحفزتان اللتان تحثّان الهواء على الحركة وتمدّان الحياة بشحنة كهربائية . عساكم ما زلتم تتذكرون برينولفر؟ ربان سفينة سنوري ، الذي خرّ على الطاولة في المقهى ، مدحورًا باثنتي عشرة قنينة جعة وبالأرق المزمن . وكان الفتى قد جلس قبالة برينولفر وحدّق في صديقه الميت وراء الربان إلى أن ذاب في أحشاء الهواء البارد . ميتًا كان رونق الدنيا .

يومها اكتفت هليغا بتمديد الربان على الأرضية . هو لا يستحق أكثر من هذا ، قالت عندما أرادت غيرترود أن تنقل برينولفر إلى غرفة الضيوف حيث شخر ينز إلى أن خبط كولبين الحائط بعكازه بدافع المشاكسة الفطرية ، أو بدافع يأس مخلوق فقد بصره وغير قادر على الفضفضة . مع ذلك أعطي رأس برينولفر المبعج وسادة يرتاح عليها . إنه مثل كتلة صخرية ، همس الفتى وهو يكافح ليضع الوسادة . غطت هيلغا الربان ببطانية من الصوف

الاسكتلندي السميك ثم ذهبت تبحث عن أولافيا .

كانت لديها فكرة أين يسكن برينولفر وزوجته أولافيا ، إنما لا أكثر من ذلك . ولم يسبق لها أن تكلمت مع أولافيا قطّ ، ولم تقف مطلقًا على مقربة كافية منها لتشم الرائحة الثقيلة نصف الحلوة التي تفوح من جسمها الضخم غير المتناسق ، وأقل من ذلك النظر في عينيها اللوزيتين اللتين تبدوان مفعمتين بالمطر والخيول المبللة . عيناها تلاحقانني أينما ذهبت وترغمانني على معاقرة الكحول ، اعتاد برينولفر أن يقول ، جاعلاً الكثير من الناس يلقون اللوم على أولافيا لإفراطه في الشراب ، ومجرد نظرة سطحية على تلك المرأة كفيلة بشحن المرء باليأس . في الحقيقة إن الأشياء التي قد يكون لها تأثير فعّال قليلة بالمقارنة مع العيون ، ونحن أحيانًا نبصر الحياة بأكملها في العيون وذاك شيء قد لا يطاق . إنما يحتمل أن يكون برينولفر مدمنًا على الخمر لأنه استسلم ، على الرغم من قوته الجسدية الهائلة ؛ فسوء حظّ الإنسان ينبع من داخله أكثر مما يتهيأ لنا . كل ما أرادته هيلغا هو أن تعلِم أولافيا عن مكان زوجها ، تلك كانت مهمتها الوحيدة ، وجدت البيت بعد قليل من البحث ، فتحت أولافيا الباب بحذر ، ونظرت هيلغا في العينين اللوزيتين المفعمتين بالمطر والخيول المبللة .

منذ ذلك الحين داومت أولافيا على القدوم إلى دار غيرترود عدة مرات لتمدّ يد المساعدة في عمل ما بسيط أو آخر .

تأتي في الصباح وتغادر مساءً قبل العشاء ، قبل أن يُغلق المقهى ، تجلس في صالة الاستقبال ويبدأ الفتى في القراءة التي تحسنت تباعًا ، بل يكاد المرء أحيانًا يستشف تعبيرًا راضيًا يرتسم على وجه كولبين ، ويمكن أن يكون ذلك مجرد توهّم . تضرّجت أولافيا بحمرة الخجل عندما دعتها هيلغا في السابق إلى الجلوس معهم ، تمتمت بكلمات وداع وهرعت خارجة من غير أن تقول المزيد .

بعد أول لقاء بين غيرترود وأولافيا ، قالت غيرترود لهيلغا : أنت طيبة القلب جدًا إلى درجة أن الحياة قد تقتلك لو لم أكن إلى جانبك . أتعارضين قدومها إلى هنا بين حين وآخر؟ لا ، لا ، إنه لأمر حسن أن يكون حولنا أناس مرهفون ؛ يساعدنا هذا على استيعاب العالم بطريقة أفضل ، مع أنني لا أعرف دائمًا ما يفترض بي أن أفعل بذلك الاستيعاب .

لا تنجز أولافيا المهام بسرعة ، تتحرك عادة بشيء من الجهد كما لو أن هناك رملاً في دمها ، لكنها تبقى مشغولة باستمرار وتحسن القيام بعملها . يداها شديدتا التصلب ، وقاسيتان مثل الألواح الخشبية ، وأصابعها نحيلة وماهرة جدًا كما تبيّن لاحقًا .

أيقظت هيلغا برينولفر من نوم اثنتي عشرة ساعة أو من غيبوبة اثنتي عشرة ساعة ، وفعلت ذلك بشيء من القسوة .

تستحق أولافيا رجلاً أفضل منك بكثير ، قالت هيلغا ، بينما جلس برينولفر منكبًا على قهوته ووجبته الغنية مع صداع مروّع ؛ كأنما هناك من يحاول تمزيق جمجمته إربًا إربًا . همّ بقول شيء عن عيني زوجته القامعتين ، عن حضورها المملّ ، وأيضًا عن سلوكها الخجول ؛ كل ما صعّب عليه البقاء في البيت ، إلا أن حسّ التزام الصمت سيطر عليه ، إضافة إلى أن عليه بذل الجهد ليحافظ على وجبة الطعام الغنية في جوفه ؛ بدا مثل شيخ مسنّ وقد تراخت كتفاه البارزتان . سفينتي تخلّت عني ، قال أخيرًا ، بهدوء ، كأنه يحدّث نفسه ، أو يحدّث سطح الطاولة الذي لم يجب ، بما أن الجماد لا يعرف الكثير من الكلمات . نظرت هيلغا إلى الفتى ؛ اصعد إلى غرفتك للحظة ، قالت له .

بعد نصف ساعة طلبت من الفتى أن يصطحب برينولفر إلى السفينة ، رافِق كلب البحر هذا إلى سفينته ، قالت له ، عُرفت عنه الجرأة سابقًا أما

الآن فهو هرم وضعيف كما يزعم، ومقتنع بأن سفينته قد رفضته . طلبت هيلغا من الفتى أن يأخذه إلى اللسان الساحلي حيث تنتظر السفينة . أخبرتُه أن لديكَ قدرات خاصة ، أوضحت ، أحيانًا الكذب ضروري لمساعدة الناس .

سفينة سنوري هي السفينة الوحيدة التي ما زالت راسية عند الشاطئ ، مدعومة بأوتاد كبيرة ، بقية السفن أبحرت منذ مدة طويلة . توقف برينولفر بينما ما زالت أمامهما عدة مئات من الأمتار ليقطعاها ، نظر إلى السفينة التي بدت أكثر ما بدت مثل حوت ميت ، ثم أمسك كتف الفتى بشدة ، مستمدًا القوة منها . تسمّر الفتى في أرضه بلا حراك ، متظاهرًا بأنه يمتلك بعض القدرات الخاصّة ، كما أوصته هيلغا أن يفعل ، لكنه عضّ شفته لأنه لفترة من الوقت أحس أن برينولفر سيسحق كتفه . ثم ما لبثا أن وصلا وصعدا إلى السفينة ؛ رحبت السفينة بربّانها . انبطح برينولفر على أرضية سفينته وقبّلها .

استغرق برينولفر وقتًا ليفتح بويب سلوقية السفينة لأنه كان متجمّدًا ومحكم الإغلاق ، يكاد يخطر على بالي أن النزول ليس مقدّرًا لي ، تمتم وهو يتنهّد ، لكن في النهاية فُتح البويب ، ونزلا إلى مقدمة السفينة التي كانت حالكة الظلمة وباردة ، وبدا ذلك كما لو أن برينولفر قد فتح حفرة في الوجود ، ولولا ضوء الصباح الذي انساب عبر الفتحة والتصق مثل رمح في بطن وحشٍ عملاق قاتم ، لحسبا أنهما على وشك الانحدار إلى أسفل درك القنوط بحدّ ذاته . تحسّس برينولفر طريقه بحثًا عن ضوء ، لأن الأحياء لا يرون شيئًا في مثل ذلك الظلام ، أخيرًا عثر على مصباح كيروسين ، شعّ الضوء وشعّ معه الأمل . بعد ذلك بقليل بدأ أفراد الطاقم الذين حثتهم هيلغا على النهوض يتوافدون إلى سطح السفينة واحدًا بعد الآخر .

كان يوني الطاهي أول الواصلين . رجل قصير ومتين البنية وحليق

الرأس ، بوجه منتفخ وعينين فضوليتين لكن ودودتين . ألقى ذراعيه حول برينولفر كما لو أن الأخير قد استُرِدّ من الجحيم ، وتصرفه لم يكن سخيفًا كليًا ، بيد أن معانقة الربّان الهائلة له أوشكت أن تبتلعه ، وآنذاك لم يلمح الفتى سوى رأس الطاهي الأصلع ، حتى كاد يتهيأ له أن برينولفر يعانق القمر بحدّ ذاته . ذهب يوني وأحضر دلوًا ، ارتقى عائدًا إلى اللسان البحري ، ملأه بالثلج ، رجع وبدأ يعدّ القهوة . جاهد ليشعل الموقد ، مضطرًا إلى النفخ على الجمار مدة طويلة ليوقظ اللهب ؛ على المرء أن ينفخ على الجمار بلا توقّف ليبقي النار حية ، مهما كان الاسم الذي نمنحها إياه : الحياة ، الحب ، المثل العليا ؛ فقط جمار الرغبة هي التي لا يحتاج المرء أبدًا إلى تأجيج نارها ، الهواء هو وقودها ، والهواء يكتنف الأرض . حوّل أريج القهوة السلوقيةَ القارسة إلى مسكن بشري ؛ وصعد ذلك الأريج عبر الفرجة المفتوحة مثل صيحة ابتهاج ، والرجال تدفقوا نحو السطح . معظمهم بعمر ربّانهم نفسه ، رجال بجلود قاسية ، جلود مقددة تقريبًا ، متيبسون وأعضاؤهم متصلبة ، ولا يتراخى تيبسهم إلا بعد أن تصبح السفينة في البحر . هنا عند صدر الشاطئ هي حوت مطروح ، حوت بلا حياة ، وحوت يلمع كالفضة حالما يخترق الأمواج .

جلسوا مدة طويلة في السلوقية ، ومضى يوني ليجلب المزيد من الثلج الذي حوّله إلى قهوة سوداء ، وبدا شبيهًا قليلاً بإله هزلي ؛ نفض أفراد الطاقم أجسامهم ليطردوا البرد ، مضغوا التبغ ، وتعالت صيحات الشتائم منهم بسعادة ، ابتلعوا القهوة ، غدًا تدبّ الحياة هنا ، قال أحد الرجال للفتى الذي جلس مسحوقًا بين رجلين عريضي الأكتاف والدفء يسري فيه منهما . وجوههم الخشنة القاسية مسمّرة على برينولفر بمحبة وابتهاج بحيث بدت جميلة كجمال يوم صيفي . كان أحد الأسِرّة محجوبًا بالألواح ، مغطى بلوحين خشبيين متصالبين . ذاك سرير أولاه النرويجي ، أنت لم تعرف

أولاه ، يقولون للفتى ، لقد كان بطلاً . ثم جعلتهم الذكرى يتنهدون ، وكذلك جعلهم تعجبهم من مرور الزمن يتنهدون ، تناولوا مزيدًا من القهوة ومزيدًا من التبغ ، وتشاركوا رواية القصص عن أولاه . نفخوا في وجه جمار الذاكرة ، قلّدوا لغته الفريدة ، كادت عيونهم تدمع . نسي معظم لغته النرويجية ولم يتعلم قط الأيسلندية إلى درجة مفيدة ، اخترع لغة جديدة تتوسطهما تمامًا ، لغة منهما معًا وليست أيًا منهما ، ولا أحد سوى رفاقه الملاحين يستطيع فهم ما يقوله بسهولة . ثمّ مات ، غرق ببساطة قرب رصيف الميناء الأدنى في وسط هدوء تام ، رأى انعكاس القمر في البحر الهادئ وحاول الغوص سعيًا وراءه . غرق وهو يسعى إلى الجمال . أوه ، حقًا . واستقرّ في أفضل سرير لدينا ليرافقنا أينما أبحرنا لاحقًا ، هنا أراد أن يكون وليس في أي مكان آخر . كم كانت شهور الشتاء الطويلة هذه مملّة بالنسبة إلى الرجل المسكين! لكن هذا كما ترى سبب تغطية ذلك السرير ، يقولون للفتى في الختام ، اِحتاج أولاه إلى مكان يبقى فيه ، واختار السرير الأفضل ، وكان لا بدّ من أن نوافق ، وهو بالمقابل يحمينا من شرور عديدة . مثل ماذا؟ سألهم الفتى . عاينه الرجال بدهشة ، فالمرء لا يجدر به أن يطرح مثل هذه الأسئلة . تقلقلوا في مقاعدهم ، مضغوا المزيد من التبغ ، مضغوه بصمت ، والحيرة تعصف بهم ، حسنًا ، لا بدّ من أن ينام في مكان ما ذلك الرجل العزيز ، قال يوني أخيرًا وهزّ الرجال رؤوسهم موافقين ؛ هذا كان جوابًا جيدًا ، ويوني ذكي . حينها طبعًا ، بادر الفتى إلى القول : ولكن أينام الأموات؟

٨

مهمّة الفتى الأولى في هذا النهار الذي طلع ببطء بالغ ، وطلع زاهيًا تقريبًا في البداية ، أو زاهيا بما يكفي بالنسبة إلينا لنتذكر الربيع وأعشاب الصيف الخضراء ، ثم ما لبث أن حُجب بالثلج المتساقط ، مهمته أن ينقل نصًا إنجليزيًا قصيرًا إلى اللغة الآيسلندية ، متسلّحًا ببصيرته وبقاموس بسيط . يجلس في المقهى ، وكولبين ما زال في غرفته في الأعلى ، ما زال نائمًا ربما ، ولعله يحلم بأزهار دوار الشمس ورنين الضحكات ؛ نعم ، نأمل أنه نائم ، نأمل أن يكون الربان الهرم قد أفلح في اختراق الفتحة التي تؤدي إلى عالم النوم السفلي ، حيث للعشب ألوان كثيرة ، ومن الممكن أحيانًا العثور فيه على سلام مميز . من أين يأتي ذلك العالم ، وماذا يحدث له عندما يموت المرء؟

يمعن الفتى النظر في النصّ الإنجليزي ولا يكاد يفقه كلمة ، تلك كانت أفضل الأوقات ، وتلك كانت أسوأ الأوقات .

عليك أن تترجم هذا . سبق أن قالت هيلغا وهي تسلّمه النص الإنجليزي وقاموسًا وقلمًا وورقة . الشخص الذي يمسك قلمًا وورقة يمتلك القدرة على تغيير العالم . أترجم ، كرّر الفتى . أنت ستتعلّم ، قالت هيلغا ، هذه هي البداية ، والكثير من الأشخاص بدؤوا بما هو أقلّ . أراد طرح الأسئلة ، أراد الحصول على بعض التوضيح ؛ من أين ، على سبيل المثال ، جاء هذا النصّ ، ولماذا بالإنجليزية ، ولماذا عليه أن يتعلّم ؛ أيعني ذلك أنه يحدث فرقًا

ويمكنه البقاء هنا مدة أطول محميًا من العالم ، وماذا يتضمن حصوله على التعليم ، أعليه أن يتعلم الإنجليزية ليصبح قادرًا على التحدّث مع ربّان غيرترود؟ أيفهم المرء العالم بطريقة أفضل إذا عرف عدة لغات ، وهل من المهم أن يفهم؟ إلا أن قرعًا ثقيلاً وحازمًا على باب الدار حال دون طرح أي سؤال . نظرت هيلغا إلى الفتى الذي ذهب إلى الباب . تعالى الطرق ثانية قبل أن يبلغ الباب ، قرع نافد الصبر ؛ تبًا ، قالت تلك الطرقات ، ألن يرد أحد؟! سارع الفتى إلى فتح الباب وفي الحال تراجع القهقرى أمام القبضة المغلّفة بالقفاز التي ارتفعت قبالة وجهه مهدّدة ، كما لو أن صاحبها ، ذلك الرجل الطويل ببنيته المتينة كان يفكر في تسديد لكمة إلى وجه الفتى عقابًا له على تلكؤه ؛ لكن القبضة فُتحت في تلك اللحظة ، تحولت إلى راحة يد وراحت تنفض الثلج عن المعطف السميك بياقته المبطنة .

صباح الخير ، أحتاج إلى التحدث مع غيرترود ، قال الرجل ناطقًا كلماته كأنها إلى حدّ ما طلقات من بندقية ، لأن بعض الكلمات تشبه الرصاص وبعض الناس يشبهون البنادق .

توقّف الرجل عن تنظيف نفسه من الثلج ، ربما إذعانًا منه للثلج والسماء ، السماء التي هي أكبر من أي أحد آخر ؛ وحتى هذا الشخص الطويل بمظهره القوي بدا أنه يدرك ذلك ، دخل ، نظر إلى الأسفل ليعاين الفتى لأنه كان أطول منه بشبر تقريبًا ، منحه ابتسامة ملتوية خاطفة وسأل ، من أكل لسانك؟ خلع قبعة الفراء ، كاشفًا عن شعر رمادي لكن لحيته سوداء ومشذبة جيدًا . حاجباه أشعثان وتحتهما عينان رماديتان عميقتا الغور ، تنعمان على ما يبدو بسطوة عظيمة . ليس الكلام مستحسنًا دائمًا ، أجاب الفتى والشعور بما يشبه الاختناق يراوده . نفض الرجل معطفه ، أسفر وجهه عن ابتسامة أخرى خاطفة وقال ، أنت محقّ تمامًا ، فشعر الفتى كما لو أنه ربح جائزة كبيرة . لكن ، أسرع واستدع غيرترود على أي حال ، وافعل

ذلك فورًا ، لأن الوقت ثمين ، عليك ألا تنسى هذا أبدًا .

الوقت ثمين .

هذه المقولة لم يسمعها الفتى قط .

إلى الآن ، مرّ الوقت ببساطة ، مرّ على الناس والحيوانات ، وأخذ معه الكثير من الأشياء القيّمة على طول الطريق ، لكن الوقت بحدّ ذاته ليس ثمينًا ، الحياة فقط هي الثمينة . إنها نائمة ، قال أخيرًا ، بعد أن هضم هذا الزعم الغريب ؛ أظنّ ، أضاف بتردد . حمل الرجل معطفه ووضعه على ذراعه مطويًا ، تحته كان يرتدي سترة زرقاء بزرّين ، مقولبة على نحو مشدود على صدره الواسع . المرء إما نائم أو مستيقظ ، ليس هناك ما يستدعي الظنّ . من يشكّ في الأمور لا يصل إلى أي مكان ، ولا يصبح أبدًا شيئًا . أسرع وأعلمهم بقدومي . النوم في وضح النهار غير صحي . أعرف طريقي إلى الصالة . أحضر لي قهوة ، أريدها سوداء .

هرع الفتى إلى المطبخ . هناك رجل يريد مخاطبة غيرترود ، قال ، لا أظنّ أنه يحبّذ الانتظار طويلاً ، دعا نفسه إلى الصالة وعلي اللعنة إذا لم أجزم أنه فريدريك ؛ يريد قهوته سوداء . خلعت هيلغا مئزرها الأبيض وهي تقول : أنت لا يمكن أن تجزم بخصوص فريدريك ، هو ما هو فقط لا غير ، والجميع يعرف كيف يأخذ فريدريك قهوته ، الرجل يمتلك كل شيء هنا بطريقته الخاصة ؛ ستنزل غيرترود في غضون خمس دقائق ، ثم تردف ، القهوة يا أولافيا . إلا أن أولافيا كانت منهمكة في تحضيرها ويداها ترتعشان قليلاً .

لعلّه من المبالغ فيه قليلاً القول إن فريدريك يمتلكنا ؛ وفي حال وجود من يفعل ، فسيكون تريجفي ، مالك إمبراطورية التجارة التي تسيطر على حياة البلدة والألسنة البحرية المحيطة ؛ ولا بدّ من أن نموت لنفرّ من سلطتها . بيد أن تريجفي يقضي أشهر الشتاء الطويلة في كوبنهاغن مع زوجته

الدانمركية . أولئك القادرون على فعل ذلك يهربون من الشتاء والظلام الخانق ، وخلال شهور الشتاء الطويلة تقع مسؤولية التحكم بمتجر تريجفي على عاتق فريدريك الذي يبدو أنه في كل مكان ، ولا يترك لنا ما هو أكثر من الهواء الذي نتنفسه ، سواء ونحن نعتلي سطح سفينة نائية في عرض البحر ، أو ونحن محدودبون أمام سمك القدّ في اللسان الساحلي ، أو ونحن قاعدون على المرحاض .

أخذ فريدريك فنجان القهوة من غير أن ينظر إلى الفتى ، رشف قهوته بسرعة ، هذا على الرغم من أنها بلا ريب ساخنة جدًّا . كأنه لم يحسّ بسخونتها أكثر مما قد يفعل الشيطان ، فكّر الفتى . سمعتُ عنك ، قال له فريدريك . بيتور رئيس عمال جيد ، والناس الذين يتخلون عن هذا المنصب طوعًا ليسوا كثيرين . لم ينبس الفتى بكلمة ، لم يخطر على باله شيء يقال ، وربما ليس متوقّعًا منه أن يقول شيئًا على أي حال ، وحضور فريديريك أثقل عليه وجعل حلقه يجفّ ، وشكر حظّه عندما وصلت غيرترود ؛ لم تحيّهما واكتفت بالقول إن حضور فريدريك مفاجئ ، أما فريدريك فوقف لها معتّمًا الصالة بقامته المنتصبة . أحتاج إلى التحدث معكِ ، قال . مؤكّد ، تجيب غيرترود ، فأنتَ لا يمكن أن تكون قد جئت من أجل أي سبب آخر . الخشونة في صوتها كانت جلية ، نعيق غراب حلّ محل القلب . تجاهل فريدريك السخرية الكامنة في الجواب ، ابتسم ، كشف عن صفي أسنانه المتراصة . وحدنا ، أضاف بلطف . وقفت غيرترود إلى جانب الفتى الذي التقط لمحة باهتة من الأحلام والليل ، كانت هناك مسحة خضرة في عينيها الداكنتين ، بدتا أشبه بمحيط فيه لقي الكثيرون حتفهم . هذا في الحقيقة ابن زوجي قالت بهدوء ، وعند إحدى زاويتي فمها بعثت ابتسامة أو أثر ابتسامة . إن كانت هذه رغبتك ، قال فريدريك بأدب وهو ينحني قليلاً . عندئذٍ ، نظرت إلى الفتى وانبرت تسأله : هل أعطتك هيلغا النصّ

الإنجليزي؟ فهزّ رأسه إيجابًا . اذهب إذًا إلى المقهى وباشر العمل عليه ، الآن تبدأ مرحلة تعليمك ، عليك أن تقرأه غدًا مساءً .

استدار الفتى عند الباب لينظر؛ وقف فريدريك في البقعة نفسها شاغلاً الصالة بأكملها ، وغيرترود وقفت أمامه وعيناها مترعتان برجال غرقى .

وهكذا لا يلبث أن يجلس معاينًا الكلمات الإنجليزية متسلّحًا بقاموس بسيط وقلم وورقة ، والدنيا تثلج ، يأتي البياض من السماء ، من حزن الملائكة ، لكن ما سبب حزنها؟ تلك كانت أفضل الأوقات ، تلك كانت أسوأ الأوقات . فتش في القاموس عن الكلمات التي لم يفهمها في الجمل الأولى ، وشعور طفيف بأنه مثل ساحر يراوده ، ولو أنه ساحر فاشل بصولجان مكسور ، مع ذلك يستشف السحر وينسى فريدريك ، ينسى كل شيء ، حقًا ، إنه بصدد زيارة عالم بعيد ، فكر بعيد ، تجربة بعيدة ، بصدد بذر البذور في اللغة الآيسلندية ، وربما ينمي نباتات وأشجارًا تحمل ألوانًا جديدة ، عبيرًا مختلفًا . ينظر عبر الكلمات ويغدو كل شيء غضًا ، إنها هي على الأرجح أولاً وقبل كل شيء ما يغير العالم . يحتلّ النص الإنجليزي صفحتين . كمٌّ هائل من الرموز الغامضة في وضعها الراهن ، ثم بعد ما يزيد عن ساعة من النضال يدحر أربع جمل ، باشر زحفه نحو المستغلِق وعاد بفكرة ولمحة من قصيدة ، وبات يستشف الفضة داخله بينما هو منحنٍ على الكلمات . أهذه هي الحياة إذًا ، الوجود الذي فوّته ، من غير أن يعرف ذلك؛ السفر إلى المجهول ، إلى ما لا يُسبر غوره ، والعودة بحزمة من الكلمات هي كلها في آن حطب وقود وأزهار وسكاكين؟ الصمت يلف كلّ شيء؛ هناك فقط الثلج المتساقط والكلمات التي تتضمن فحوى غامضًا ، كلمات تنقل رسالة إلى العالم .

أربعة سطور في ساعة ليست طبعًا بالشيء الكثير ، بيد أن هذه السطور مدهشة أيضًا ، فهي تشبه الأجنحة . ثم قوطع . دخل لولي وأودور المقهى ، الرجلان اللذان يجرفان الثلج في البلدة . إنها وظيفتهما أن يدحرا البياض ، ونادرًا ما يكون هناك نقص منه في البلدة . خرجا إلى العمل منذ الخامسة صباحًا ، يجرفان الثلج على مدى أربع ساعات ، باشرا العمل عند المتاجر الثلاثة الكبيرة ، وسيقصدان المتاجر الأصغر عندما يستطيعان ، وحينما يتراءى لهما أن يفعلا ، صدوع الحياة تتبدّى أينما نظرنا حتى في جرف الثلج . شربا القهوة ، أكلا الكعك الإنجليزي ، بللا سبابتيهما ومسحا الفتات المتبقية بهما ، راقبا الفتى بإمعان وهو جالس هناك منحنيًا على كلماته ، ضائعًا في عالم ما وراء الواقع . وكان في هيئته شيء ما دفع أودور إلى أن يطلب منه كتابة رسالة نيابة عنه ، نوع من رسالة تودّد ، كما فهم الفتى ؛ فأودور أشد حياءً أو انبهارًا من أن يتكلّم بوضوح ، وهنا طبعًا ، من غير المحتمل أن يتكلّم أي شخص بوضوح عن مثل هذه الأمور . لكن بما أنه يبدو على الفتى أنه يعرف كيف يحمل قلمًا ، أيمكن أن يوافق على كتابة رسالة نيابة عن أودور ، رسالة إلى امرأة اسمها راكيل؟ هي ، قال أودور ، ذات شعر أشقر مغبر ، وذراعين قويتين ، وضحكة بشوشة ، وعندما تخجل تهتز أذناها اهتزازًا طفيفًا ، وهذا جميل جدًا ، إنما مؤكّد أنك لن تكتب ذلك ، أعني ، أنها تخجل . لا ، طبعًا لا ، كان الفتى قد أجاب ، ولم يطاوعه قلبه على الرفض ، ولا رفض الدفعة النقدية التي وعده بها أودور ، فخورًا جدًا بنفسه كان الفتى إلى درجة أنه قال نعم ببساطة .

والآن يعود مرة أخرى إلى الجلوس وحده ، لكنه يجد صعوبة في العودة إلى ترجمته . ثرثرة أودور ولولي المرحة تبلغ مسامعه ، يدفع النص الإنجليزي بعيدًا ، ويقرر تأجيل كتابة رسالة أودور إلى وقت لاحق ، فهو يحتاج إلى التفكير فيها ، وإلى جمع الكلمات . يمدّ يده إلى عطيل ، اثبتا يا يداي ،

ويبدأ في التحضير لقراءة المساء التي بلا شك ستُستهلّ في وقت متأخر عن المعتاد بسبب لقاء جمعية الحرفيين. يفتح الكتاب، يستشفّ صيغ الكلمات، يصغي إلى أنفاسها. وقد يستمع ينز أيضًا إلى القراءة، ينز الذي سلّم البريد إلى الدكتور سيغورد في التاسعة من صباح ذلك اليوم، مدفوعًا عمليًا من قبل هيلغا. أخذ زلاجة وجرّ الصناديق خلفه على الطريق، غاص في بعض المواضع إلى خصره بسبب الثلج الطري، لكن المسافة كانت قصيرة، لا تتجاوز مئتي متر، أي لا خطورة مهلكة عليه في ذلك، بل هو أبعد ما يكون عنها. من ناحية أخرى كان ينز قد أسرف في معاقرة الخمر أكثر مما هو ضروري في الليلة السابقة، وصداع الثمالة ما فتئ يبرحه معظم الصباح. يجلس الفتى منكبًا على الكتاب ولفترة طويلة لا يتردّد في المكان صوت سوى وقع ضربات قلبه. الثلج في الخارج أبيض، وبعض الكلمات مصطبغة بألوان تفوق ألوان قوس قزح.

٩

يدعو سيغورد ينز إلى صالة الاستقبال ؛ يقف الطبيب مستقيمًا كاستقامة مدك بندقية ، وظهره على وشك أن يتقوس إلى الخلف أمام ساعي البريد الذي يعتريه الضيق في مثل هذا المحيط الراقي . الصالة في مسكن الطبيب أصغر من صالة غيرترود ، لكن الأثاث منتقى بعناية ، داكن اللون وثقيل الوزن . وهو موزّع بدقّة إلى درجة أنه بجملته يفقد توازنه إذا زُحزحت قطعة واحدة من مكانها . يرغم ينز نفسه على الوقوف ثابتًا ، أمضى وقتا طويلاً وهو ينفض عن ثيابه كلّ رقاقات الثلج قبل دخول البيت ، حزن الملائكة لا شغل له في مثل تلك الصالة الفاخرة . في الصالة لوحتان جسيمتان بإطارات ذهبية ، إحداهما تمثل سفينة ملوكية في بحر هائج قللت ضخامة السفينة وعظمتها من مظهره الخطر ؛ سفن كهذه لا تُرى في الألسنة البحرية هنا ، وسفننا بالمقارنة معها ، لا تتعدى أن تكون أحواض غسيل . اللوحة الثانية هي لـ يون سيغرثسون يقف ويده اليسرى تستريح على طاولة ، وينظر بصرامة إلى ينز ؛ ترى ، ما يضطر بطل كفاحنا من أجل الاستقلال إلى أن يبدو في منتهى الجدية ، وبائسًا تقريبًا؟ يبذل ينز جهده لئلا يقلقل قدميه ، يثبت رأسه ، يرخي كتفيه ؛ الوداعة في طبع الإنسان العادي ليست مدفونة بعمق لدى معظمنا . لكن يبدو أن لين العريكة متأصل في قوميتنا هذه ، مثل مرض مزمن ، يهجع أحيانًا ، ودائمًا يعاود رفع رأسه والظهور ، في حضور الثروات عادة ، والأثاث المتين ، والسلطات المسيطرة والوقحة . نحن أبطال أمام طاولات المطبخ ، ووديعون في الصالونات الفاخرة . يقف سيغورد فترة

أمام ساعي البريد ، شعره المعطر والمرجل جيدًا وشاربه الدقيق المستقيم يمنحان وجهه الصارم مسحة أهمية ؛ وربما هو يحاول ترويع ينز بحضوره وبأجواء الغرفة ، بيد أن ينز ينجح في التماسك ، يقف منتصب القامة ، وهذا نصر ، لأنه على الرغم من أن سيغورد ليس قوة عظمى بالمقارنة مع فريدريك ، إلا أنه يفرض الاحترام ، فهو جزء من السلطات الكائنة . هو مدير مكتب بريد منطقة واسعة ، وغالبًا ما يحتل مقعدًا في المجلس البلدي ، وهو الصيدلي الوحيد هنا ، بعد أن تخلّص من منافس له وأبعده عن البلدة مستخدمًا شتى الوسائل التي تحت تصرفه ، وهو إضافة إلى ذلك بائع كتب . وهذا الموقع الأخير يزوّده طبعًا بشيء من السلطة أو المال ؛ السلطة والثروة ما انسجمتا قطّ مع الشعر ، ولعل هذا سبب نزاهة الشعر ، بل يكون أحيانًا التحدي الوحيد الثقة .

يتقبّل ينز توبيخ سيغورد بصمت ؛ نظرًا إلى أنه متأخر ثلاثة أيام عن جدول المواعيد ، أربعة في الحقيقة . فهو وإن كان قد جاء إلى البلدة في المساء السابق لم يسلّم البريد إلا الآن ، وهذا في المقام الأول مستغرب . يعرف ينز ذلك كما يعرفه سيغورد . ولماذا لم تبادر إلى القدوم إلى هنا أولاً كما يملي عليك واجبك ، يبدأ سيغورد ، وكذلك لماذا لم تعبر الألسنة البحرية من آرنجرذرايري بالمركب كما درجت أن تفعل في أغلب الأحيان ، مع علمك أن ذلك كان سيسرّع وتيرة الأمور . أتريد إرغامي على تقديم شكوى بحقك؟ لم يكن الجو مناسبًا لرحلة بحرية ، يجيب ينز بصوت منخفض ، قبل أن تمتد يده إلى معطفه بحثًا عن شهادات من مزارعَين تنصّ على أن ينز لم تتوافر له إلا بدائل قليلة أمام المعوقات في رحلته البريدية ، وأن عبوره بمركب بعد نزوله من المرج الجبلي ، كما تملي القواعد ، مستحيل . القواعد التي يتدبر ينز بطبيعة الحال أمر تجنبها أكثر مما ينبغي حتى في الجو المعتدل ، فهو قليل الميل إلى الرحلات البحرية ، وبدلاً منها ينحرف بطريقه نحو المعابر الجبلية وحول

ثلاثة ألسنة بحرية ، مبدّدًا بذلك يومًا كاملاً . الجو غير مناسب للسفر البحري ، تنصّ الشهادة الثانية ، والشهادتان تؤكدان أن ساعي البريد اضطر إلى محاربة قوى الطبيعة ، تلك القوى العلوية ، حيث نصب له الشتاء الكمين ، وحاول مرجان وعران القضاء عليه ، والصقيع جهد ليقضم أصابع يديه وقدميه ، وغضب الجبال مزق جسمه . أسلوب الشهادتين هو على نحو لا يمكن إنكاره دنيوي . كتبهما مزارعان ثقة يحظيان باحترام الآخرين لأنهما من الذين يتمسكون بالحقائق الواضحة . أولئك الذين يتكلمون عن غضب الجبال وحزن الملائكة ، تحيط بهم هالة شاعر وبالتالي يفقدون المصداقية ؛ الشعراء هزليون ، زخارف صالات ، وأحيانًا مهرجون ، ونحن دائمًا نتقبل ما يقولونه مع ذرة ملح . قد تكون الحقيقة أن الشعر يتضمن في أعماقه جوهر جمال أمة ما وسخفها ، لكن سبعمئة سنة من الكفاح شكلتنا ونقحتنا ، وفي محطة ما على طول الطريق فقدنا الثقة بأهمية الشعر ، بدأنا نراه أشبه بحلم يقظة مسبب للدوار ، زينة حفلات ، ووضعنا ثقتنا في الأرقام والحقائق البيّنة ، ما لم نفهمه أو ما خشيناه حبسناه في القصص الشعبية غير المؤذية نسبيًا .

الشهادتان مختصرتان ، مقتضبتان ، خاليتان من البهرجة ، تجعلان من الصعب على سيغورد أن يشكك في صحتهما . اِنتظر هنا ، يقول بشيء من البرود قبل أن يدخل مكتبه ليراجع البريد ويقارنه مع سجلّ الرسائل . لا يقول ينز شيئًا ، فذاك كان أمرًا في نهاية المطاف ، لا طلبًا ، وسيطيعه طبعًا ، لا داعي لأن يعطي سيغورد سببًا لتقديم شكوى . فقليلة هي العوائق التي يسمح لها ينز أن تقف في طريق سفراته البريدية ، مواجهًا المروج الوعرة والجبال في أسوأ الأحوال الجوية ، هذا على الرغم من أن التفكير السليم يحثه على التوقف ، إلى جانب محاولات الآخرين إقناعه بذلك ، لكن كيف يمكن أن تكون حياته في حال فقد وظيفته؟ تؤمّن له سفراته البريدية

هدفًا ما ، تشغل حياته ، وهي دائمًا شيء يتطلع إليه ، هذه الرحلات الطويلة ذهابًا وإيابًا ، وما يقارب أربع مرات في السنة على طول الطريق إلى ريكيافيك حيث يحلّ محل ساعي بريد الجنوب . إنما ، ليس من السهل في الوقت نفسه أن يكون المرء ساعي بريد بري . بعض هؤلاء السعاة فقدوا أصابع أقدامهم وأذرعهم وأحصنتهم وحياتهم . وتعويض هذه الخسائر صعب ، والأجر ضئيل جدًا إلى درجة أنه يستحيل أن يقلّ أكثر من ذلك ، أحيانًا لا يكاد يغطي النفقات . وعلى ينز أن يدفع أجرة سكنه ومأوى حصانيه ، والطعام والعلف ، وصيانة ملبسه وسروج الأحصنة ، وما يتبقى يكون دائمًا نقدًا ، عملات نقدية باردة وصلبة ، وقليلون هنا من يحصّلون أجرهم بها ، معظمنا يحيا ويموت من غير أن تواتيه فرصة واحدة للمس أي منها . مع السيولة النقدية تأتي حرية نادرة ، وهناك حرية أيضًا في السفرات البريدية . وأي شخص عبر المروج وحده في ليلة صيفية هادئة بصحبة السماء والطيور لا ريب في أنه عاش من أجل شيء . بيد أنها ليست تلك اللحظات ، بكل ما قد يكون فيها من سعادة هي ما يفكر فيه ينز بينما هو واقف ثابتًا في الصالة الأنيقة ريثما يراجع سيغورد البريد ، يساعده أفراد من العائلة ؛ وحوارهم المهموس يتردّد عبر الجدار الخشبي ، وساعة الجدّ الكبيرة تؤرجح بندولها الثقيل ، وينز يغدو أكبر سنًا مع كل حركة من حركاته . ولا يفكّر أيضًا في الكوارث التي نجا منها مؤخرًا ، في الصقيع الذي ألصقه بحصانه وكان بلا شك سيبتر ساقي الحصان لو أن الطريق إلى البلدة طال أكثر . لا ، يفكر ينز أولاً في أخته ، كما هي الحال في أغلب الأحيان عندما يثقل الفساد كاهل المرء ، يفكر في صفاء عقلها وخلوه من أي شيء ، ويشعر أن غضبه الأسود وكرهه لسيغورد ينحسر ، يتناقص إلى لا شيء ، بل حتى يتحول إلى مجرد غباء يجعل المرء يهزّ منه رأسه . نحن لا نعرف سبب هذه الكراهية التي تبادلها الرجلان من البداية ، ما عدا أن سيغورد يعتبر ينز متغطرسًا وغير

مسؤول وطائشًا ، والطبيب على ما يبدو يتحين أي فرصة ليقدم شكوى بحق ينز ويجرده من منصبه . يظن نفر منّا أنه يجمع تفاصيل مختلفة في تقرير مطول سيوجه إلى ينز ضربة قاضية في وقت ما . مع ذلك يفلح ينز في تنحية سيغورد بعيدًا عن رأسه ، يفكر أولاً في أخته ، في تألقها ، في سعادتها الصافية وثقتها بأخيها ، ثم يفكر في أبيه ، الرجل النشيط الذي تميل كفة حياته وزمنه ببطء وبالتدريج ، وما زال مع ذلك قادرًا على إدارة شؤون مزرعته وتلك الخراف المئة ، بينما ينز ماضٍ في سفراته البريدية . شيئًا فشيئًا ، على أي حال ، تبهت صورتا الأب والأخت في رأسه ، وتحلّ محلهما صورة مختلفة كلّ الاختلاف . تسري السخونة في كافة أعضاء جسمه ، يتسارع جريان دمه ، يموج في عروقه ، ويبقى واقفًا ثابتًا بلا حراك ، ينظر إلى الأمام مباشرة ، بلا تعبير وجه ، كما لو أنه لا يفكر في شيء على الإطلاق ، كما لو أنه لا ينتظر سوى أن يمر الوقت . يمكن أن تكون هناك هاوية هائلة تفصل بين حياة المرء الخارجية وحياته الداخلية ، وهذا ينبغي أن يخبرنا شيئًا ، ينبغي أن يحذرنا من الوثوق كثيرًا بما هو ظاهر ؛ وذاك من يفعل يفتقد الجوهر .

اسمها سالفر .

وهو رآها لأول مرة قبل ست سنوات .

تعمل خادمة لدى المُزارع الذي كتب الشهادة الأولى لينز ، بضع كلمات لتصادق على ما يجب أن نعرفه ، أن الحياة أحيانًا تكون عدائية مع المرء هنا عند البحر النائي . سالفر أكبر منه سنًا ، ثمة ما لا يقل عن عشر سنوات بينهما ، وقد عاشت حياة حافلة قبل أن يأتي ينز إلى المزرعة للمرة الأولى مع حصانيه بيلكر وكرومي . حسنًا ، سواء كانت حياتها حافلة أم لم تكن ، هي في أدنى الأحوال تزوجت صغيرة . عاشت مع عائلتها في مزرعة

متواضعة معظم أرضها صخرية ، هذا على الرغم من أن فيها مراعي مناسبة لكن رطبة . وبالعمل الكادح في وسع المرء أن يحول تلال الحياة القاحلة إلى مروج خضراء ، وزوجها كريسيان لم يكن مجرد رجل كادح ؛ بل لديه الموهبة ليكون شخصًا مسليًا ، وكان يحفظ أعدادًا هائلة من القصائد والحكايات الشعبية ، وهي في الغالب ممتازة النوعية وذات نكهة ترفيهية سائغة ، وهذا ما جعل الكثير من الناس يقصدونه ليستمعوا إلى ما لديه . في البداية ردّد أشعاره وروى حكاياته في البيت بصحبة الأصدقاء ، صوته مرن ، عميق النبرة والقاؤه آسر . الشتاء في الريف في جميع الأحوال طويل ومظلم وشبه معدوم من الأحداث الحيوية ، وبمرور الوقت أصبح الناس يلتمسون مواهب كريسيان . وهكذا بدأ يقوم بزيارات مختلفة إلى المزارع المجاورة ، ثم إلى أبرشيات أخرى لينعش أيام الشتاء القصيرة ، وغالبًا ما كان ينال أجرًا على ذلك ، قد يحصل على ساق من اللحم ، أو حبوب أو حنطة ، وكلها نفعت البيت . في بادئ الأمر كان ذلك مسليًا . افتقدته سالفر طبعًا ، بيد أن افتقاد أحدهم قد يكون مدعاة ارتياح لأنه يكسر الروتين اليومي ، وكانت معنويات كريسيان عالية عندما يعود إلى البيت ، وفي جعبته الكثير ليرويه . رغب الرجال في معاقرة الخمر برفقته ، والنساء راقبنه عن كثب ، كان وسيمًا أيضًا . وليس هناك ما هو ألطف من النظر إلى رجل وسيم ؛ إلى الشعر الأسود المنسدل على الحاجبين ، والحركات المرنة ، والعينين الآسرتين بسحرهما وسوادهما كأنهما زجاج بركاني . وبالتدريج غيرته هذه الرحلات ، أو ربما اكتشف ببساطة جوانب جديدة في نفسه وفي الحياة ؛ أحيانًا بدت الحال كما لو أنه صادف أخيرًا ذاته الحقيقية ، وأن ما صادفه هو حقيقته ، وأن الوجود يجب أن يكون هكذا : صحبة وقصائد وحكايات وإصغاء ، وليس كدحًا يقصم الظهر على تل قاحل ، ذاك الكفاح القاسي من أجل الحياة ، تلك الغثاثة الرمادية . أنجبا ثلاثة أطفال ، مات واحد منهم بعمر لا

يتجاوز بضعة أسابيع. وشيئًا فشيئًا فقدت بشرة سالفر رونقها الساحر وكلحت. ثم جاءت الشتاءات القاسية، وفصول الصيف الباردة الجافة، وطالت مدة سفرات كريسيان، وأصبحت العودة إلى البيت بالنسبة إليه أصعب فأصعب. ولا تطاق في بعض الأحيان. خيمت حالة من الجمود على الكوخ: توبيخ سالفر، وبشرة سالفر الكالحة. وفي المزارع الأخرى كمنت النساء بانتظاره في الممرات المظلمة؛ هناك كان رجلاً آخر، أكثر فحولة، والحياة اصطبغت بمزيد من الألوان. انشق الوجود ببطء إلى عالمين مختلفين، والفرجة بينهما أصبحت عسيرة الوصل. من ناحية، أوقات سعيدة مع الناس، خمور وقصائد وحكايات وشعبية واحترام، ومن الناحية الأخرى الثقل الذي حطّ على الكوخ، التل القاحل اللعين والمروج الخام الرطبة، الخلوة البغيضة، واللا بهجة. وكلما اقترب من البيت، ألحف في معاقرة الخمر، حتى لا يستطيع إلا بصعوبة الصمود على ظهر حصانه وقت وصوله. تأخذنا الحياة في مسارات عديدة؛ لبعضنا المشروب الكحولي هو دائمًا مصدر ابتهاج، ولفئة أخرى يصبح مسرة سوداء تحفر في أعماقنا بحثًا عن شيء ما كنا مدركين أن له وجود، شيء يمكن أن يكون مظلمًا وشيطانيًا.

عندما ضرب سالفر أول مرة لم يكن ما فعله مقصودًا تقريبًا.

أو بالأحرى، غير متعمّد.

أراد إسكاتها فقط. أراد الحصول على فترة هدوء، مسحة لعينة من السلام.

وحصل على مهلته؛ سكتت فورًا وتركته وحده تمامًا، وكان ذلك فرجًا هائلاً له وراحة. وفي اليوم التالي ندم بشدة على فعلته. لا أفهم كيف سمحت لي نفسي أن أفعل ما فعلت، قال لها، كيف لك أن تغفري لي يا سالفر، أفضّل أن أقتل نفسي على أن أعاود ضربك ثانية!

ومع ذلك ضربها مجدّدًا في اليوم التالي نفسه .

وضربها مرة أخرى .

في الواقع هو لم يضرب بغية الأذى ، كان الضرب مجرد متنفّس ، طريقة توبيخه للحياة من خيبة الأمل ، من الظلم ، من الشحوب الكالح الذي وجده بانتظاره كلما رجع إلى البيت .

مرة غاب عن البيت خمسة أسابيع ، وبدا كما لو أنه ما كان ينوي العودة مطلقًا . بل حتى قام بعدة رحلات صيد سمك لمزارع مهم ، وسلّى العائلة في المساء بقصائده وحكاياته وصوته وحضوره ؛ كان محبوبًا ومحترمًا ، وخادمة مهذارة ذات شعر أشقر مغبر في العشرين من العمر فقط ، ذهبت معه إلى المخزن ثم إلى زريبة الخراف ، لكنه لم يكن يخون أحدًا ، اعتبر أن ذاك من فعل الحياة ، البرهان على أنه كان حيًا . عاقر الخمر ، والمشروب جعله مرحًا ، مع أنه في بعض الأحيان سبب له النقمة بل حتى الاكتئاب ، وهذا على نحو ما زاده عظمة . وفي النهاية مضى إلى البيت . لم يجد أمامه سبيلاً آخر . عاد مكدودًا من المشروب ، فرسه تتعثر باستمرار ، الفرس النكدة ، الساقطة العجوز ، لا شهامة لديها ، وسالفر تنتظره بتوبيخها ، ببشرتها الكالحة ، بعينيها المطفأتين ، هي أيضًا لا شهامة لديها . هذه المرة ضربها إلى أن ما عادت قادرة على الوقوف . إلى أن انبطحت هناك ، وجهها إلى الأرض . انبطحت كما لو أنها لبثت تنتظره . بحذر شديد جثم قربها ، رفع ثوبها ، أرخى بنطلونه ثم نال وطره منها مثل كلب ضارٍ . في البداية قالت لا كريسيان ، لا كريسيان ، رجاءً لا ، لا تفعل ، وحاولت صدّه ، حاولت رفسه ، لولا أنها لم تكن ندًا له ، ثم انبطحت هامدة في حالة استسلام ، في حالة إذعان ، انبطحت هامدة بينما احتدم لاهثًا ، هامدة تمامًا . هامدة إلى أبعد الحدود حتى بدا كما لو أنها لم ترغب في إزعاجه مطلقًا ، كما لو أن ما راح يفعله في منتهى الدقة وأي بلبلة قد تفسده ؛ اكتفت بضغط وجهها

بشدة على الأرضية بقدر ما واتتها القوة ، وأملت أن يكون الطفلان نائمين . لم يكن شريرًا قط ، كل ما في الأمر أن يد الحياة سدّدت له لكمة . خيبة الأمل من عدم كونه ما هو عليه . أما هي فعجزت عن كبح كراهيتها ، كرهته بقوة إلى درجة أن الحقد استولى عليها استيلاءً كاملاً . أنهى كريسيان فعلته بصرخة شبه مكتومة ، نهض ، اقتعد كرسيًا ، نظر إلى سالفر كما لو أنه لم يرها من قبل مطلقًا ، أو أن لا شأن له معها ، ركلها بحزم ، كأنه متفاجئ ، عبس ، ثم رفسها بعيدًا ، بعنف هائل ، فارتطمت بالجدار ، واستقرت هناك مثل كيس . تناول قنينة المشروب التي أعطاه إياها المزارع وهو يهمّ بالرحيل ، أخذ جرعة كبيرة منها ، تقيأ ، ثم سقط في غيبوبة الكحول العميقة . لازمت سالفر وضعيتها الهامدة عند الجدار تستمع إلى كريسيان يتهوّع ويتقيّأ ، لم تتحرك إلا بعد أن بدا أنه نائم . حينها وقفت ، تدثرت ببطانية . نظرت مليًا إلى وجهه النائم ، داكن ، ومنهك ، ومع ذلك ما زال في نومه وسيمًا . ثم ذهبت إلى طفليها اللذين قبعا صاحيين في سريرهما ؛ بنت في السادسة من العمر بعينين واسعتين ، وصبي في الثانية يلازمه سعال لا ينقطع . ألبستهما ثيابًا سميكة ، لفّت الصبي ببطانية ، همست بشيء ما للبنت ، ثم خرجت لتبحث عن الفرس . اضطرت إلى البحث مدة طويلة . نادت بلطف وصفرت لكن بلا جدوى . أخيرًا عثرت عليها ميتة عند مسافة قريبة من المزرعة ، كان كريسيان قد قضى عليها ، والخيول الميتة نادرًا ما تستجيب للصفير . كان الثلج يجلل الدنيا ، بيد أنها لم تجد صعوبة بالغة في جرّ الطفلين بعيدًا على الزلاجة البدائية . ليلة شتوية مظلمة ومنثورة بالنجوم ، وثلاث ساعات من المشي إلى أقرب مزرعة . ضمت البنت شقيقها الذي يكحّ بقوة ، ولم ينظروا إلى الوراء قط ، بل حتى لم يتوقفوا مرة واحدة ليراقبوا النيران المشتعلة . بعثت النار وميضًا مدهشًا في لمعانه ، والسماء فوق المزرعة شعت بنور جميل جدًا ، أما الأبنية فبدت ضئيلة ومنكمشة . حدث هذا قبل اثنتي عشرة أو

ثلاث عشرة سنة . مذ ذاك عملت سالفر خادمة في المزرعة التي وصلت إليها أثناء موكبها الليلى ، مُجدة في عملها لكن متحفظة . تقدّر ربّة البيت اجتهادها وتثق بها ، إلا أن بعض النساء ما زلن يكرهنها ويفتقدنه ، يفتقدن ذاك الذي بدا مثل حكاية خرافية غريبة بينما مضى من مزرعة إلى أخرى ، بشعره الداكن وعينيه السوداوين كأنهما الزجاج البركاني والصوت الذي جعلهن يرتعشن . طفلها الأصغر ، الصبي ، لم يعش طويلاً ، ثلاث ساعات على الزلاجة في الليلة الصقيعية فاقت ربما طاقته على الاحتمال ، على الرغم من أن سالفر وضعت عليه ثيابًا تدفئه بقدر ما استطاعت . مات بعد أسابيع قليلة . أما البنت فنُقلت إلى مزرعة أخرى ، على مسافة رحلة يوم ، تاركة سالفر وحدها . في البداية اجتمعتا معًا مرتين في السنة ، وتعانقتا بقوة أثناء اللقاء ، كما لو أنه ليس لديهما أحد آخر في هذا العالم ، وهذا ، على الأغلب ليس بعيدًا عن الحقيقة .

نادرًا ما تتسلم سالفر الرسائل أو الطرود ، ومن قد يرسل لها بريدًا على أي حال؟ الرسائل الوحيدة التي تسلمتها كانت من ابنتها التي تقيم في أبرشية بعيدة ، نُقلت إلى هناك على كره منها تقريبًا قبل أربع سنوات ، كما لو أن الحياة تجشمت عناء مفاقمة عزلة سالفر . وعندما بدأ ينز أول ما بدأ يتوقف في المزرعة ليقضي ليلته ، لم تحاول لفت اهتمامه إليها . كان يجلس في غرفة العائلة بشعره الأشقر الكثيف ويبلّغ عن الأخبار كما يفرض عليه واجبه . لكن ، ما اسم هذه القوة التي لا يبدو أن أحدًا يملك القدرة على التعامل معها ، والتي تجعل أي شخص يعارضها حزينًا طوال عمره؟

في البداية كانت مجرد نظرة عابرة .

العيون التي التقت ، ارتعاشات القلب البسيطة ، شيء للتأمل ، شيء للتساؤل عنه بين السفرات البريدية ، وشيء للخوف منه في حالتها . فمعظم

الرجال ، كما ترون وحوش ، لا يفكرون إلا في الظهور أقوياء وفي الحصول على النساء . لكن عندما تشرع تلك القوة في الجذب ، تتمزق العهود الرزينة ، تتمزق الإرادات الحازمة مثل عهن غير مغزول . وفي هذه المزرعة لا توجد خصوصية كبيرة أكثر من بقية المزارع الأخرى ، ينام أهل البيت في الغرفة العائلية ، وفي أفضل المزارع للمزراع وزوجته سرير منفصل ، في مقصورة صغيرة لا ترتقي إلى مستوى تسميتها غرفة نوم . جرت الخطوات الأولى في الخارج أيضًا ، تحت السماء التي تحمل أسرار الإنسان كلها ؛ صيف وهي في الخارج تغسل . صهرهما معًا المساء الصيفي وأهازيج الطيور والضوء الأبدي وشمس منتصف الليل الحمراء . أكره الرجال ، قالت وقبّلته . الرجال وحوش ، قالت ، وأجهشت في البكاء ، سالت دموعها الفضية بصمت على وجنتيها ولفّ ينز ذراعيه الهائلتين الثقيلتين حولها ، مسد شعرها البني المحمر ، ربتها وهدأ من روعها تمامًا كما يفعل مع أبيه عندما ينهار تحت وطأة خيبات أمل الحياة ، هرمًا ومرهقًا . هذه الكتف بكى عليها آخرون من قبل ، قالت سالفر . نعم ، أجاب ينز . أيمكنني إذًا أن أثق بك؟ أنا ما خنت أحدًا قطّ . لماذا نظرت إلي على هذا النحو؟ أنت جميلة أجاب ، الجواب الوحيد الذي استطاع التفكير فيه ، لأن المرء لا يفكر في مثل هذه الأشياء ، ينظر فقط ، والعيون ما احتاجت مطلقًا إلى الكلمات . أنت تكذب! لا ، أنت جميلة ، وصدقًا لا يشغل فكري سواكِ ، خلال سفراتي البريدية . لماذا لا تنال مرادك مني الآن ، هنا على ضفاف الجدول ، وبعد ذلك تتفاخر بما فعلت؟ نظر ينز إليها ؛ في البداية لم يفهم ما عنت . أنال مرادي منك؟ كرّر ، ثم فجأة استوعب المعنى واستولى عليه حزن يستعصي على الوصف ، كما لو أن الكآبة بحدّ ذاتها غمرت قلبه ؛ استقرت كتلة في حلقه وعجز عن قول أي شيء ، فقط أشاح بوجهه بعيدًا وفكّر أن كل شيء قد انتهى في تلك اللحظة . أخذت رأسه الكبير بيديها وتأملته ، قبّلت عينيه ، إن كنت ما زلت

تريدني ، وإن كنت تجرؤ ، يمكنك أن تتسلل إلى سريري في شهر أيلول . ولماذا لا أجرؤ؟ أنت تعرف أنني قتلت زوجي ، أناس كثيرون أرادوا وما زالوا يريدون رؤيتي في السجن ، النوم معي لن يكون في صالحك . لو أُرغمتُ على الاختيار بينك وبين العالم ، لاخترتكِ ، قال ينز ؛ حولته شمس منتصف الليل وعيناها إلى شاعر . بعد شهرين ، في أيلول ، رفعت بطانيتها له لينزلق في فراشها . هذا جرى قبل سنتين تقريبًا ، والآن ها هو يقف منتصب القامة وبلا أي تعبير وجه في مكتب الدكتور سيغورد ، ينتظر ، يستمع إلى دقات الزمن الثقيلة في الصالة ويفكر في سالفر . انبريا يتهامسان ، أدنى كل منهما شفتيه من أذن الآخر وتبادلا الهمسات ، أحيانًا مجرد هراء جميل وكلمات ترتقي إلى السماء مثل بالونات زاهية الألوان ، أحيانًا يحكي عن أخته ، عن شيء قالته ، بنت طفولية وصافية الذهن جعلته هو ووالده يريا الأشياء في ضوء جديد ، كبر أبي في السن كثيرًا ، يهمس ، شيء ما يتحطم داخله ، يحاول لمّ شتات نفسه ، لكن عندما تضع رأسها على كتفه تبدأ دموعه في التدفق ، بصمت كامل ، أسماك الحزن الشفافة تلك . وهي تخبره عن أيامها ، أيام مغرقة في الكآبة ، تحكي عن ابنتها وتكرّر فقرات من رسائلها تحفظها عن ظهر قلب . لم أرها منذ أربع سنوات وهذا يؤلم كثيرًا إلى درجة أنني أفضل على هذا الألم أن أطعن يوميًا بسكين . بيد أن سالفر ترفض أن تخبره أين هي . ليس قبل أن أثق بك تمام الثقة ، تقول . لكنها تحدثه عن ابنها الميت ، كان قد نطق كلماته الأولى ، وبدأ يمشي مع أنه تأخر في ذلك بسبب مرضه المتكرر ، إلا أن صوته كان صافيًا ونقيًا ، ثم مات ، وموته ذنبها . يتعانقان ، جزيرتان صخريتان قاحلتان وسط تيار الحياة الهائل . هما عاريان ويحدث الأمر ببطء بالغ . بطء بالغ جعله فائق الروعة . تشعر سالفر بعضوه ينتفخ رويدًا رويدًا ، بل حتى بطريقة حيية ، ويفسح له الحزن والقنوط المجال بتؤدة ، تلعق عينيه المالحتين ، وهو يتحسس جسدها بيديه ، الجسد

الذي شاخ وأصبح كالح اللون إلى درجة أنه كان شبه ميت عندما لمسها ينز أول مرة .

يهزّ ينز كتفه اليمنى تلقائيًا في صالة سيغورد ، يسترجع عضة سالفر خشية أن يسمع لهاثها أحد في غرفة العائلة الساكنة ، في الصمت الذي يخترقه الشخير وغمغمة الأحلام . بالصدفة البحتة اكتشف ينز قوة أصابعه السحرية ؛ استلقيا ملتصقين وانتظرا ظلمة المساء لتنقل الجميع إلى عالم النوم ، لكن من المستحيل طبعًا أن يكونا مفعمين بالحياة ومستلقيين متلاصقين ويكتفيان بالتنفس ، لذا كان على أيديهما أن تفعل شيئًا ، وهكذا بدأت في التحرّك ، الأيدي الأربع ، تتجول في الجسدين ، وعن طريق الصدفة الخالصة وضع إبهامه وسبابته بين ساقيها ، أدخلهما ووقعا على منطقة جعلتها تلهث على نحو عجيب بحيث ما عاد في وسعه التفكير في أي شيء آخر على مدى الأسابيع القليلة التالية . ما عرفتُ أن مثل هذا الموضع له وجود ، همست بصوت أجش بعد المرة الأولى ، وقبلت آثار العضة على كتفه . أي موضع؟ حيث توغلت أصابعك ، من حيث بلغتُ الذروة ، كما لو أنني تقريبًا كنت أجتاز الأفق! نظر إليها ينز مدهوشًا فضحكت ، شيء لم تفعله على الأرجح منذ خمس عشرة سنة ، ثم أمسكت عضوه . تعال ، همست وفرّجت ساقيها ، سآخذك إلى هناك .

الواقع الذي يبتكره الإنسان غريب ؛ ليست هناك كلمة واحدة مذكورة عن سالفر أو زوجها في الشهادة المختصرة عن العوائق التي اعترضت سفرة ينز البريدية . فهي تكتفي بالقول إن الجوّ المؤذي والظروف المستحيلة أخرت رحلة ساعي البريد ، ينز غويانسون ، وأن وعورة المرج الجبلي الذي يقطعه هو بتقدير الجميع يستحيل عبوره على الأقدام ، ناهيك عن أحصنة تحمل صناديق . إنما لا شيء عن سالفر . ولا كلمة عن حياتها ، عن أساها ، عن

يأسها، ولا كلمة عن الندم أو ما يجري بينها وبين ينز، بيد أنه ربما يجدر بنا ألا نكتب أبدًا عن أي شيء ما عدا هذا: عن الحزن، والأسف، والعجز، وما يحدث أحيانًا بين شخصين، ذاك الخفي ولكن الأقوى من الإمبراطوريات، أقوى من الأديان، جميلاً كجمال السماء، عن الدموع التي هي سمك شفاف، عن الكلمات التي نهمس بها للخالق أو إلى شخص قادر على إحداث اختلاف كبير، عن اللحظة التي تولج فيها امرأة عضو رجل داخلها فيتمزق الأفق. يجب ألا نكتب عن أي شيء آخر. جميع الشهادت، جميع التقارير، وجميع رسائل العالم ينبغي أن تفصح عن هذا فقط:

لا أستطيع الذهاب إلى العمل اليوم بسبب الحزن.
رأيت هاتين العينين أمس ولذلك لا أستطيع المجيء إلى العمل.
من المستحيل أن آتي إلى العمل اليوم لأن زوجي عارٍ وجميل جدًا.
لا أستطيع القدوم اليوم لأن الحياة خانتني.
لا يمكنني حضور الاجتماع لأن هناك امرأة تأخذ حمام شمس
خارج بابي والشمس تجعل بشرتها تتوهج.

نحن لا نتجاسر أبدًا على كتابة مثل هذه الأشياء، لا نصف أبدًا الشحنة الكهربائية بين شخصين. بدلاً من ذلك نتحدث عن مستويات الأسعار؛ نَصِف المظهر، لا تدفق الدم، لا ننشد الحقيقة، ولا ننشد أبيات الشعر التي ليست في الحسبان، ولا القُبل الحمراء، ونعمل على إخفاء ضعفنا ونستسلم لسلاسل من الحقائق، الجيش التركي في حالة تعبئة، كانت الحرارة أمس أدنى بدرجتين، الناس يعيشون أطول مما تعيش الخيول.

*

امم ، يهمهم سيغورد بعد دخوله الصالة وهو يحمل الشهادتين ، يعيد قراءتهما أمام ينز ، ومع أنه سبق أن قرأهما بإمعان ، يحاول أن يضايق ينز بقراءتهما ببطء وشكّ ، وينز في منتهى الهدوء ظاهريًا ، مع أن دمه يتسارع بإفراط خلال عروقه ، لا يكاد يراقب الطبيب ، يقف مستغرقًا تمامًا في أفكاره عن سالفر ، يكرّر عيش اللحظة ثانية . يطوى سيغورد الشهادتين ، يضعهما في جيبه ؛ لن أتردّد في التوصية بفصلك إن لم تنجز عملك ، ثق بهذا ، يقول مباشرة ، ببرود ، فيبطئ دم ينز تدفقه مؤقتًا ، ثم تتفتح كراهيته ، فاحمة السواد ، مثل ذكرى من الجحيم . يجلس سيغورد في الكرسي الوحيد الذي يبدو بطريقة ما أنه قد صُمّم له ؛ مع الطبيب سيجار ، سيجار كبير نوعًا ما ، يتأنى في إشعاله ، يختفي للحظة وراء غيمة عظيمة من الدخان . يستغل ينز الفرصة ليستنشق بعمق ، يتمتع بالرائحة بينما لا يستطيع سيغورد أن يراه . أريد أن أطلب خدمة منك ، يقول سيغورد عندما تنجلي عنه غيمة الدخان ، ويبدو أنه غير متحرج ولا قليلاً من طلب شيء من ينز . ينقل ينز ثقله من قدمه اليسرى إلى قدمه اليمنى ، ينظر بارتياب إلى الطبيب الذي يعاود سحب نفس آخر من سيجاره ، مسرّة جديدة ، ثم يطلب من ينز أن يغطي الطريق البريدي إلى ساحل فيترارسترند والمنطقة المحيطة بلسان دمبسفيردر البحري ؛ يمكنك أن تقدّر ثلاثة إلى خمسة أيام ، ساعي البريد غودومندر طريح الفراش بسبب الأنفلونزا ، ولن يذهب إلى أي مكان . يخلد سيغورد إلى الصمت ، يدخن ، يتصرف كما لو أن ينز ليس حاضرًا ، وينتظر ردًا في الوقت نفسه . يحاول ينز أن يتجاهل دخان السيجار المغري وأن يفكر بجلاء . يزن ويقيم ؛ الاختيار عذاب . يفضل أن يقول لا ، ليشد الرحال إلى البيت غدًا ، سيقلق والده إذا مرت الأيام بلا خبر منه ، وسالفر ستنفعل ؛ وكذلك

لا تروق له فكرة إرهاق الشيخ بكثير من العمل ، مع القليل الذي يطيق تحمله في الوقت الحاضر ، الزمن يحفر طريقه إليه بسرعة . من الناحية الأخرى ، سيكسب من هذه الرحلة بضعة كرونرات إضافية ، وسيكون حصاناه قد ارتاحا جيدًا حينما يعود ، لا شيء أسوأ بالنسبة إلى الخيول أكثر من الإعياء ، فهو ينخرهم ، يحوّل حصان ركوب جيد إلى فرس عجوز خائرة القوى ، وماذا يستطيع ينز أن يفعل بدون أحصنة ، ماذا يمكن أن يؤول إليه مصير السفرات البريدية في هذه الحال؟ يعاود نقل ثقله إلى قدمه اليسرى ؛ لكن لماذ يطلب منه سيغورد الذهاب؟ أهناك ما هو أكثر مما تراه العين؟ ربما يعرف سيغورد أن ينز لا يألف المنطقة كثيرًا ؛ فقد ذهب إلى هناك مرة واحدة من قبل في الصيف ، وماذا عن ذاك؟ الأرض هنا في الصيف تختلف اختلافًا كليًا عنها في الشتاء ، وأحيانًا تبدو كما لو أنها في كل حالة من هاتين الحالتين تقع في النصف الخاص بها من الكرة الأرضية . الطريق شبه جهنمي بعد تساقط الثلج المتواصل ، والريح التي لا تلين ، ولا يخاطر فيها سوى المسافرين من أصحاب الخبرة العالية ، الذين لا يمكن العثور عليهم حتمًا عند كل زاوية الآن ، الآن ، في الحقيقة ، بعدما أصبح كثير جدًا من الرجال ينتمون إلى أطقم السفن . لهذا ، من الطبيعي أن يطلب سيغورد من ينز الذهاب . مع ذلك ، أهناك ما هو أكثر من هذا؟ ألعل سيغورد يراهن على أنه نظرًا إلى عدم ألفة ينز بالطريق ، سيسلم البريد متأخرًا ، وبالتالي يزود الطبيب بحجة ليضرب ضربته؟ أي شخص يقوم بهذه الرحلة عليه أن يعبر الألسنة البحرية المفتوحة بقارب ما مجموعه أربع مرات - ومن ضمنها مرتين عبر لسان دمبسفيردر العريض بزرقته القاتمة - ثم أربع مرات على المروج المحفوفة بالمخاطر ، أحدها هو عمليًا جبل يحصد في معظم الأيام شتى العواصف . لكن إن ينجح ، إن يفلح في تسليم البريد بهمّة وكما ينبغي على الرغم من عدم إلمامه بالمنطقة ، سيصبح في موقع أفضل بالنسبة إلى الطبيب ،

الطبيب الذي سيصاب حتمًا بخيبة أمل ، بخيبة أمل لذيذة ، يفكر ينز ، ويقول نعم ، مدفوعًا بهذه الفكرة . حسنًا جدًّا ، يقول سيغورد على عجل ، الأكياس تنتظرك في الجهة الخلفية . يحشر سيجاره ثانية في فمه ويتصرف كما لو أن ينز ما عاد هناك . من جديد يستنشق ينز الدخان ، ثم يغادر الصالة من غير أن يقول وداعًا ، ويجد خادمة فتية تنتظره خارج الباب ، مع ثلاثة حقائب ثقيلة محملة بالرسائل والصحف ونسخ من المجلة البرلمانية ؛ وأقلها ربما الرسائل ، هناك القليل جدًّا ممن يكتبون الرسائل إلى الشتاء الذي يستوطن تلك المناخات الشمالية . يرفع ينز الحقائب ، يبدو أنه لا يشعر بوزنها ، تتبعه الخادمة إلى الباب ، لديها شعر أسود وعينان رماديتان تلاحقان ينز بينما يغادر وهما مستمتعتان برؤية مرونته في تدبر الحمل ، وبينما تحدق في كتفيه العريضتين تفكر : من المخزي بالنسبة إلى رجل وسيم مثله أن يكون لديه هذا الأنف الضخم ، ثم تغلق الباب على العالم الأبيض وساعي البريد الذي ينسحب مبتعدًا .

١٠

إنها تثلج . وندف الثلج تملأ قبة السماء وتتراكم فوق الدنيا . الريح معتدلة والأكوام المتشكلة تحتفظ بهيئتها ، سطح البحر هادئ وبدأب يواصل ابتلاع الثلج . إلا أن أعماقه ما زالت مضطربة بعد عواصف الأيام الفائتة ، اضطراب يصعّب الأمور على القوارب والسفن . البحر كالإنسان مرهف الإحساس ويستغرق وقتًا ليتعافى من أي اعتداء . الحكم من خلال المظهر نادرًا ما يكون ممكنًا ، لا بالنسبة إلى البحر ولا بالنسبة إلى الإنسان ، وبالتالي من السهل أن يُخدع المرء ، وربما يدفع ثمن ذلك من حياته أو سعادته ؛ تزوجتكَ لأن مظهرك الخارجي أوحى بالدماثة الجمة والوسامة البالغة ، والآن أنا لست سعيدة . أبحرتُ لأن سطح البحر بدا هادئًا والآن أنا ميت ؛ أبكي في قاع البحر بين غيري من الرجال الغرقى والسمك يسبح خلالي .

الثلج يتساقط بكثافة عظيمة ، يكتب الفتى ، إلى درجة أنه يربط السماء بالأرض . الثلج المتساقط الآن على الأرض ربما كان متاخمًا لحدود السماء قبل دقائق قليلة . كم يستغرق من الوقت لينزل من السماء إلى الأرض؟ دقيقة ربما؟ إلا أن حياة بأكملها بالنسبة إلى بعض الناس ، حياة تمتدّ سبعين سنة ، لا تكفي للعروج إلى السماء . أيمكن ألا يكون للجنة وجود إلا في الأحلام؟

يضع الفتى القلم جانبًا ، شبه خائف من الجملة الأخيرة . يغمض عينيه تلقائيًا ويتخيل أخته ، يسترجع في ذهنه كيف ضحكت عندما لعب معها ، ولعدة لحظات بدا له كما لو أنها ما زالت على قيد الحياة . عيناها

مفعمتان بالثقة وبهجة الدنيا ، مساحة صغيرة في عيني طفلة لما هو أكثر بكثير ، ولا مكان فيهما بعد للظلال ، ثم جاء الموت وأطفأ عينيها ، اختفتا ولن يراهما أحد ثانيةً . هل الجنة مجرد حلم؟ أين أخته الآن إذًا ، في حال ثبتت صحة ذلك؟ كان اسمها ليليا . واضطر إلى لجم نفسه لئلا يكتب اسمها على عرض الصفحة . ليليا تيمنًا بالقصيدة التي نظمها الراهب إيستين ليمجد عظمة السماء قبل عديد من مئات السنين ، قبل كثير من مئات آلاف الأرواح التي رحلت ، قصيدة القصائد التي ما تمنّى أحد إلا أن ينسبها لنفسه . ليليا ، كان الاسم الوحيد الممكن بقدر ما عنى الأمر والديها ؛ كانت أخته ترتيلة المجد الخاصة بهما ، وهي بتلك الطلعة الصافية والعينين الزرقاوين النقيتين والشخصية اللامعة لطالما جعلت الناس يحيدون عن طريقهم فقط لتسنح لهم فرصة لمسها ؛ كان ذلك كلمس البراءة بحدّ ذاتها ، قبل أن تدخل الخطيئة العالم . ليليا جدّ لعوب ، تقول إحدى الرسائل من أمه التي يحتفظ بها الفتى في غرفته ، مهترئة من القراءة المتكررة ، وهي أحيانا لا تطاق ، إلا أنها تبقى عفريتًا صغيرًا ساحرًا . أيحتمل أن تكون الجنة والحياة الأخرى مثل الآلهة الميتة التي لا يكون لها وجود إلا إذا آمن بها المرء؟

إذا كان الأمر كذلك ، فالفتى هو ليليا وهو أمل والديه الوحيد .

إن لم يؤمن بهم ، سيتلاشون ويتحولون إلى لا شيء ؛ وستندمج عينا ليليا الزرقاوان الفضوليتان والمتلهفتان أبدًا مع الفراغ ، تصبحان خواءً يمتص الحياة كلها ، الذكريات كلها . وإن يمت في وقت مبكر جدًا من غير أن يترك شيئًا خلفه ، بصمة ، أو علامة ، إن يمر بالحياة من غير أن يضع وسمه عليها ، سيخيّب أملهم ، يخيّب أحلامهم وتوقعاتهم . هذا في غاية البساطة ، وهو مهم لأنه يتضمن شيئًا من جوهر الحياة ، شيئًا من دافع : اختبار كل ما حُرمت منه ليليا . تعلّم كل شيء فات على ليليا .

إنها جدّ فضولية إلى درجة أن بعض الناس يفرون من أمامها . ليس في وسع أي شخص أن يطيق الأمر عندما يطرح طفل أسئلة ترغمنا على إعادة النظر في حياتنا الخاصة . ما السبب وراء وجودك؟ لماذا تبدو هكذا؟ لماذا أنت غاضب؟ لماذا تطيل النظر إلى أمي؟ كم تبلغ المسافة من هنا إلى القدير؟ ماذا يوجد في برازي؟ ما سبب رائحتك الكريهة؟ أين تذهب أحلامي عندما أستيقظ؟ هذه هي الأسئلة التي تطرحها أختك على كل شخص هنا في المزرعة ، يومًا بعد يوم بعد يوم .

تضمنت الرسائل الكثير مما لم يستوعبه الفتى عندما كان طفلاً ، خصوصًا الأخيرة منها ، الكثير الذي لم تتفتح معانيه له إلا الآن ، كما لو أن أمه كان لديها شك في النهاية ، فكتبت الرسائل وهذا الشك يعتمل في ذهنها . هذه كانت بالتالي رسائل للمستقبل ، له في المستقبل الذي ستغيب عنه ، هي وليليا . كلمات متقدة ، ولكن مشبعة بحزن موجع ، حزن مرهف جدًا حتى لا يكاد يلاحظ . هذه الكلمات قوارب تبحر في حياة أمه ، في حياة ليليا وحياة أبيه ، بعيدًا عن الخواء والموت المطلق . والأمر يعود له في أن لا يترك القارب عرضة للتحطم ولا أن تغرق الحمولة هباء في لجة البحر المظلم . يعود الأمر له وليس لأحد آخر ، ليس لشقيقه إيغيل الذي لم يره أو يسمع منه لسنوات . ثمة ما ينبئه أن أمه قد ألمحت إلى ذلك في رسائلها ، بين السطور ، فالكثير جدًا يمكن تضمينه بين السطور ، ألمحت إلى أن إيغيل لن ينقذ شيئًا من عالم النسيان .

لكن ، ماذا يمكن أن يفعل؟

يُطرق ناظرًا إلى يديه ، هما خاويتان ، وذراعا المرء ليستا إلا لوحين من الخشب في وجه الزمن ، ينخرهما السوس الذي يطحن الحياة الماثلة تحته ويرسلها إلى العدم .

اسم أختي ليليا ، يكتب ، مباشرة بعد جملته عن السماء . عبارة

«الغالية أندريا» تتصدر الصفحة . سيشجع أندريا لتترك بيتور ، لتهجره ، لتسعى نحو بداية جديدة ، لتستهل حياة جديدة ، هذا في منتهى البساطة ، الجواب واضح ، ويكاد يشعر بالحرج من الإشارة بهذا لها ، كما لو أنه يقلل من شأن بصيرتها بكتابة ما هو واضح جدًا . اتركيه . بيد أنه لا يدرك فحوى كلماته إلا بعد تشكّلها على الورقة . الكلمات المكتوبة فيها عمق أكثر من تلك المنطوقة ، كما لو أن الورقة تقريبًا تحرر عالمًا مجهولاً من قيوده . الورقة تربة خصبة للكلمة . إذ ، أين يمكن أن تذهب أندريا؟ وكيف يفترض بها أن تعيش؟ يتلفت ناظرًا حواليه كأنه في حالة بحث عن جواب ، ولا يرى سوى طاولات شاغرة ، وكراسي شاغرة والثلج في الخارج يصل الأرض بالسماء ، وفي بقعة ما من الثلج المتراكم يمتد البحر . من الساحر والمخيف في آن أن يأخذ المرء مركبًا إلى البحر في مثل هذا الجو . فالعالم عندئذ يبدو أنه يتلاشى مع الريح ؛ ولا وجود لشيء غير الثلج المتساقط والمركب والبحر المحيط به . يُسكت الثلج كلّ شيء ، كأنه يسوق الصمت ضمن طياته ، أو كما لو أن ندف الثلج محمّلة به ، وبين كل ندفتين صمت . إنما كيف يمكن أن يحدّد المرء موقعه ، يعثر على مناطق توافر السمك ثم على طريق العودة ، ما استوعب هذا قطّ وخاف دائمًا في أعماقه من أن ينجرفوا ببطء بعيدًا ، ويكتشف عندما ينقشع الثلج أخيرًا أن الجبال قد اختفت ، ولا شيء هناك سوى المحيط بأطرافه المترامية ، وأمواج عاتية وسماء مظلمة ونهاية العالم .

كان اسم أختي ليليا .

هي مهمته أن يتأكد من أنها لن تُنسى ، أن تُمنح حياتها القصيرة هدفًا ، هذا على الرغم من أنه لم يتمكن قط أن يخبر أحدًا عنها ما عدا باردور ، وباردور ميت الآن وربما ما عاد يتذكر شيئًا . ثم ، ما فائدة ترديد اسم بصوت عالٍ إذا لم يتبع ذلك أي شيء؟ بعض الناس يتكلمون ويتكلمون ، يوسّعون وجودهم بالكلمات ، وبطريقة ما ينتابنا شعور بأن حياتهم أكبر

وأعظم، لكن ربما تغدو تلك الحياة في الواقع لا شيء بمجرد أن تتوقف الكلمات عن الرنين. لدي شقيق في مكان ما، يكتب، اسمه إيغيل، كاسم الشاعر إيغيل سكالغرمسون. لم أره منذ أن كنا أطفالاً. كان دائمًا غير متيقن من أي شيء، وعلى وجه الخصوص من نفسه. يجدر بي أن أعثر عليه.

لماذا يكتب هذا لأندريا؟ إنها لا تهتم بمخاوفه التافهة. لماذا يهدر الورق على نفسه؟ أندريا تحتاج إلى المساعدة، لا إلى شكاويه. ربما يجدر بي أن أعرض عليها الزواج مني. بالطبع! بل حتى أصطحبها إلى أمريكا. مؤسف أنها في هذه السن، تومض الفكرة في رأسه، مثل برق خبيث، هي على الأغلب في الأربعين من العمر! يقبض على شعره ويشده بقوة. أن يجلس هنا ويفكر في أندريا باعتبارها امرأة كبيرة في السن ليس فيه أي طرافة، ولا طرافة هناك في ألا يجد الزواج منها أمرًا طبيعيًا. إنه الآن لا يستطيع إكمال رسالته، ليس وهو يفكر على هذا النحو، تفكيره سيلوث الكلمات. ينظر إلى قلمه ويأمل بالحصول على الدعم، على مخرج، ويستحسن بالتأكيد أن يبدأ في كتابة الرسالة لأودور. لا، هذا مستحيل، لن ينفع، يحتاج إلى أن يكون مبتهجًا ليفعل ذلك، مثل أودور. تحتاج الكلمات إلى أن تشرق الشمس خلالها، ينبغي أن تتلألأ الكلمات ببهجة الحياة الصافية؛ كيف يمكنه استحضار شيء كهذا؟ أهذا ممكن عمومًا، إذ أين ينبغي أن ينحي الظلال في هذه الأثناء، ومن سيحتفظ بها عنده؟ لا، عليه الآن أن يكتفي بإكمال الرسالة لأندريا، تبًا، إنها تحتاج إليه، هي وحيدة في العالم، لكن، على أي حال، كيف خطر في ذهنها أن تتزوج بيتور، ماذا رأت في ذلك الجلف الريفي اللعين، المالح كالبحر، الكئيب والمتجهم والذي على الأرجح لا يقول لها أبدًا أي شيء جميل، بل لا يقول شيئًا جميلاً عمومًا، قلبه ليس عضلة، قلبه قطعة من سمك القد. طبعًا يجب أن تتركه!

أندريا ، يكتب ، ثم يسمع حسّ شخص ما يأتي من داخل الدار . إنه كولبين ، بمشيته العنيدة والمترددة في آن ، يدعم جسمه بعصاه ، هما متلازمان ، التي بلا حياة تدعم الحي ، ليت الحال نفسها تنطبق علينا . يشم الربان المسنّ الهواء ويدير أنفه نحو الفتى ، كما لو أنه يشمه . ماذا تفعل؟ يسأل بصوت خشن . أوه ، كما تعرف ، يجيب الفتى . ماذا؟ يقول كولبين ، كأنه لم يسمع من قبل قط هذه الكلمات البديهية . أوه ، كما تعرف ، أكتب رسالة . أهناك سبب لذلك؟ لا أدري . ماذا؟ أعتقد أن هذا مهم . مهم لمن ، لك؟ لا ، للشخص الذي سيتسلمها . حسنًا ، لا بأس ، يعوي الشيخ ، يتحسس طريقه بعكازه ويجلس عند النافذة ؛ لأحصل على منظر أفضل ، يتمتم ، ثم يخلد إلى الصمت ، لا يقول شيئًا حتى عندما يسأله الفتى إن كان يريد قهوة ، يجلس عند النافذة وينظر خارجًا إلى الظلام المنيع الذي لا يغادره أبدًا ، ليس في هذه الحياة ، ليس إلا في الأحلام المخادعة . يجلس ساكنًا جدًا ، ويبدو بلا حياة كالعصا المتكئة على صاحبها . جسم الربان متراصّ كالحجر ؛ هو أقصر بأكثر من شبر من الفتى . كتفاه تبدوان أنهما قد رفعتا إلى الأعلى ، أو أن رأسه قد جذب نحو جذعه . ينكمش الناس مع التقدم في العمر ؛ إنه الزمن الذي يفعل هذا بالحياة ، الوزن الهائل الذي يضغط المرء . يمكن أن يصبح المرء أقصر عدة سنتمترات في السنوات الأخيرة من عمره ، وإن عاش مدة طويلة كافية ، عدة مئات من السنين ، يمحوه الزمن بكل بساطة ، يضغطه ويحوله إلى لا شيء .

يخفض الفتى بصره ويعود إلى تأمّل الرسالة ؛ الكلمات هي الشيء الوحيد الذي يبدو أن الزمن لا يستطيع أن يطأه باستخفاف . هو يخترق الحياة والحياة تصبح موتًا ، هو يخترق بيتًا ويحوله إلى غبار ، بل حتى الجبال تفسح له المجال في النهاية ، تلك الأكوام الملوكية من الصخر . إلا أن بعض الكلمات تبدو أنها تتحمل قوة الزمن المدمرة ؛ هذا غريب جدًا ، فهي تتآكل

بالتأكيد ، وربما تفقد بريقها قليلاً ، بيد أنها تصمد وتصون ضمنها الحياة التي مضى على رحيلها زمن طويل ، تصون دقات القلب المندثرة ، أصوات الأطفال المندثرة ، تصون القُبل المغرقة في القدم . بعض الكلمات هي قواقع في الزمن ، وضمنها ربما ذكريات عنكم . أندريا ، يكتب ، يمكن أن يكون الزمن في منتهى القسوة ، لا يمنحنا كل شيء إلا ليعود ويأخذه ثانية . نحن نفقد أكثر مما ينبغي . أذلك لأننا نفتقر إلى الشجاعة؟ قالت أمي إن الشجاعة التي تخضع للتساؤل هي أهم ما قد يمتلكه المرء . لا أعرف كيف يمكن أن يكون هذا ، لكن يبدو لي كأنني دومًا أستوعب توكيدها على نحو أفضل . أنا أمحّص كل شيء . تُرى أهذا سبب جهلي بكل شيء؟ أنا مع ذلك ، لا أريد أن أفقد هذا الشكّ ، ولو أنه أحيانًا يشبه مخلوقًا شريرًا داخلي . السبيل إلى حياة آمنة وإلى فقدان الحس هو في ألا يستجوب المرء محيطه - وحده ذاك الذي يشكك ويتساءل يحيا . اتركي بيتور يا أندريا ، لأنني أعتقد أن قلبه ليس مكونًا من عضلة ، بل هو قطعة من سمك القد . . .

كلاكما هنا ، تقول غيرترود التي دخلت من غير أن يلاحظها الفتى وهو في تلك الحالة من التركيز العظيم إلى درجة أنه كاد يلتحم مع الكلمات والورق ، ذلك المزيج الغريب من لا شيء وكل شيء .

كلاكما هنا .

نعم ، يقول الفتى بدون أن يتخلى عن القلم . ماذا أراد فريدريك ، يعوي كولبين ، كما لو أن استخدام الكلمات يصيبه بالاشمئزار ، ويدير نحوها وجهه الأسفع الذي حززه الزمن . يريدني أن أتزوّج ، تقول ، وتبتسم ، ويغدو وجهها المنمش أصغر سنًا ، ثم تخبو الابتسامة فتشيخ ، تمضي إلى ما وراء النضد ، تصب لنفسها جرعة ويسكي ، تفرغها في جوفها ، تغمض عينيها لحظة وتنحني قليلاً إلى الأمام . هي تلبس ثوبًا أحمر ، حمرته القانية

تشبه لون الدم ، ليس مكشوف الصدر ومع ذلك سمحت فتحته للفتى أن يميز الجدول الضيق بين نهديها ، يشعر بالحرارة تستعر في جوفه ، فيشيح وجهه عنها بأسف .

أثمة مرح في أن يكون المرء رجلاً؟ تسأل وهي ترفع رأسها وتحدق في الفتى مباشرة ، الفتى الذي يجفل كما لو أنه ضُبط متلبسًا بجريمة ما . مرح ، يقول كولبين ، أي مرح؟ كنت شيئًا مهمًا في أيامي ، إنما لا أكثر من ذلك . استمتعت بالنظر إلى النساء ، أما الآن فأنا أعمى ، هن نادرًا ما يبادلن المرء النظر ، لذا يمكن القول إن كل ذلك يرقى إلى الشيء نفسه . يُعتبر من الطبيعي بالنسبة إلى الرجل أن ينظر إلى النساء ، تقول غيرترود ، إنما يُتوقَّع منّا ألا نبادله النظر ؛ ماذا يُفترض بنا إذًا أن نفعل بعيوننا؟ على أي حال كان يجدر بي أن أخمن سبب زيارة فريدريك . أرسل لي القسّ ثورفالدر هذا الشتاء رسالة طويلة ، ذكر فيها إنه يفكر فيّ بصفته راعي أبرشية وبصفته صديقي ، ويهتم بي لأنني أرملة رفيقه ؛ غريب مجرد التفكير في قسّ يطلق عنان قلمه ليكذب نيابة عنه هكذا . وباعتباره صديقي يودّ أن يلفت نظري إلى أنني بأسلوب حياتي أهنت غيري من النساء . فالدور الأسمى للمرأة ، المبارك من القدير ، هو أن تكون زوجة وأمًا . وأنا بأسلوب حياتي أستهتر بهذا الدور ولا شيء آخر . أسلوب الحياة الجميل يجمّلنا ، والأسلوب القبيح يقبحنا ، هكذا اختُتمت الرسالة ؛ أأنا قبيحة؟ تسأل الفتى . لا ، يجيب . أأنا جميلة؟ نعم ، يجيب الفتى . مع ذلك حياتي ليست جميلة ، تتمتم وهي تصبّ لنفسها جرعة مشروب أخرى وتفرغها في جوفها بسرعة إفراغها للجرعة الأولى . ألا يبتغي ثورفالدر أن يجد طريقه إليك ، يقول كولبين ، لطالما كانت لديه مشاكل مع شهواته لسنوات طويلة . نعم ، هو بطبيعة الحال لا يستطيع فعل شيء تجاه هذا ، ذاك المسكين ، تجيب غيرترود بدون أن تغير تعبير وجهها ، لكن أولاً وقبل كل شيء يريدونني أن أتزوج .

الفتى : ولماذا؟

غيرترود : ربما لأنهم رومانسيون .

كولبين : لا شيء من هذا فيهم ، هم فقط يريدون بسط سيادتهم على الجميع ، وعلى أي حال الأمر كله بأيديهم .

غيرترود : قال فريدريك إنني أصِم مجتمعنا بالعار بأسلوب حياتي وعاداتي ؛ قال إنني كنت مثالاً سيئًا . تزوجي قال ، المرأة لم تخلق لتقف وحدها . كان لطيفًا جدًا في حديثه ، لكن طبعًا ما قاله ليس طلبًا بل أمرًا .

الفتى : وماذا . . . ماذا ستفعلين؟

كولبين : لديكِ مسدس . استخدميه .

غيرترود : هذا سيكون محفزًا على نحو لا يمكن إنكاره .

كولبين : سأتزوّجك . على الرغم من أنني ما عدت مفيدًا كثيرًا .

أتتزوّجني؟ تقول وهي تنظر إلى الفتى بعينيها السوداوين ، هاتين الشمسين المظلمتين . لا ، أنت تحتاجين إلى رجل ، يقول كولبين ، إنها طبيعتك . حسنًا ، هذا يستثنيكما معًا ، تقول ، وابتسامتها تعيد إليها شبابها للحظة . لماذا تحتاجين إلى الزواج؟ يسألها الفتى وهو يحمّر خجلاً ، بما أنها بلا شك لاحظت إلى ماذا كان ينظر من قبل . لماذا كان لزامًا عليه أن ينظر؟

غيرترود : وفق القانون ، يمكن أن تصبح المرأة ندًا للرجل إذا فقد عقله أو ارتكب جريمة نكراء .

كولبين ، بمودة تقريبًا : أو فقد بصره .

غيرترود : إذا تزوجت ، وبافتراض أنه شخص مقبول لهم ، سيتولى زوجي مسؤولية كل ما أملكه . أو هكذا ينصّ القانون ؛ وفي هذه الحال ألسنا ملزمين على مراعاته؟ وبالمعنى الدقيق للكلمة ، أنا لا أستطيع أن أذهب ولا إلى المخبز بدون حصولي على إذن منه أولاً . لذا هناك صفقة عظيمة يتطلع إليها المرء إذا تزوجني . هذا إضافة إلى كل تلك الأمور التي لا يمكن

مناقشتها . كولبين : ما أحببت فريدريك قط . كان في طفولته تافهًا وما كان أبوه أفضل منه بكثير . إلا أن هذه الزمرة شديدة البطش .

غيرترود : الذكر قوي ، الذكور أقوى ، بنية الجسم وحدها تثبت ذلك ، وهي تُستخدم عندما تستدعي الضرورة ، بتلك الطريقة يكسب الذكر ضمانة الطغيان .

الفتى : أنا لست قويًا . وما كنت قويًا قط ، ولا أريد أن أكون .

غيرترود : أعرف ؛ لماذا برأيك استقبلتك في بيتي؟ كلاكما أبعد ما يكون عن الرجال . أحدكما أعمى والآخر جاء من الأحلام .

أنا ما جئت من الأحلام ، يغمغم الفتى . لأن أيًا من يأتي من الأحلام يجب أن يكون شفافًا كشفافية ليل حزيران .

مثل ذاك الشخص لا ينظر إلى الجدول الفاصل بين نهدين . لا يصحو في منتصف الليل على إثر حلم فجّ رطبًا ودبقًا .

كولبين : كنت رجلاً في أيامي ؛ بل كان في وسعي أن أكون خسيسًا لعينًا .

الفتى : لكنك لم تتزوج أبدًا .

كولبين : لا ، قرأت كثيرًا .

الفتى : ماذا تعني؟

كولبين : القراءة لم توح بالثقة . وانتهيت أعمى . لكن تحتاج إلى الحصول على امرأة لنفسك ، لئلا تغدو معتوهًا لعينًا وغريب الأطوار . تحتاج إلى أن تصبح رجلاً . وأنتِ يا غيرترود ، ألا يمكنكِ أن تتزوجي أحد أولئك الأجانب الذين تعرفين ، لقد أثبتوا مهارتهم معك في السرير ، فلماذا لا تستخلصين منهم مزيدًا من الفائدة؟

يحدّق الفتى في حجره . هناك اثنان فقط يا كولبين ، تقول ، وهما متزوجان ويعيشان في الخارج ، وهذا سبب ثقتي بهما . إذًا عليكِ أن تتزوجي

شخصًا بليدًا ، يقول كولبين وهو يفرك عصاه ، شخصًا تستطيعين السيطرة عليه بسهولة ؛ لن تواجهي صعوبة كبيرة في العثور على واحد مثله هنا .

اذهب وابحث لي عن يوهان ، تقول غيرترود للفتى ، فينهض بسرعة كبيرة ، متنفسًا الصعداء لأنه كُلف بمهمة ولأنه سيغادر ، سرعته تجعل كرسيه ينقلب . أتنوين الزواج به؟ يسأل مثل أبله ، بدلاً من أن يلتزم الصمت ويفرّ بجلده عندما سنحت له الفرصة . تطلق ضحكة مقتضبة ، تصبّ جرعة مشروب ثالثة وتقول ، هو وكيلي ، وهذا يكفي .

ولا تنسي أن ذاك اللقيط لا يميل إلى الجنس ، يقول كولبين .

غيرترود : بالنسبة إلى هذا ، نحن لا نعرف شيئًا . لكن أسوأ ما يمكنني القيام به لنفسي سيكون طبعًا زواجي من رجل أحبه ؛ حينها أصبح بلا سلاح . ربما يجدر بي أن أتزوج غيسلي ، هناك وفرة من سوء الحظ فيه .

كولبين : غيسلي! لم يمتلك الشجاعة قط ليكون نفسه ، لذلك هو لا يكاد يكون شيئًا . وفريدريك يسيطر عليه بخنصره .

ماذا لديكَ هنا؟ تسأل غيرترود الفتى وهي تحدج الأوراق المكتظة بالكتابة التي على الطاولة ؛ هذه ليست الترجمة التي تعمل عليها ، أنت لم تنجز منها الكثير؟ أي ترجمة ، متى ستقرأ لي؟ يسأل كولبين ، ورأسه يهتزّ بنفاد صبر . لا ، يقول الفتى ، هذه رسالة . رسالة! تردّد غيرترود التي تقدمت نحو الطاولة ، أيمكنني أن أقرأها؟ تسأل ، وتلتقطها قبل أن يتاح له قول أي شيء ، تقف قريبة منه جدًا بحيث يستطيع شمّ رائحتها . لم يسبق له قطّ أن كتب شيئًا كهذا من قبل ، والآن ها هو ما كتبه يُقرأ . أنا هنا أيضًا ، يقول كولبين بصوت عالٍ ، بعد مرور عدة دقائق من الصمت ، ويطرق الأرضية مرتين بعكازه ؛ ألن تقرئيها لي؟ اللعنة على الظلام . ثم يهدر عندما لا يرد أحد عليه ، يرفع عصاه ويلوح بها كما لو أنه يحاول شطر الظلمة التي تسيجه . أليست أندريا مدبرة المنزل في أكواخ صيد السمك؟ تسأل غيرترود

وهي تضع الأوراق على الطاولة . يهزّ الفتى رأسه إيجابًا . وهي ليست على ما يرام؟ لا . وأنا أيضًا لا أشعر أنني على ما يرام ، يزأر كولبين بصوت عالٍ .

غيرترود : وحده ذاك الذي يشكك ويتساءل يحيا ، هذه عبارة جيدة الصياغة . أكمل الرسالة ثم امضِ إلى المطبخ ، يمكن أن يؤجّل يوهان إلى ذلك الحين ، وبعدئذ سنجد من يسلم هذه الرسالة إلى محطة صيد السمك . ثم تردف ، هيا يا كولبين ، فينهض الشيخ .

يستمع الفتى إلى صوتيهما بينما يختفيان . وحده ذاك الذي يشكك ويتساءل يحيا ، وماذا يتضمن هذا ، وما هو بصدد القيام به مع هذه المرأة؟ أينزع الفتى فقط إلى الكلمات؟

ينحني على الورقة ويكتب :

السبيل إلى الحياة الآمنة والخدر يعني ألا يخضِع المرء محيطه
إلى التساؤل . وحده ذاك الذي يشكك ويتساءل
يحيا . اتركي بيتور يا أندريا . ابقي ، ولن تغفري أبدًا
لنفسك . ارحلي وحينها ربما يتسنى لك أن تكتشفي الحياة
ثانية ، ابقي حيث أنت وسيستمر موتك .

لا يفكّر ، قلبه يئز ، يشعر به ، يملأ الأزيز صدره . يندفع القلم على الورقة . الكلمات يمكن أن تكون رصاصًا ، ويمكن أيضًا أن تكون فرق إنقاذ . ينحني الفتى على الورقة ويجهّز فرق الإنقاذ تلك .

ثمّ يهزّ يده المتعبة ويقرأ الرسالة ، وجهه طلق الأسارير لكنه حازم في تركيزه العميق ؛ لم يَسمه الزمن بعد بسكينه . يعيد الفتى قراءة ما كتبه توًا ، والكلمات أكبر منه .

بعد بضع دقائق يخرج والرسالة في جيبه مع عملة كرونر، ورغيفان زكيا الرائحة في كيس. اذهب إلى ميلدر، قالت له هيلغا بعد أن قرأت هي وغيرترود الرسالة، ابنها سيمي سيتولى تسليم رسالتك. ولا تنس أن تتوقف عند يوهان وتطلب منه القدوم إلى هنا.

الثلج المتساقط أقل كثافة عما كان عليه في هذا الصباح، يرى الدنيا من خلال ندف الثلج، البحر الرصاصي يعلو ويهبط، مخلوق ضخم يتبع الفتى بعينين نصف مغمضتين بينما هو يشق طريقه خلال أكوام الثلج ميمّمًا بيتًا صغيرًا عند الخليج، أو عند المنعطف تحت حقل الكنيسة. البيت مهلهل ومائل إلى الأمام كأن عملاقًا مرّ به وركله بدافع السأم. يقف أمام البيت غائرًا في كومة ثلج كثيفة ويقرع الباب بحذر عدة مرات. يطفو الثلج النازل من السماء، يحطّ بلطف على الأرض، يذوب فوق سطح البحر. يُفتح الباب ويظهر وجه مسنّ في فرجته، مجعد ومشعر مثل تينة متعفنة، وليس أكبر منها أيضًا. ميلدر؟ يسأل العجوز بتردد؛ تهز رأسها. أنا في أمسّ الحاجة إلى تسليم رسالة إلى أكواخ صيد الأخوين بيتور وغودومندر؛ أخبرتني هيلغا... أجئت من لدن هيلغا يا ولدي العزيز؟! عينان زرقاوان ضبابيتان بعض الشيء تعاينان الفتى، الصوت ضعيف وواهن من الهرم، وابتسامة بلا أسنان تضيء الوجه التيني.

البيت صغير جدًا ولا يكاد يتسع للروحين اللتين تعيشان فيه؛ ينحني الفتى تلقائيًا وينظر إلى الرجل المستلقي على أحد الأسِرّة، يرى فرنًا حجريًا قرب الجدار ومقعدين، وما عدا ذلك لا شيء آخر يمكن أن يوضع في ذلك المكان. يتقطّر ضوء الشمس عبر ثلاثة أغشية صغيرة؛ حيث وضعت براقع بدلاً من زجاج النوافذ، وثمة خرق محشورة في الموضع الذي تلتقي عنده المدخنة بالحافة لاتقاء البرد وإبقاء الثلج في الخارج بلا شكّ، إلا أن الهواء الفاسد عدم وسيلة الخروج واستقر راكدًا وثقيلاً على الفتى الذي يحاول أن

يتنفس من فمه ، متحرقًا للعودة إلى الهواء الطلق . سيمي نائم ، يمزق الهواء بشخيره ، وجهه منتفخ وخشن ، يضفي عليه فمه الكبير الملتوي وأنفه الأفطس وعيناه المائلتان مظهرًا متوعّدًا . على رأسه طاقية سوداء ، وغطاء الفراش البالي انحرف عنه كاشفًا عن ساقين قصيرتين وبطن كثيف الشعر . سيمي يا عزيزي ، تهمس ميلدر وهي تقف محدودبة أمام ابنها ، جاء شاب مع رسالة لك لتسلمها . تكز ابنها برفق ، فيتذمر ويدفعها بعيدًا عنه . تنظر ميلدر إلى الفتى ، تحاول الاعتدال في وقفتها لكن الزمن هو ما حنى ظهرها بكل تلك القسوة ، ومن لديه القوة الهائلة اللازمة ليقاوم ما فعله؟ لن يلبث أن يقوم ، تقول ، وتبتسم ثانية ، ما رأيك بفنجان قهوة يا عزيزي؟ لا تنتظر منه جوابًا ، بل تهرع إلى الوقوف أمام الموقد . ينصب الفتى قامته بحذر ، تاركًا فقط ما لا يزيد عن خمسة إلى ستة سنتمترات بين قمة رأسه والسقف القذر . يغمغم سيمي ويتلوى . ليس من السهل دائمًا أن يتخلى المرء عن أحلامه . الفتى رآه من قبل ، من على مسافة ، وهو يقبل بلا معارضة وبمثابرة أن يُكلّف بالذهاب إلى محطات صيد السمك المختلفة لإنجاز مهام تافهة مختلفة ، يعرج في مشيته مثل مولود جاء من فقمة ووحش بحري ، وقلنسوته دائمًا تتدلّى على عينيه مهما كان الجوّ .

تغلي القهوة وتمتزج رائحتها مع الرائحة الكريهة في الداخل . يمدّ الفتى يده إلى الكيس ، هذا من هيلغا ، يقول وهو يحمل الخبز ، فتهتف العجوز أوه أوه أوه ، تمسد الخبز بمودة وتبارك هيلغا سبع مرات على الأقل . يفتح سيمي عينيه على وسعهما ، يشم الهواء ويهبّ على قدميه ، ثم يعاين الفتى ويتقدم مباشرة نحوه ، يتفحص وجهه بدقة كما لو أنه يحتاج إلى أن يتحسسه بعينيه المائلتين العكرتين ، تصعق الفتى رائحة بول وقذارة ، ورائحة القهوة ليست أفضل . يستغرق سيمي وقتًا طويلاً في الأكل ، ينهي رغيفًا كاملاً ، يجمع الفتات ويمضغها ببطء وهو يتنهد ويلهث برضا ، ثم يضرط فجأة

ويتجشأ ، وتشع عيناه ، لكن الفتى غدا نافد الصبر بحيث عانى في الوقوف بلا حراك . أخيرًا يصبح سيمي جاهزًا فيعطيه الرسالة ، يمسكها بإحكام بأصابعه القصيرة والسمينة ، يقلبها رأسًا على عقب ويتفحص ما كُتب في الخارج . أنا بالتأكيد أعرف أين أندريا ، كما ترى ، يخبر الفتى بحماسة ، يضحك ضحكة مرتبكة ومدوية ويبدأ في نكز صدر الفتى ووكزه . تراقب ميلدر ما يجري مبتسمة ، والفتى لا يتجاسر على التراجع خطوة ، وفي سرّه يلعن هيلغا لأنها أرسلته إلى هنا ؛ يُحتمل أن يأخذها الغبي إلى محطة مختلفة تمامًا ، يخلط ما بين أندريا وتلك العجوز الشمطاء الشريرة آنا ؛ آنا وأندريا ، أبله كهذا ليس لديه على الأرجح حسّ التمييز بينهما . أندريا طيبة جدًا ، يقول سيمي ، لكنني أخاف من بيتورا!

يجلس الفتى فترة من الوقت إلى جانب العجوز . ينظر في عينيها ، لؤلؤتين باهتتين ، ولا يستطيع الإفلات . يشرب القهوة بينما هي تتأرجح في كرسيها وتدندن . أهناك ما أستطيع فعله لكِ؟ يقول ، أتريدين مني أن أجرف الثلج من المدخل؟ تبتسم ، ترفع نظرها نحوه ، تضيق عينيها ليتسنى لها أن تراه جيدًا . أأنتما هنا وحدكما فقط؟ يسألها ، فتبدأ في إخباره عن زوجها الذي غرق في الخليج ، هنا تمامًا أمام البيت ، حدث هذا قبل عشرين سنة . كان هناك اثنان منهما في القارب ، في طريقهما إلى اليابسة ، وليس هناك نفس ريح واحد ، هي وسيمي وقفا عند الشاطئ وانتظرا ، يراقبانهما يقتربان ، نظر إليهما زوجها ولوح لهما بيده ، ثم اكفهرت السماء فجأة بلا سابق إنذار ، والريح انفجرت بجنون . تطاير الغبار وأعمى عيني ميلدر فما عادت ترى شيئًا ، وعندما أصبح في وسعها أن تنظر ثانية كان القارب مقلوبًا والرجلان مطروحين في البحر . قفز سيمي جذلاً عند الشاطئ وهو يعوي ، بابا بابا مضحك! بابا مضحك! بينما اندفعت تخوض الماء بقدر ما واتتها الجرأة ،

وتلك كانت على أي حال مسافة غير كافية ، على الرغم من أنهما استطاعا أن يتبادلا النظر . تسنى لي أن أودّعه ، تقول للفتى ، وهي تربت يده كأنما هو من يحتاج إلى المواساة . وبعد قليل ظهر الرجلان على السطح ثانية . الهواء ينفخ بنطلونيهما الجلديين ، وهما مقلوبان رأسًا على عقب ، سيقانهما منبثقة من البحر ورأساهما في الأسفل ، والبحر هدهدهما على ذلك النحو لساعات ، مثل طيور مائية غريبة ، وسيمي ضحك كثيرًا جدًّا بحيث اضطر إلى الجلوس . صعب أن يكره المرء الشخص الذي يحبه ، تقول للفتى ، طبعًا هذا أصعب شيء في الدنيا ، إلا أن المرء يتجاوز ذلك ويسامح الجميع ما عدا نفسه .

الريح تعصف بينما يعاود الفتى انطلاقه ثانية . يفلت من الابتسامة وتلكما العينين والحزن وأدعية الثناء ، يجاهد في شقّ طريقه عند باحة الكنيسة وقد اقتيد بطريقة ما خارج مساره ، وهذا اضطره إلى المناورة حول أكوام الثلج الكبيرة ، وفي إحدى مناوراته دفعته الريح نحو ذراعي رجل ضخم تبين أنه ينز ؛ لم أعرف أن الجِراء يسمح لها بالخروج في مثل هذا الجو ، يقول ساعي البريد وهو يدفع الفتى جانبًا ويتابع طريقه .

١١

في الخارج ، في مكان ما ، وسط هذه العاصفة يعرج سيمي وهو يمضي نحو محطة صيد السمك ، الرسالة تحت معطفه ، الرسالة المشحونة بتلك الجمل التي كُتبت لتغير الحياة ، وهذه بلا ريب الطريقة التي يجب أن ننتهجها في الكتابة دائمًا . يتلوث المغلف بالشحم الذي يلطخ ثيابه ، وسيكون مبقعًا عندما تتسلمه أندريا . أي رسالة هذه؟ يسأل بيتور ، مرتابًا ومتوجسًا شرًا . فتجيب بترفّع : مجرد رسالة . عندئذ يتملكه الخوف ، يريد أخذ الرسالة منها ولكنه لا يتجاسر ، ينظر إلى إينار الذي يبطئ كثيرًا في إخفاء ابتسامته المتشفية ؛ دائمًا هناك شخص ما يستمدّ البهجة من سوء حظّ الآخرين . ستقرؤها ، يفكّر الفتى ، وماذا بعد؟ أتخرج كلماته إلى هذه العاصفة وتعود إليه بصحبة أندريا؟ ألن يكون آنذاك مسؤولاً عنها تلقائيًا؟ وربما يجد أنه مرغم على التضحية بشيء ما من نفسه ليساعدها؟ ما هي المسؤولية ، أهي أن يبذل المرء الكثير ليساعد الآخرين بحيث يدمر حياته الخاصة؟ لكن ، إن لم يبادر المرء إلى اتخاذ خطوة نحو الآخر ستصبح أيامه جوفاء . الحياة سهلة فقط للذين ليسوا أخلاقيين ؛ فهم يتدبرون أمورهم جيدًا ويعيشون في بيوت كبيرة .

يهبط المساء بين الجبال . يساعد الفتى في التنظيف بعد انتهاء لقاء جمعية الحرفيين الذي جرى بسلاسة . لم يتقيأ إلا اثنان ، وواحد فقط أغمي عليه ، وآخر عاد إلى بيته بأنف مكسور . اجتماعات مهمة ، قال رئيس الجمعية لهيلغا ، إنها تلمّ شملنا ، التضامن هو ما يهم ، وإلا يدوسنا

الأثرياء ويمرغوننا بالبراز. أنتم أنفسكم ماهرون في فعل ذلك كما يبدو لي، انبرت هيلغا تقول. هراء، ردّ رئيس الجمعية، بدون الزمالة نصبح عاجزين. فريدريك يخشانا، وخشيته منّا ليست محدودة، على أي حال اِعلمي أن كولبينك قد غادر إلى مكان ما مع آسي، إلى الفندق على الأرجح. وقيل لي إن الشيخ يستمتع بمشروبه. ما يعني ذاك؟ سأل الفتى عندما رحل رئيس الجمعية وهو يترنح قليلاً إنما راضيًا بعض الشيء عن نفسه بحيث حاول قبل رحيله معانقة هيلغا ومداعبتها. يعني أن كولبين يعجز عن التعامل جيدًا مع مشروبه، وهذا يضعه في مواقف محرجة؛ وعلينا لاحقًا أن نذهب ونأتي به.

ريح عاتية تعصف. تجلد أكوام الثلج، تزعزع الدنيا، والجبال تدمدم بعنف. يستغرق الفتى وهيلغا ما يقارب نصف ساعة ليصلا إلى الفندق. في الأحوال العادية هي لا تعدو مسيرة خمس دقائق. الجو يغير كل شيء هنا، الريح الشمالية والبرد يحتّمان علينا التكوم في بيوتنا، ويزيدان المسافة الفاصلة بين الناس. في الحقيقة، لا أحد في الخارج غيرهما، وأي مهمة يمكن أن يضطلع بها المرء في الخارج في مثل هذا الجو ما عدا السعي إلى الموت؟ السفن من غير ريب نشدت الملجأ أسفل الجدران الصخرية، حيث يمكنها أن تتوقع اعتداءات أقل عنفًا عندما تعصف الريح في هذا الاتجاه، وقوارب صيد السمك التي ما زالت في البحر تحاول شق طريقها نحو اليابسة، الأرض التي ليست في جميع الأحوال مرئية في أي مكان. الأرض التي اختفت، العالم زوبعة بيضاء لا شكل لها، وربما هناك عشرات الرجال الذين يكافحون وهم يجدفون في هذه اللحظة، ينصتون ليسمعوا صوت الأمواج المتكسرة على الصخور التي تعلن الوصول إلى اليابسة، والتي هي أيضًا العقبة الأخيرة والأشد خطورة. يحاربون قوة متفوقة، غير محميين في

قواربهم المكشوفة ، يكافحون من أجل أنفسهم ، يكافحون من أجل أولئك الذين ينتظرونهم عند الشاطئ ، زوجات لا يتجاسرن على النوم خشية أن يبصرن أشباح رجالهن في الأحلام ، أشباح مشبعة بماء البحر . حسنًا ، هكذا انتهى بي المطاف ، صلي من أجل روحي لأنني أتوق إلى أن أُرفع من البحر إلى السماء . أنا ميت الآن ، لذا ما عدتِ في حاجة إلى أن تصبي لعناتك علي ، أنت حرة ، تهانينا ياحبي ، يا قلبي ، إني لأهب حياتي كلها الآن من أجل جوارب جافة ، إنما أنا ببساطة ما عادت لدي حياة لأهبها .

وفي مكان ما هناك أناس لا بدّ من أن يجازفوا ويخرجوا في هذه العاصفة نفسها ليطعموا الخراف الجائعة دائمًا وأبدًا ، تثغو وتمضغ طعامها المجتر ، وهي تحلم بالحشيش الريان وكبشٍ فحلٍ عابر .

الفتى على دراية بكل هذا : الحلم بالخضرة ، الذهاب إلى ملحقات البيوت الخارجية في شتى الأجواء ، الريح تكاد تمزق رأس المرء وهو يخاطر بحياته من أجل العلف ، أو وهو يقبض على المجاديف أو شفير المركب بقبضة الموت متحريًا هدير الأمواج المتكسرة على الشاطئ ، تلك الدمدمة المظلمة التي تحمل الحياة والموت معًا ، الهدير الغوغائي الذي يخترق الريح العاوية مفعمًا بالوعود والتهديدات : تعالوا إلي وسأسحق قواربكم وأغرقكم كما تغرق الفئران البائسة ، أو أسمح لكم بالعبور لتواصلوا حياتكم ، هذا إن ما زلتم ترغبون في أن تدعوا هذه اللحظة القصيرة بمثل ذلك الاسم الكبير . أولئك الذين ينجحون في العبور خلال الأمواج المتكسرة هم إضافة إلى نجاحهم في العبور آمنون . في انتظارهم الأرض الصلبة والحياة اليومية بكلماتها المطمئنة ، جوارب جافة ، عناق دافئ ، أصوات أطفال بريئة ، والخيانة والغثاثة .

يجاهد الفتى ليلتقط أنفاسه ويقاوم الريح المندفعة بين البيوت ، يبقي رأسه منحنيًا معظم الوقت ، لا يترصّد وجهته ويصطدم بهيلغا . يصلان إلى

الفندق ويدخلان ، تصرّ الأرضية تحت أقدامهما ، تهتاج العاصفة خلفهما وتعوي ،لكن هيلغا تسارع إلى إغلاق الباب .

وهكذا لم يكن التخلّص من الريح أصعب من ذلك .

هذه العاصفة جدّ هائلة تكتنف الوجود وتهدّد الأرواح ، بيد أن صدّها ، استبعادها ، لا يحتاج إلى ما هو أكثر من إغلاق باب واحد ، لوح خشبي رقيق . ألا يمكن أن يخبرنا هذا شيئًا عن الإنسان وهو يواجه عواصفه الخاصة المظلمة؟ كان الفتى وهيلغا قد نفضا كمية كبيرة من الثلج عنهما بالفراشي الخشنة المعلقة في المدخل عندما تقبل نحوهما شابة طويلة وتلقي عليهما تحية المساء بصوت منخفض . فتاة نحيلة جدًا ذات وجه طويل وأنف ضخم معقوف ؛ وقفت وقد صالبت ذراعيها فوق مئزرها ، كما لو أنها تجلب الانتباه إليهما : مرحبًا ، انظرا كم نحن ضخمتان وقبيحتان ، وعلى نحو تلقائي يفكر الفتى في ذباب الكركي . مرحبًا هولدا ، تقول هيلغا وهي تعلق الفرشاة في مكانها ، بلغنا أن كولبيننا هنا ، أصحيح هذا؟ تبتسم هولدا كاشفة عن أسنانها المصفرّة ؛ تلقي على الفتى نظرة عابرة قبل أن تغضّ بصرها ، تقول نعم ، هو هنا ، تشبك أصابعها الطويلة بتردد ، تترك جفنيها ينزلان على عينيها اللتين تبرزان مثل الدمامل . هي حقًا . . . قبيحة ، يفكر الفتى مذهولاً ، و يعجز عن منع نفسه من التفكير في ذلك ، ثم ولحسن الحظّ يشعر بالخجل من نفسه فورًا . ما يعني أنه ، كما نأمل ، ليس مثلنا ، نحن الذين كثيرًا ما أطلقنا أحكامًا تستند على ما هو واضح ، على ما ظهر أمام أعيننا ، وبالتالي اصطحبنا معنا أينما ذهبنا القسوة والإجحاف . هل طريق روح الإنسان إلى الجحيم أقصر دائمًا من الطريق إلى الجنة؟

انتظرا لحظة ، تقول هولدا فجأة ثم تنحني لهما بطريقة خرقاء ، تمشي بسرعة عائدة إلى الرواق وتنعطف يمينًا عند الزاوية . يطالع الفتى هيلغا بنظرة فضولية . إنها ابنة آوسغيرد و تيتور ، تقول ، أنتما في العمر نفسه ، المسكينة

تخشى الرجال . في مثل سني وتخاف مني ، يقول ، وهو لا يكاد يعرف أي الأمرين هو المفاجئ أكثر . أنت رجل ، تقول هيلغا ، كما لو أنها تكشف حقيقة مجهولة سابقًا ، لكن هولدا ليست ساذجة كما تظهر ، لا تسمح أبدًا للمظاهر الخارجية أن تخدعك وتضللك . مرحبًا تيتور ، تلتفت هيلغا وتخاطب الرجل الذي يقبل نحوهما بسرعة وهو يرفع يديه الضخمتين بطريقة اعتذارية . عزيزتي هيلغا ، يهتف ، سامحيني إذ تركتك تنتظرين ، لكن فريدريك وعائلته يتناولون الطعام هنا مع بعض الأشخاص ، وأنت تعرفين أن المرء لا يستطيع التملص منه وهو في وسط حوار معه . كان يجب أن أُعلمك عن كولبين طبعًا ، بيد أنه الآن في المشرب ومعه صحبة ممتازة . أنا ، بل كلنا أبقينا عينًا يقظة عليه ، وكانت هولدا ستصحبه إلى البيت . يمكنك الاعتماد علينا . لن يشرد كولبين منّا ثانية مثل آخر مرة ، لكن قولي لي أي شاب هذا الذي يرافقك؟ يسأل وهو ينحني إلى الأمام لينظر إلى الفتى عن كثب ، ابتسامته تبدي للعيان تلك النزعة النادرة إلى الخير التي تجعل الدنيا مكانًا صالحًا للسكن . لو أن تيتور وزوجته آوسغيرد ليسا هنا لكان مجتمع البلدة أقتم مما هو عليه ؛ يقع الفندق في المربع المركزي ، وكان قد بدأ بالتدهور عندما اشتراه الزوجان قبل عشرين سنة . كانا قد كسبا ثروة صغيرة من تشغيل قوارب صيد السمك ، واستثمرا كل ما لديهما في تجديد البناء ، وتلك لم تكن مهمة يسيرة ؛ يتألف المبنى من طابقين مع قبو وعليّة فسيحة خُصصت لتكون شقة مالكي الفندق وابنتهما هولدا . سارت أمور الفندق سيرًا حسنًا ، عمل الزوجان بجدّ ، بيد أنهما واجها مشكلة كبيرة في العثور على اسم لفندقهما ؛ ينبغي أن يطلق على كل شيء اسم ما . الناس ، والحيوانات ، والجبال ، ومواضع توافر السمك البحري ، لا تحتاج فأرة إلى ما هو أكثر من الاندفاع مسرعة عبر أرضية ما لتُمنح اسمًا . نسمّي الأشياء لنحمي أنفسنا من اللاعقلانية ولنحتوي العالم . وبعد الانتهاء من تشييد

فندق لا بدّ من أن يُدعى بشيء ما . الأسماء تعطي الأشياء وجهًا ، تعطيها صورة . سمّه فندق الموت ولن يطرقه أحد سوى الشعراء السوداويين والمتهكمين التائقين إلى الانتحار . سمّه فندق الجنة وسيكتظ بالراهبات والقديسين ورجال يأملون أن يكون بيت دعارة مستتر . فكّر تيتور وفكّر ؛ ثم اقترح اسم خان الأمان ، الاقتراح المئة أو ما يزيد . لا ، قوافي ركيكة ، اعترضت آوسغيرد التي تعرف السكان المحليين جيدًا ، عندئذ ، وقد استحكم بتيتور تشاؤم استثنائي قال ، أوه ، نعيش هنا في آخر الدنيا واستثمرنا كل ما لدينا في هذا الفندق وغرفه الأربع عشرة ، وصالاته الفخمة ؛ هذا خطأ ، سنخسر كل شيء وننتهي عالة على الأبرشية! الفندق القائم عند تخوم آخر الدنيا ، اقترحت آوسغيرد ، وبذاك أصبح للفندق اسم ، ولو أنه ثقيل الوزن جدًا بحيث أن من يستطيعون ترديده بحذافيره معدودون ، وهكذا اختصر إلى فندق آخر الدنيا . وعلى نقيض نبوءات الموت التي نبعت من اليأس الجوهري القائل بأن القرون الثقيلة قد زفرت أنفاسها في وعينا ، تجري الأمور فيه بسلاسة ، والزوجان متحدان ومتفاهمان على نحو جميل حقًا ، يا حبي ، يقول تيتور لآوسغيرد عدة مرات في اليوم حتى في حضور الآخرين . وهذا استثنائي . الحب لا يفنى أبدًا بالنسبة إلى بعض الناس ، لا يفقد بريقه مطلقًا مهما هبت العواصف في الحياة ، والتفاهة التي يمكن بسهولة أن تقوض المرء في الحياة العادية يبدو أنها لا تمسهم . أولئك الذين يحصلون على امتياز عبور دروب مثل هؤلاء الناس سرعان ما يدركون الهدف الكامن وراء كل شيء . الظلّ الحقيقي الوحيد في حياة الزوجين هو حزن هولدا ووحدتها ، هذا الثقل الذي تحمله داخلها ، هذه الكتلة الحجرية القاتمة التي تخفيها عنهما بقدر ما تستطيع ، على الرغم من أنهما يستيقظان أحيانًا على صوت بكائها في الليل . العزيزة المسكينة لن تتزوج أبدًا ، تقول النساء هنا ، وربما هناك شيء من الصحة في كلامهن . ومجرد إلقاء نظرة خاطفة عليها

يتبين للمرء أن الفتاة نموذج غير متقن الصنع : هزيلة ، طويلة العنق ، بلا وركين ومسطحة الصدر ، بدون الحاجة إلى ذكر الأسنان البارزة ، تمتلك يدين غريبتي الشكل ، يدين مجتهدتين ، وهي تستمد الرضا من العمل ، وتستمتع بلعب الشطرنج في أيام الشتاء المعتمة والهادئة مع أبيها ، ذاك الذي يقف أمام هيلغا والفتى ويسأل بدافع الفضول ، ولكن بحنان واضح ، أي شاب هذا ، وينحني إلى الأمام ليتفحص الفتى عن كثب . هذا فتاي وفتى غيرترود ، تقول هيلغا ، نحن ننوي تعليمه ، رومانسيته العميقة لا تتناسب مع صيد السمك . التعليم فكرة ممتازة ، يقول تيتور وهو يعاين الفتى بفضول ، مضيقًا عينيه كما يفعل الناس الذين يعانون من قصر النظر ، أي شخص تقريبًا يمكنه العمل في مجال صيد السمك ، وارتياد البحر ، عندنا ما يكفي من هؤلاء الناس ، لكن صنفك نادر إلى حدّ بعيد . يمكن أن نطلب من هولدا أن تعلمك الإنجليزية ، هذا في حال أردت ، الصحبة ستنفعها هي أيضًا . على أي حال يؤسفني كثيرًا ما حدث لصديقك . تلك كانت مأساة مفجعة .

هي هذه الكلمة ، مأساة ، التي تحول دون أن يدرك الفتى فحوى الجملة فورًا ، ثم يخطر له أن مالك الفندق على دراية بقصة المعطف الواقي ، بقصة بيت الشعر الفاصل بين الحياة والموت ، وربما سمع أيضًا عن المسيرة العظيمة وهو يحمل القصيدة على ظهره . انتشرت الحكاية في أنحاء البلدة ، والفتى يلاحظ نظرات الناس وهو يمضي إلى المتجر ، أو يهرع في مهمة من أجل الدار ، وهذا يولد فيه الشعور بأنه يتحول إلى شخصية في قصة .

أين أنتم الآن؟ تسأل هيلغا التي تتأبط ذراع تيتور وتمشي معه وهو يقطع الرواق . يمضي الفتى في أعقابهما ، الرواق خافت الإضاءة ، ثم يصبح أكثر جلاء عند نهايته الأخرى . ينعطف تيتور يسارًا ويدخل قاعة مفتوحة فيها مجموعة من الطاولات والكراسي الضخمة ؛ وإلى طاولة كبيرة يجلس ثلاثة

رجال . ينظر الفتى نحو اليمين ويتسمّر في أرضه عندما يقع نظره على كتفي راغينهيلد العاريتين وأحد جانبي وجهها الأبيض من خلال باب كبير من الزجاج المزدوج ، يرى عظمة خدها العالية التي تشبه جبلاً جليديًا صقلته الرياح .

لم يرها منذ أن حشرت قطعة حلوى رطبة ولامعة بالرضاب في فمه .

وهي تحمل شوكة .

شعرها البني معقود على شكل كعكة ، وثمة خصلة واحدة منه تتدلى على خدها . خصلة بنية وحيدة تظلل بشرتها البيضاء بنعومتها الفائقة . ينظر وينظر وشيئًا فشيئًا تبطئ الأرض دورانها ، تبطئه إلى أن تتوقّف . تلبث هامدة في ظلام الفضاء ، وكل شيء آخر يغدو هادئًا . تصبح الريح هواءً شفافًا ، الثلج المتطاير يغوص في الأرض ويصمت ، تعلوه سماء قاتمة بنجوم متلألئة عمرها من عمر الزمن .

لم يعرف أنه يمكن إيقاف دوران الأرض بتأمل خصلة شعر وحيدة تتدلى على خد أبيض .

لم يعرف أنّ خصلة الشعر هذه يمكن أن تجعله يستشف فجر الزمن .

لم يعرف أنّ الأكتاف يمكن أن تكون بالغة الدقة وناصعة البياض كضوء القمر .

لا تنظر إليه ، هي ليست واعية بوجوده ، إلا أن المرأة الجالسة في نهاية الطاولة ، ربما هي أمها ، تتفحّص الفتى ببرود ، بتعمّد ، وإذ يلاحظ ارتعاش العضلات حول فمها يسرع وراء هيلغا ، سدرًا وضائعًا . عندما ينقشع غمام رأسه يجد نفسه جالسًا في كرسي مجاور لهيلغا . وهما يجلسان إلى طاولة تضم كولبين ورجلين آخرين . كم مضى علي وأنا أجلس هنا؟ يفكّر الفتى ، يضع يديه على الطاولة ثم يسحبهما على نحو غريزي عندما يرى إصبعًا مصطبغًا بشحوب الموت في أسطوانة زجاجية أمامه .

الأصابع نادرًا ما يعتريها السأم .

من وقت لآخر يتأملها الفتى وهو يشعر بالغيرة منها ، يتأمل امتدادها من راحة اليد ووقوفها معًا متجاورة ، ما عدا الإبهام الذي يبقي نفسه بمعزل عنها ، مختالاً بنفسه ، وحيدًا نوعًا ما ، وفي الوقت نفسه هو جزء لا يتجزأ من الكل . في أغلب الأحيان تتجمع خمس أصابع معًا ، عشر عندما توضع اليدان جنبًا إلى جنب ، لكن الإصبع التي على الطاولة محزنة في عزلتها ، بعيدة جدًا عن إخوتها . يحضر تيتور قدحين ضخمين ، نصف ملآنين تقريبًا بسائل أصفر ثخين ، ويضعهما أمام هيلغا والفتى . تعرف آسي الساعاتي ، تقول له هيلغا مومئة برأسها نحو رجل نحيل ووسيم يجلس قبالتهما من جهة اليسار ، وهذا لا أحد سوى مدير المدرسة غيسلي يونسون ، رجل مشهور هنا بين الجبال ، تقول ، وهي تعني الرجل الجالس قبالة الفتى تمامًا . مدير المدرسة رجل جدير بالاحترام ، متين البنية وممتلئ الجسم ، وجهه المتورد والمنتفخ بلا لحية ، ولعل هذا يفسر لماذا تبدو في طلعته تلك المسحة من الليونة . يحييهما غيسلي بحركة طفيفة من رأسه ، ثم يتناول الأسطوانة ويضعها في جيب سترته ، بينما يبادر آسي إلى القول وعيناه زائغتان من المشروب ، بالنسبة إلي أرى أن ارتياد الأماكن ومعي إصبع شخص غريب في جيبي شيء يقع عند حدود الانحراف ، زِد على ذلك أنه يخص أجنبيًا لعينًا . فيقول غيسلي إن النفس البشرية مأوى العديد من الأشياء ، ثم يردف ، ألم تر إصبعًا من قبل؟ سائلاً الفتى الذي يواجه صعوبة في زحزحة عينيه عن جيب السترة . بلى لكن باليد وبصحبة بقية الأصابع ، يجيب بروية ، كما لو أنه يجيب من مسافة بعيدة ، وهذا يجعل مدير المدرسة يطلق ضحكة سريعة ، يمد يديه الكبيرتين ويفرد أصابعه العشرة ، صحيح ما تقوله ، هي متصاحبة! ثم يقلب كفيه كما لو أنه في حالة ذهول ، ينظر ثانية إلى الفتى ، يرجع إلى الوراء كأنه يريد تفحصه جيدًا ، أليس هذا؟ . . . يستفسر

مدير المدرسة ولا يكمل جملته لأن هيلغا تقول باختصار، نعم، إنه هو. رائع، يهمس غيسلي، رائع حقًا، رائع جدًا، ومذهل إلى أبعد الحدود، نعم ومختلف... بالفعل. يجري سبابته على ذقنه بسرعة. أكنت تعرف يا بني، يقول لاحقًا، أن هناك شاعرًا فرنسيًا، أو كان هناك، طبعًا هو ميت منذ وقت طويل كجميع الرجال المحترمين، أوصانا بتشديد وحزم غير عاديين أن ننتشي، أن نبقى ثملين باستمرار، ثملين بالنبيذ والفضيلة والشعر، وعندئذ فقط نحيا، عندئذ نكون قد عشنا. أحاول أحيانا أن أعيش وفقًا لهذا الإيعاز. أحيانًا، وأنا لا أعير رأي الآخرين بهذا أي اهتمام، أنا بالتأكيد سيد نفسي، والآن أودّ أن أشرب نخبك ونخب صديقك؛ يجب أن تبقى ذكراه مشرقة إلى الأبد. يقف غيسلي وبيده قدح الكونياك، يقف بحذر، ويجاهد ليوازن نفسه على هذه الكرة الأرضية التي تدور الآن بسرعة هائلة، ويتوازن في النهاية، ثم يرفع قدحه عاليًا ويفرغه في جوفه دفعة واحدة، ولا يبدو أنه يشعر بالانزعاج لأن الآخرين لم ينهضوا، ولم يشاركوه في اقتراحه. يستمع الفتى إلى وجيب قلبه الثقيل، يرشف مشروبه بأناة، ويعبر الكحول إلى دمه، يشبه في ذلك أكثر ما يشبه عبور دندنة مهدئة.

أيخون المرء الموتى ببقائه حيًا؟

يفقد صديقه، يراقب باردور يتجمد حتى الموت. الشيء الوحيد الذي بدا أنه يربطه بهذه الحياة، بهذا العالم الملعون. الشيء الوحيد الذي كان صالحًا قطعًا. ثمّ يعبر مرجًا وعرًا ليعيد كتابًا ويموت، وبدلاً من ذلك تحتويه امرأتان، يلج دنيا جديدة، والآن، مثله مثل رجل رفيع الثقافة من رجالات العالم يجلس إلى الطاولة نفسها التي يجلس إليها مدير المدرسة، رجل الأدب والشعر. لو عاش باردور، لبقي الفتى حتى هذه اللحظة في محطة صيد السمك، وإن يكن بانتظاره عمل صيفي في متجر ليو، ثم يحلّ الخريف وتأتي معه العودة إلى محطة صيد السمك ثانية. كدح أبدي،

مشقة ، وروح متعبة ، ومدير مدرسة على مسافة تستعصي على القياس . بيد أن باردور يموت ، وموته هو السبب الوحيد وراء جلوس الفتى قبالة مدير المدرسة . الرجال المتعلمون الوحيدون الذين رآهم إلى يومه هذا كانوا قساوسة متورطين بيأس في مشقات الزراعة ، تقلقهم ضرائب الكنيسة ، يقفون منحنين عند منابر الوعظ ، كلماتهم لا تضيف شيئًا جديدًا على الوجود . قرأ باردور والفتى كل ما كتبه غيسلي في صحيفة إرادة الشعب ، مقالات متفرقة عن التعليم ، والقضايا الاجتماعية ، وعمودين عن الشعر ، قام باردور باقتطاعهما من الصحيفة وقرأهما مرارًا وتكرارًا ؛ من هذه الكتابات يعرف الفتى بعض الأسماء الغامضة من أصقاع بعيدة مثل بودلير وغوته . الأخير كان ألمانيًا وكتب قصة ذائعة الصيت عن مأساة حبّ تنتهي بإطلاق البطل الرصاص على نفسه . وكان غيسلي قد كتب في ذلك الوقت المغرق في البعد عن الفتى : وهكذا نلاحظ الفاجعة التي يسببها الحب . والآن لا تفصلهما إلا طاولة . بالكاد يمكن الاقتراب من المعرفة أكثر من هذا . يميل غيسلي إلى الأمام فيظهر للحظة في جيب سترته الداخلي كتاب أزرق الغلاف ، فهو لا يغادر البيت أبدًا من غير أن يحمل معه على الأقل كتابًا واحدًا ليحميه من رتابة العالم المضجرة . أيجلب لي موت باردور السعادة؟ يفكر الفتى ، والفزع المباغت يملأ جوارحه ، يرفع عينيه وينظر إلى تيتور الذي يتكئ على نضد البيع وقد أغلق عينيه برهة .

في هذه الأيام هناك القليل مما يجري في الفندق ، إنما لم يمض وقت طويل منذ أن شغل بحارة السفن معظم غرفه على حساب التجار الذين موّلوا السفن . بعضهم جاء من مكان بعيد ، آخرون كان لا بدّ من أن يسيروا عدة أيام وعلى ظهورهم حاجياتهم وثيابهم التي تكاد تزن ثلاثين كيلوغرامًا ، أو سحبوها بوساطة الزلاجات حيث سمحت الفرص والظروف ؛ فوق الجبال وفي الوديان ، ثم على الجبال ثم منحدرات المروج ، مئات من صيادي

السمك في طريقهم إلى السفن أو المراكب ، كلاب بحر أزلية يجري في عروقها ماء البحر بدلاً من الدم ، وإلى جانبهم جِراء قليلة الخبرة لا تكاد تبلغ أعمارها ثلاث عشرة سنة ، أطفال هم في يوم يرتعون في أمان غرف ذويهم العائلية ، وفي اليوم التالي يعيشون حياة أكواخ صيد السمك القاسية ، حياة البحر القطبي المفتوح ، فيقمعون الطفل الذي فيهم ، يقمعون الفرح الغرّ ؛ إذ ليس لديهم خيار آخر ، ويكبرون في السن أسرع من السنين . يفقدون رونق الفتوة في أيام قليلة فقط ، ويذوي جوهرهم . ولا تصعد إلى السفن إلا كلاب البحر ، حوالي عشرة منهم ، تجري إدارتهم من البلدة . ثلاثون سفينة ، ثلاثمئة صياد سمك على وجه التقريب ، العديد منهم من مناطق أخرى ، ما يعني قدرًا كبيرًا من الحركة الدائبة بينما يجهز معظمهم في الوقت نفسه . وتيتور سعيد لأن الصخب قد مرّ ؛ هذا مربح بالتأكيد ، ومع ذلك هو يستلزم ليالي طويلة وصعبة ، وصخبًا واضطرابًا وأيامًا قاسية . الرجال البعيدون عن أوطانهم يفقدون الكثير عندما يشكلون مجموعات ، تأثير حيوية المجموعة سيئ عليهم ، يعرّيهم من تساميهم ، يحولهم إلى سوقيين . ولفترة من الوقت لم يكن من الآمن السماح لهولدا في المساء أن تتجول في الفندق وحدها ؛ بعضهم ضايقوها ، وبوحشية . مرة اضطر تيتور إلى اقتلاع بحار عنها ، بحار مخمور حتى الثمالة ويتصرف مثل ثور شبق ، كان قد مزّق بنطلونه وضغط هولدا المتقعة ذعرًا بالحائط ، وراح يحك عضوه المنتفخ المتصلب بها ، يمكن أن يكون هذا العضو جميلاً ، لكن أحيانًا يبدو أكثر شبهًا برسالة مروعة من الجحيم . كيف سينتهي المطاف بهولدا؟ بخجلها المفرط من الرجال ، ولا يبدو أن أحدًا يعيرها أي انتباه ما عدا البحارة السكارى ، ألن أصبح في يوم جدًا؟ يفكر تيتور ، وللحظة يغدو كل شيء كئيبًا ومحزنًا . بذهن مشتت يمرّر راحة يده على الطاولة ، يفتح عينيه فتلتقيان بعيني الفتى . من غرفة الطعام يمكن سماع دوي ضحك ، أصوات يكممها الباب الزجاجي ، يبدو أن أخي

الكبير يحظى بوقت طيب ، يقول غيسلي بحدة وهو يخرج مجموعة من ورق اللعب . الناس الذين يلعبون الورق يمكنهم تجنب الكلام في المواضيع الحساسة ، ويمكنهم الهروب من الحياة مؤقتًا . الفتى قانع بالتفرج ، يتناول قدحه ، وقد بدأ توًا فقط في التعود على المشروب الثقيل ، لكن القدح المحدبة تضطره إلى أن يميل إلى الوراء ليرشف منها ، وعندما يفعل يرى راغينهيلد . هي ترتدي ثوبًا أزرق ، نصف متوارية خلف إطار الباب وتشير إليه ليوافيها ، سرًا ولكن بنفاد صبر عظيم . يقف الفتى بتردّد ؛ لا يبدو أن الآخرين يلاحظون شيئًا . وهكذا يمضي إليها .

تهيأ لي أنك لن تلاحظني أبدًا ، تهمس وهي تمسك الفتى وتسحبه نحو ركن حيث لا يمكن أن يراهما أحد . ثوبها أزرق ، ثوب أزرق بلون السماء ، أحد الآلهة مزق قطعة من السماء ودثرها بها ، السماء ملتصقة بجسدها فوق الخصر ، وتحته تتوهج منفرجة قليلاً . تسحبه إلى الزاوية ، تدنو منه كثيرًا إلى درجة أنه يشعر بنهديها وهما يضغطانه ، ربما من قبيل الصدفة الخالصة ، وربما لا على الإطلاق ، وهما صلبان ، وعلى الأرجح كبيران قليلاً ، إلا أنه ليس متأكدًا من هذا ، فما يعرفه عن النهود قليل جدًا ، لكن من اللطيف أن يشعر بهما ثانية . شعرها مرفوع ومعقوص على شكل كعكة ، ينظر إلى جيدها البضّ ، وكتفيها العاريتين ، لا بدّ من أن هناك سعادة في امتلاك مثل هاتين الكتفين . ليس لدينا وقت كثير ، تقول برقّة وقد حشرته في الزاوية بحيث ما عاد في وسعه الذهاب إلى أي مكان ، ولا هو يريد الذهاب إلى أي مكان . إنهم ينتظرونني ، أخبرتهم أنني أريد الذهاب إلى المرحاض لأقضي حاجتي ، تضيف وهي تنظر بتحدّ إلى الفتى . ماذا تفعل هنا مع هيلغا ، ظننت أنكما تفضلان عدم ارتياد أي مكان؟ أنا فقط ، يجيب وهو لا يكاد يسمع نفسه بسبب دمدمة دمه الصاخبة ، وطرقات قلبه ، جئت فقط مع هيلغا و . . . امم ، نحن . . . نبحث عن كولبين ، يتأتئ عندما

يلاحظ تزايد نفاد صبر نظرة راغينهيلد . أعرف ، تقول ، وهي تقريبًا على حافة خبط قدمها بالأرض . ما يمكنه أن يقول ليهدئها ، ما الكلمات التي قد تسترضي هذه المرأة ، هذه الفتاة التي تشبه عيناها الجبال؟ لماذا تحدق في كتفي هكذا؟ تقول وعيناها اللتان بلون الصوان تخرقان الفتى ، على الرغم من أنهما ليستا ثاقبتين جدًا في هذه اللحظة ، وشفتاها ليستا مطبقتين . شفتاها حمراوتان ، مكتنزتان وتلمعان بالرضاب وتلكما العينان مجبولتان من الجبال .

الفتى : هناك نور عظيم خلف الجبال .

أنا ذاهبة إلى كوبنهاغن عما قريب ، تقول ، وترخي عينيها إلى الأرض للحظة . أهدابها طويلة ، مروحتان مستقرتان على حدود عينيها . سأبقى هناك على مدى السنتين القادمتين مع تريجفي وزوجته في كوبنهاغن . ترتفع المروحتان ، أما هي فتتابع ، يمكنك أن تفقد كل شيء هنا ، في هذا الركود حيث لا شيء يحصل ولا يوجد إلا بحارة سوقيون ، بينما هناك عبر البحار متاحف وشوارع عريضة مشجرة وحشود من الناس في الطرقات ، هناك حياة! لا أفهم كيف يطيق الناس ملازمة المكان هنا .

هكذا إذن .

هي راحلة .

حسنًا .

بعيدًا .

عبر البحر .

بعيدًا جدًا .

هذا جيد ، ورحلة آمنة! ما يعنيه هو؟ إنه لا يملك أدنى اهتمام بها ، ولا يعرفها مطلقًا ، ولا مثقال ذرة . هي من عالم آخر ، بعيد ، بعيد جدًا عن عالمه ، وبينهما محيط سواء هي في كوبنهاغن أو هنا .

مع ذلك، هي راحلة. راحلة مع هاتين العينين. وهاتين الكتفين! هي ذاهبة.

ترحل وتخلف الجبال وراءها.

وتخلفني عند سفوح تلك الجبال.

لهذا السبب يكمن لي الأسى في الليل في مكان ما وهو في طريقه إلي مع بندقية محشوة، ليطلق النار علي مثل كلب، يفكّر، مقتنعًا أن تهكم الوجود له الكلمة الأخيرة. لماذا لا تقول شيئًا؟ تسأله بحدّة وتبدو مرة أخرى على حافة خبط قدمها بالأرض. وتوقف عن التحديق في كتفي! أترى كم يمكن أن تكون سخيفًا!

ذاك المهجور عند سفوح الجبال بمنحدراتها الغائرة يستطيع في الحقيقة أن يقول كل شيء. لأنه ببساطة ليس لديه ما يفقده، وطبعًا ليس هناك شيء يربحه أيضًا. لا أقول شيئًا لأن الأسى كامن في المساء وهو في طريقه إلى هنا ومعه بندقية محشوة، وأنا أنظر إلى كتفيك هكذا لأنهما أجمل من ضوء القمر، ولن أكون قادرًا على وصفهما حتى لو عشت عشرة قرون، وأنا... يتوقّف الفتى لأن الكلمات استعصت عليه فجأة، لغة كاملة تلاشت، تاركة وراءها الصمت فقط. في هذه اللحظة لا تكاد تكون هناك مسافة فاصلة بينهما. هما متقاربان جدًا إلى درجة أنهما يستنشقان الأوكسجين نفسه، يقتسمانه، وهي لديها هاتين الكتفين وتنظر إليه وتتنفس، تتنفسه وجميع كلمات العالم تندثر، وبالتالي يفعل الفتى الشيء الوحيد الذي يمكن فعله: يذعن لأوامر القلب.

تحوم شفتاه في الهواء وقتًا طويلاً. تطوفان عبر السماء، تتركان المحيط الأثيري وتسافران ردحًا من الزمن خلال عتمة الفضاء، وتهبطان أخيرًا بنعومة على الكتفين، على ضوء القمر الأبيض. ثمّ يمرر شفتيه ببطء على طول السطح صعودًا إلى العنق وإلى شحمة الأذن الناصعة والصلبة

والناعمة ، يسمع تردّد أنفاسها ، يشعر براحة يدها على معدته ، تمسك رأسه ، تدنيه منها ، وتقبّله وشفتاها دافئتان ونديتان وهما وهما وهما . . . .

ثم تفلت رأسه ، تمشي بحيوية نحو صالة الطعام ، تفتح الباب ، تتسرب عبره بضع كلمات ؛ تدخل ، تغلق الباب ، وتموت الكلمات على الأرضية أمام الفتى .

١٢

اليوم التالي هادئ تقريبًا والريح التي بشفافية الزمن وهنت؛ اختفت مع الليل وخلفت وراءها نسيمًا معتذرًا .

يتأنى الفتى في الاستيقاظ ، هو نصف غافٍ . يفكر الناس قليلاً وهم يستيقظون ، هم آنذاك يشعرون فقط ، وهم بالتالي أقرب إلى كونهم يحلمون ، لكنه يدرك أن الصحو ينتظر على السطح مثل صخب مدو ، يغمغم بشيء ما ، يحاول تغيير الدم إلى رمل ، يجعل نفسه ثقيلاً جدًّا بحيث يغرق ثانية . النوم ملجأ مظلم ، ويغرق .

لم يمكثوا وقتًا طويلاً في الفندق . قطع الفتى تلك الكيلومترات التي تقارب أربعمئة ألف ليقبّل كتفين ، ليقبّل شحمة أذن ، ثم قُبّل هو نفسه . عندما صفا رأسه كان قد عاد ليجلس إلى الطاولة ، إلى جانب هيلغا التي وضعت ورق اللعب وقالت ، حسنًا نغادر الآن . لا ، لا ، لا ، قال غيسلي ، الذي بدا خائفًا ، لا لا تغادروا الساعة ، لا يمكن أن تفعلوا ، آسي ساعدني في منعهم ، لدينا الكثير بعد لنتحدث عنه هذا المساء ، والليلة اللعينة بأكملها ما زالت أمامنا! لن تذهب الكلمات إلى أي مكان ، وستكون هناك ليالي أخرى ، قالت هيلغا . هذا ما لا نعرفه ، أجاب غيسلي ، يأتي مساء المرء الأخير في لحظة ما ، وحينها يفوت الأوان على الكلام . سأجازف ، قالت هيلغا . همّ آسي بالوقوف ، ربما هناك أحد ينتظره في البيت ، إلا أن غيسلي أجلسه بقوة؛ اِجلس ، قال ، مؤلم كثيرًا أن يبقى المرء وحده ، فلنتحدث يا آسي ، نتحدث ونتحدث إلى أن لا نعود نعرف من نحن ، وما

هي أسماؤنا . أتعتقد يا آسي أن الربّ يحتاج إليك وأنت ميت؟

استغرقوا مدة طويلة وهم يعودون أدراجهم من الفندق ، كانت العاصفة قد انحسرت إلى حدّ كبير ، ما سمح لهم أن يمشوا مستقيمين ، لكن كولبين رفض بإصرار أن يساعداه ، نفض عنه ذراع هيلغا ومشى وحده ، ببطء ، متحسسًا الطريق بقدمه في كل خطوة خطاها . هما إلى جانبيه ، جاهزين للإمساك به ، وفعلا ذلك ثلاث مرات . من برأيك أخذ مني بصري ، القدير أم الشيطان؟ سأل الفتى بعد أن تعثر للمرة الثالثة ، وقامت هيلغا بنفض الثلج عنه ؛ لا أدري ، أجاب الفتى ، لكن عساك تنتهي في المكان نفسه حيث انتهى بصرك . آنئذٍ ، أطلق ذلك الذي يشبه سمكة ذئبية هرمة واحدة من ضحكاته الشرسة والفظة تلك ، الضحكة التي تكاد تشبه العواء الحزين ، وسمح لهما أن يدعماه بقية الطريق .

كانت غيرترود تنتظر في الصالة ، وكان يفترض أن يقرأ لهم الفتى من كتاب شكسبير ؛ خذني بعيدًا عن هنا ، قالت غيرترود وهي تناوله الكتاب . وفعل الفتى ما طُلب منه ؛ أخذهم كلهم بعيدًا ، وأخذ نفسه معهم بعيدًا عن راغينهيلد ، عن الرغبة ، عن القبلة ، عن الانفعال والندم . قرأ ومرت الأمسية واقترب الليل بينما الساعة الثقيلة وقفت خارجًا في الزاوية صامتة ؛ سأوقف الزمن الآن ، كانت غيرترود قد قالت مرة ، ومنذ ذاك الحين لم يمر الوقت بأي طريقة ملموسة في الصالة ؛ بندول الساعة معلق ساكنًا رأسًا على عقب مثل متهم مُدان . قرأ ، أخذهم بعيدًا وكولبين جلس بلا حراك في ظلمته بينما دخلتها كلمات شكسبير مثل مصابيح وهاجة .

كيف يمكنني أن أرضيك سيدتي ، ماذا يسقمك؟ يسأل إياجو الوغد ديدمونة ، ديدمونة الجميلة جدًا في بلواها . لا أعرف ، تجيب ، وهذا جواب جيد ، إذ ماذا نريد حقًا ، ولماذا يصيبنا الخوف ، ومن أين تأتي هذه المطامح القاسية المخفية ، وإلى أين تأخذنا الحياة؟ أنا لا أعرف ، أجابت ديدمونة

ناطقة بالكلمات الأصدق ، فنحن نتحسس طريقنا في الحياة ثم نموت في المجهول . لا أعرف ، أجابت ديدمونة ، وكانت تنوي قول المزيد ، على الرغم من أنها قالت تقريبًا كل شيء . وبينما هم جالسون جاءهم وقع حسّ شخص يدخل الدار تصاحبه جلبة عظيمة ، فتحت هيلغا عينيها ؛ إنه ينز على الأرجح ، قالت ، أنزل الفتى الكتاب وإصبعه ترتاح على جواب ديدمونة ، مستعدًا لمتابعة القراءة ، بينما تخبط ساعي البريد وهو يدخل الصالة ، مكللاً بالثلج . وقف مترنحًا هناك ناظرًا حواليه ، كما لو أنه متفاجئ من رؤيتهم ، متفاجئ من كونه في الداخل ، استدار كأنه يريد أن يسأل ، أين الثلج العاصف ، أين الريح؟ خبطت قدمه كرسيًا ، فقد توازنه ، فترددت في الدار جلجلة وهناك خرّ أرضًا . جاء مخمورًا حتى الثمالة . أطال البقاء كثيرًا في مقهى سدوم مع مارتا فقط ، فأوغست مريض ومضطجع في الغرفة الصغيرة المجاورة للمقهى . كان ينز قد قرر أن يقوم بزيارة مفاجئة لغودومندر ، ساعي البريد الاحتياطي ، وكان في طريقه إلى بيت الرجل عندما عصفت الريح في وجه الفتى ودفعته بين ذراعيه . أراد الحصول على معلومات يمكن أن تحدث فرقًا حاسمًا في الجو السيئ عند قمة الجبل أو على معبر جبلي حرج ، ما المخاطر التي يمكن أن يواجه ، أي حافة قد تنبئه بدنو العواصف ، أي مزرعة لديها أفضل نصيحة ، ما الدروب التي يستحسن طرقها وأيها ينبغي تفاديها . لكن العالم الإنساني ليس منطقيًا أبدًا ، نادرًا ما يكون حصيفًا ، وغالبًا ما يفيض بشتى أصناف الشوائب . فينز يعلم أن ساعي البريد الاحتياطي يرتع في نعم سيغورد الكريمة ، وهذا كان كافيًا ليجعله يقرر في اللحظة الأخيرة أن يتحاشاه ويتجه مباشرة إلى مقهى سدوم . جلس هناك عند الجانب الآخر من مارتا ، راقبها تدخن ، راقبها وهي تقرأ كتابًا عن نابليون اقترضته من غيسلي ، راقبها تشرب الجعة . أحيانًا تهمل مارتا مظهرها كثيرًا ، وتبدو عديمة الإحساس تجاه الجوع الكامن في عيون الرجال -

إلا أنها في بعض الليالي تشبه الهدير. ثمل ينز، تحدث بإيجاز مع أوغست، سأله ما إذا في وسعه أن يستعير قاربه في الغد، وعندما جاء أربعة زبائن فرّ من الصحبة وغادر إلى بيت سنوري. جلس مدة طويلة مع التاجر، واحتسيا الكثير من المشروب هناك، أخيرًا ترنح قاصدًا دار غيرترود، وانبطح هناك مخمورًا تمامًا على أرضية الصالة. استغرقوا وقتًا طويلاً ليضعوه في الفراش. فهو أثقل من أن يحملوه لأنه على الأقل يزن مئة كيلوغرام، إلى جانب أن احتساء الخمر أنهك قواه. لكنهم تدبروا أمرهم في النهاية، وبعد إنجاز المهمة اتكأ كولبين على الحائط متقطع الأنفاس، يعييه الهرم والإرهاق. ليتنا نعرف فقط ماذا يسقم المرء. إننا لا نكاد نعرف ما الداعي إلى أن نسأل. لا نعرف إلا أن هناك ما يسقمنا، أننا لا نحيا كما يجدر بنا أن نحيا. وأن الموت ينتظرنا كلنا. حسنًا، سنأوي الآن إلى الفراش، قالت غيرترود.

يوقظ انبلاج الصبح الفتى.

ينحدر ضوء النهار إلى الهاوية المظلمة لجلبه. ينتصب في سريره ويطرف عينيه، كما لو أنه يتثبت من كونه ما زال حيًا، يمطط جسمه المرن الفتي، يمضي إلى النافذة، يزيح الستائر، يفتح النافذة، يخرج رأسه ليشطف منه الليل والأحلام شطفًا كاملاً، اليوم هادئ تقريبًا. اختفت الريح وتركت وراءها نسيمًا لطيفًا وفائق الرقة. يستمتع الفتى بنفحة النسيم الباردة على جلده العاري، يعبّ الصباح والضوء بعمق بقدر ما يستطيع، البيوت المواجهة له بيضاء بالثلج، والدنيا مسالمة. لعل الربيع قادم في النهاية؛ ولعله سيفلح في أن يلمّ شمل كل تلك الخلجان التي تحدّنا جنوبًا وينظِمها معًا في خيط، خلجان جدّ عميقة وخطرة، ويصل إلينا قبل أن ينال منه التعب. يميل الفتى وينظر إلى اليسار، البحر رمادي وبرئ المظهر ويبدو أن ليس هناك ما يثقل ضميره. يرتفع شاطئ فيترارسترند أبيض مثل جبل جليدي طالع

من البحر الرمادي . وفي مسكن الطبيب نافذتان مشرعتان ، البريد الذي أحضره ينز صُنّف بلا شك ، ووضع في أكياس ليسلّم إلى المناطق الريفية المحيطة ، مهمة يُكلف بها نواب سعاة البريد ، وهؤلاء خمسة سعاة ويسلكون دروبًا صعبة مختلفة . ببطء ينظر الفتى يمينًا ويرى أولافيا تشق طريقها عبر الثلج نحو الدار . يغلق النافذة ، يلبس بعجالة ، يندفع نازلاً إلى الطابق الأرضي وينجح في فتح الباب قبل أن تقرعه أولافيا . يتلقى في المقابل ابتسامة منها ، والحياة يمكن بالتأكيد أن تكون جميلة ، ما علينا إلا أن نعرف كيف نتقبلها .

يصل برينولفر حوالي الساعة التاسعة . ستبحر الأمل اليوم . سفينة سنوري التي يدعوها بعض الناس خيبة الأمل . مضى وقت طويل منذ أن جُهزت للمغادرة لكن العاصفة أخّرتها ، توارت عنا الدنيا أسبوعًا كاملاً ، استولى عليها الجو الكئيب ولم يُعدها إلا في هذا الصباح ، صباح ناصع البياض ونقي ، والنسيم يمر بين البيوت كأنه رسالة اعتذار . هدف برينولفر أن يودع زوجته من ناحية ، وأن يدعو الفتى من ناحية أخرى ليشهد عملية الانطلاق . الفتيان ، يقول موضحًا ، وهو يعني بالفتيان الطاقم ، فريق من عشرة رجال عتاة لوحتهم الريح ، معظمهم في الستين من العمر ، وجوههم مثل صخور عتيقة ، وكلامهم كملح من البحر ، الفتيان ، في الحقيقة ، وأنا أيضًا ، سيغمرنا شعور أفضل إذا شهدت الانطلاق ، يقول برينولفر ، وفي تلك اللحظة تحطّ عيناه على زوجته في الرواق ، فيصمت ولا يدري ما يجدر به قوله . هذه أنتِ ، يهتف أخيرًا فتومئ برأسها ، بينهما هاوية عميقة حتّها الإحباط ومعاقرة الخمر ، وقسوة الوجود اليومي الغامضة ، يقف كل منهما على شفير الهاوية ويتبادلان النظر عينًا بعين . وهكذا سنبحر أخيرًا ، يفلح في أن يقول . كُن حذرًا ، تجيب وتعني ما تقوله .

كُن حذرًا .

كلمتان تسقطان مثل الفضة في الهاوية التي تفصلهما بعد أن تختلجا عدة لحظات بين الحافتين ، وعندما يتردّد ، مرتابًا في أهميتهما ، تبهت الفضة ، تتناثر في الأعماق وتختفي .

يذهب الفتى ويحضر معطفه ، لا يستأذن هيلغا حتى على الرغم من أنه يغادر في منتصف وقت العمل ، لا أحد يتردد أمام مسألة كهذه ، الرفض قد يثير قلق البحارة ، بل قد يثير الجزع من أن هناك شيئًا مظلمًا ونحسًا بانتظارهم في البحر ؛ عدم الحصول على صيد ، وحوادث وموت . بحّار بمثل هذا الشكّ أو الخوف في دمه سرعان ما يستسلم إلى فورة البحر والسماء ، وذاك الاستسلام يمكن أن يجلب الموت للسفينة بأكملها ؛ وأولئك الذين يعيشون عند آخر الدنيا يسقطون كالذباب إذا لم يتآزروا معًا . تكتفي هيلغا بإحضار بعض المال ، وتطلب من الفتى أن يتوقف عند متجر تريجفي في طريق عودته ، ليجلب هذا وذاك من النثريات ، وبعدها يمضيان خارجًا إلى أحضان الصباح الرائق .

بعد ساعة تتهادى سفينة الأمل ببطء ميممة عرض البحر ، ثم لا تلبث أن تبدأ في الارتفاع عاليًا والهبوط عميقًا كلما أمعنت في التوغل ؛ البحر مضطرب بعد عواصف الأيام السابقة ، وهو بطيء في استعادة رزانته ، وقد خزّن تقلبات الجو في باطنه مثل ذكرى . يسير الفتى عائدًا إلى البلدة بلا استعجال ؛ اللسان الساحلي طويل ويضيق بينما يقترب المرء من البلدة ، ثم يتسع ثانية ، تحت الثلج تنتظر الحجارة شروق شمس الصيف وسمك القد ، وهذا ما نفعله نحن أيضًا في الحقيقة . يمرّ ببيت الوكيل حيث يسكن أمين خزنة متجر تريجفي ، يتريث ، ينظر حواليه ، يتأمل الجبال والبيوت والغيوم الثقيلة ، يفضل دائمًا أن يكون وحده على أن يكون بين الآخرين ، أو هكذا جرى الأمر منذ أن غرق أبوه وتشتت شمل العائلة ؛ غرق في قلب الظلام ،

في إمبراطورية البحر المالح ؛ بعينيه اللامعتين ، بيديه وحضوره الذي جعل كل شيء أسهل ، بشعره الأحمر وكلماته غير المنطوقة كلها ، بالحب يملأ قلبه ، تلك القوة المدهشة التي يمكن أن تغيّر العالم بسهولة ، والتي لا طائل منها مطلقًا عندما يصارع المرء أمواج المحيط في الظلام والعاصفة ، يصارع والوحدة الرهيبة تضنيه . أيمكن أن يستدعيه شيء من القاع ، أيطلق البحر في يوم سراح أولئك الذين اختطفهم مرة؟ يدخل متجر تريجفي وتبدأ دقات قلبه في التسارع كما لو أنه لم يفتقد أحدًا قط ، كما لو أن أحدًا لم يغرق ، لم يمت ، لم يتجمد حتى الموت . لماذا لا يمنحه الأسى ، واللهفة الموجعة على أولئك الذين لن يعودوا مطلقًا أي كرامة أو جسارة تجاه الحياة؟ راغينهيلد تتحدث مع امرأة طويلة وعريضة نوعًا ما ، هي لوفيزا ، عمتها وزوجة مدير منطقة لاروس ؛ وموظفو المتجر والزبائن ملتزمون بالوقوف عند حدود مسافة مناسبة . لوفيزا تتكلم بصوت عالٍ ، كما يفعل أولئك الذين لا يملكون سببًا ليخفضوا أصواتهم ، تشتكي من الجو ، وكيف أن بضع سفن فقط جاءت إلى الآن هذا الربيع ، إذا صحّ أن يُسمى ربيعًا . وهي محقّة ، أيمكن أن نتحدث عن الربيع بينما الأرض صامتة تحت الثلج ، بينما يصقل الصقيع السماء فتصبح أشدّ زرقة وبرودة فوق الغيوم؟ وصحيح أيضًا أن بضع سفن فقط جاءت ، الرياح العدائية هبّت مدة طويلة ، والسفن دُفعت هنا وهناك في البحر المديد ، بعضها غرق وبعضها سعى إلى ملجأ في خلجان بعيدة ، السفن البخارية فقط نجحت في الوصول إلى هنا بلا عوائق مفرطة ، وآخرها رست هنا قبل أسبوع ، دعاماتها مدججة بالملح ، لا سمك قدّ بلا ملح ، ولا حياة بلا سمك قدّ ، أو في أحسن الأحوال هي نصف حياة فقط . توقّفت الباخرة بضعة أيام فقط ، لازم ربانها الفندق طوال الوقت ، وشرب الخمور بأنواعها مع غيسلي ؛ ونحن نعرف هذا الربان الجلف صاحب الحاجبين الكثيفين ، ونعرف أنه في جميع الأحوال قد داوم على الإبحار إلى هنا عشرين سنة ،

أولاً بسفينة عادية والآن بسفينة بخارية ، ويمكن رؤية دخانها الأسود من مسافة جيدة . كما لو أن الجحيم في طريقها إلى أخذنا ، هذا ما قاله غيسلي لثورفالدر عندما التقيا صدفة على مقربة من الكنيسة ، وشاهدا الدخان الأسود يتصاعد من السفينة بينما هي تشق طريقها عبر الأمواج . أنا أتوب ، على عكسك ، وبالتالي ما أخافه قليل ، أجاب القسّ ثورفالدر شقيقه بجفاء . أحضر الربان هدايا بسيطة لأفراد العوائل البارزة ؛ شكولاتة وروايتين للوفيزا وأختها ، دبوس زينة أحمر لراغينهيلد ، ومسدسًا أمريكيًا لفريدريك ، أما غيسلي فتسلم كتاب شعر بغلاف أحمر مزخرف بالذهب . كتب من مات من الشعراء فقط تنشر هكذا ، تمتم غيسلي وهو يشير إلى الكتاب بإصبعه ، والربان سأله ماذا؟ الشعراء الموتى فقط تُذهّب كتبهم ، شرح غيسلي ، حينها أخرج الربان كتابًا آخر ، أنت محقّ على الأرجح ، قال ، لكن هذا أيضًا لا يفتقر إلى الزخرفة الذهبية بالتأكيد! قلّب غيسلي صفحات الكتاب ، مجلد مكتظّ بالصور وله غلاف أزرق جميل . آمل ألا يَكُنَّ باردات ، غمغم وهو يلقي نظرة سريعة على عدة صور لنساء نصف عاريات .

يتولى أحد الموظفين مشتريات الفتى الذي يئس من انتظار راغينهيلد ، ولا ينوي هدر مزيد من الوقت في المتجر . ينهي الموظف بسرعة طلباته فيسارع خارجًا ، بالأحرى يلوذ إلى حدّ ما بالفرار . كتفان جُبلتا من ضوء القمر ، نعم ، لكن القمر مغرق في البعد ، وسطحه موحش بالتأكيد ، وهي ابنة فريدريك ، ابنة السلطات الكائنة ، لا شيء جيد يمكن أن يأتي من هناك ، يفكر ، مستغرقًا كل الاستغراق في طردها من ذهنه ومتبرئًا من ضوء القمر بحيث لا يسمع الخطوات خلفه ، ويباغت إذ يشعر أن كتفه تُمسك بقوة . كان يفترض أن تنتظر ، تقول محتدة من بين أنفاسها المتقطعة . لم أعرف ذلك ، يغمغم ، شاعرًا فورًا بالضعف ، وبقلبه يخفق سريعًا بإلحاح ،

ويخبط قفصه الصدري . يقفان وجهًا لوجه ، تفصلهما مسافة أقلّ من ذراع ، يستمع إلى دمه . قابلتَ غيسلي إذاً ، تقول .

هو : نعم .

هي : إنه رفيع الثقافة .

هو : نعم .

هي : وسكير أيضًا وضعيف الإرادة . ذلك لأن الكثير من الشِّعر يصيب الناس بالليونة ، يجعلهم غير أكفاء . هذا ما يقوله أبي وأنت تعرف من هو .

هو : الشعر عالم وراء العالم . وهو جميل .

هي : غيسلي لا يفعل إلا ما يُملى عليه . أنت ببساطة لا تعرف شيئًا عنه ، وأنت ببساطة لا تعرف شيئًا عما هو مهم ، لا فكرة لديك عما يمكن أن يكون . وأنت لا تعرف ما هو ضروري .

هو : الكتابة أفضل من سمك القدّ . وهي أيضًا أفضل من سفينة بخارية .

هي : يقول أبي إن أناسًا مثلك لا أمل فيهم . تتحولون إلى بؤساء وتموتون جوعًا إذا لم يساعدكم أحد .

ترتعش قليلاً ؛ الهواء بارد وهي لا ترتدي إلا سترة خفيفة فوق ثوبها . دبوس الزينة الأحمر يلمع . الشِّعر يمكن أن يكون خطرًا أيضًا ، يقول ، ربما بسبب ارتعاشها ، ربما لأن ذهنه ينتقل إلى شعر مميت وإلى كلمات الحياة الأخيرة هناك في البحر ، على متن تابوت . لا شيء حلو في نظري بدونك . إلا أنها تمعن في الاقتراب منه حتى بدا كما لو أنها قد تعانقه ، وهذا ما لا تفعله طبعًا . هذا الصيف ، تقول ، سأمتطي حصانًا في شروق الشمس . فيسألها ، حينها ماذا أكون ، الحصان أو شروق الشمس؟ لسنا في الصيف بعد ، تجيب ، بل ولا حتى في الربيع .

هيلغا منهمكة في قصّ أظافر كولبين عندما يدخل الفتى المطبخ ، هي نفسها جاءت توًّا من الخارج ، بشرتها ما تزال متورّدة من البرد . يدا الربان ممدودتان بعيدًا عنه ، كأنه يحاول التبرؤ منهما ؛ أسارت عملية الانطلاق جيدًا؟ يسأل . نعم ، مع أن السفينة مالت قليلاً بعد تجاوز الميناء . البحر يحتفظ بالجو في باطنه مدة طويلة ، يقول الشيخ . نعم ، يجيب الفتى .

كولبين : لا شيء هناك يضاهي البحر .

هيلغا : أنت تفتقده .

كولبين : أفتقده ؛ لا أدري عن هذا . أيمكن افتقاد الدنيا؟ لا أكاد أعتقد ذلك .

هيلغا : ما يمكن أن يفتقد المرء إذًا؟

كولبين : اللعنة لو كنت أعرف . ماذا تظنينني؟ ألا تفتقدين صحبة رجل؟

هيلغا : أنت هنا .

كولبين : تعرفين ما أعني .

هيلغا : علي التعامل مع هذا بيني وبين نفسي .

كولبين : لا بأس إذًا ، أما أنا فلا أفتقد شيئًا .

الفتى : ولا بصرك حتى؟

يلوي كولبين رأسه بعنف كما لو أنه يفعل ذلك من نفاد الصبر أو الشعور بحكاك ؛ سيكون من الجيد أن أحظى بفرصة للقراءة بين حين وآخر ، وأن أرى البحر ، إنما حينها سأرغم على رؤية الحياة أيضًا . بيد أنني أودّ أن أبحر مرة أخرى أخيرة .

يُستدعى الفتى إلى الصالة . هناك تجلس غيرترود إلى الطاولة الكبيرة المتينة وثمة لفافة تبغ بين أصابع يدها اليسرى ، اليد التي تستريح على

جبهتها ، شعرها مرفوع إنما على عجالة كما يظهر ، عدة خصلات طويلة منه بقيت متدلية بحرية ، ومتموجة مثل قصاصات من ليل دامس على جيدها الأبيض . ترفع رأسها للحظة عندما يدخل ، ثم تتابع قراءة التايمز البرلمانية ، ساكنة إلا عندما تدني لفافتها ببطء من شفتيها الحمراوين ، «ضفتا الفم المشبعتان بالدم» ، وتعبُّ اللذة . يجب أن تقرأ التايمز البرلمانية تقول . لا أستطيع ، يجيب بصراحة ، هي كما لو أنها مكتوبة بلغة أخرى . تنظر إليه ، بكل ذلك النمش ، تدخن لفافتها التي تهسهس شعلتها بهدوء ثم تتراجع صعودًا . تبدو بشرة غيرترود ناعمة حول شفتيها المحتقنتين بالدم ، لكن التجاعيد تمتد من زاويتي عينيها وتزداد عمقًا بينما هي تمعن النظر . نعم ، لكنها لغة السلطة وعلي أن أستوعبها جيدًا إن أردت البقاء حية ، تقول وتعود الخشونة إلى صوتها ؛ نعيق الغراب . أأحتاج إلى فهمها؟ يسأل وهو ينظر إلى غيرترود كأنه يطلب الإذن لإعفائه من القيام بذلك ، فترجع إلى الوراء وتتكئ على مقعدها ، تطفئ لفافتها نصف المنتهية ، ترفع ذراعيها ، تعبث بشعرها ؛ فقط إن شئت ، السلطة تعود إلى الرجال ، وأنت رجل على الرغم من كل شيء ، مع أن الملائكية التي فيك أكثر من ذكورتك . أنا لست ملائكيًا على الإطلاق . أنا أتكلم بالمجاز . وماذا عن كولبين؟ قليل ما رآه إلى أن فقد بصره . أأحتاج إلى اقتلاع عيني حتى أرى؟ تلك ستكون بداية جيدة . هل أنت حزينة؟ يسألها الفتى بدون تفكير . تسند غيرترود مرفقها على الطاولة وتريح ذقنها الدقيقة على ظاهر يدها . ما الحزن؟ تقول ، عُشِقت مرتين ، أذاك كثير؟ أيمكن أن نضيف إلى هذا عدد القبل أو عدد الخيانات ، والأوقات التي يشعر فيها المرء أن شيئًا ما يمكن أن يكون سعادة؟ سبعة آلاف قبلة ، ثنتا عشرة لحظة سعيدة ؛ أيعتبر شيء كهذا غالب التكرار أو نادرًا ، وما هي السعادة وما هي القُبل؟ يمكن أن تُقبّل إحداهن ألف مرة ومع ذلك لا تكون قد قُبّلت أبدًا . أحيانا أفكر أن البشر محكوم عليهم بالحزن .

للسعادة وجود ، يقول بعناد مثل طفل . يتناهى إليهما صوت هيلغا ؛ لا تعر ما أقوله الكثير من الاهتمام ، تسارع غيرترود إلى القول ، الدنيا أكثر تعقيدًا من رأي شخص واحد . غونهيلد ويون النجار سعيدان بابنهما ، بلمحة خاطفة لا نرى أن هناك سببًا معينًا لسعادتهما ، مع ذلك ، بنظرة واحدة ممعنة عليهما يتبدى لنا كما لو أن الحزن كله يصبح مجرد سوء فهم . نعم ، للسعادة وجود حتمًا ، أليس هذا صحيحًا؟ توجّه سؤالها إلى هيلغا التي تدخل حاملة صينية كبيرة عليها قهوة وخبز ، وكولبين في أعقابها ، يدعم جسمه بعصاه التي يأتمنها على وزنه ؛ أن يأتمن المرء شيئًا بلا حياة أسهل من أن يأتمن شخصًا حيًا ، وهو لا يضطر إلى بذل جهد كبير ليقوم بذلك . ما هو الصحيح؟ تستفسر هيلغا وهي تضع الصينية على أكبر طاولة قبل أن تشرع في نقل الأكواب إلى الطاولة الأصغر في الصالة الداخلية . أننا لسنا محكومين بالحزن ، تجيب غيرترود . كل فرد هو الحكم على نفسه ، تقول هيلغا ؛ أفاتحته بالموضوع؟

غيرترود : كنا نتحدث بدون توقّف .

نعم؟ تقول هيلغا بينما تنقل الخبز إلى الطاولة الأخرى .

غيرترود : عن القُبل والحزن ولغة السلطة .

هيلغا : إذًا لندخل في صلب الموضوع الذي بين أيدينا .

انتقلوا إلى الصالة الداخلية ، أخذوا أماكنهم حول الطاولة الداكنة ، حيث يجلسون في المساء ويقرأ لهم الفتى ، وحيث الطاولة بعيدة قليلاً عن النوافذ ، بعيدة قليلاً عن العالم . كنا نفكّر في مباشرة تعليمك اليوم ، تبدأ هيلغا ؛ ذهبت هذا الصباح وتكلمت مع هولدا وغيسلي ، تقرّر أن تأتي هولدا بعد ظهر اليوم لتعلمك الإنجليزية ، ويأتي هو غدًا ليبدأ دروسه في التاريخ واللغة الأيسلندية والأدب . وأنا بالتالي أعطيك بعض قواعد الرياضيات ، طالما يمكنني أن أفعل ، أيناسبك هذا؟ جيد ، سُوي الأمر إذًا ، تقول بعد أن

تصدر عنه إيماءة موافقة ؛ فلا شيء آخر هناك يمكنه القيام به في هذه المرحلة .

*

أسف أبيك الوحيد ، تقول إحدى الرسائل من أمه ، وبعض تلك الرسائل أصبحت الآن مهترئة من القراءة بحيث يجب عليه أن يبدأ في كتابة نسخ لها ، وإلا فإن رسائل الماضي المهمة هذه ستُفقد . أسف أبيك الوحيد ، وربما أسفي أنا أيضًا كان الافتقار إلى التعليم ، مع أن فرصي بصفتي امرأة قليلة طبعًا أو هي معدومة في تحصيل علم جدير بتسميته كذلك . عندما كان أبوك في الثانية عشرة من العمر ، بدا كما لو أن حلمه يتحقق إلى حدّ ما . تطوع قسّ الأبرشية أن يأخذه تلميذًا لديه على مدى سنتين ، أو أكثر إذا أهّله أداؤه لذلك . قبل يومين من مغادرة أبيك الذي قضى مدة طويلة يجمع ما أراد أخذه معه وما سُمح له بأخذه ، مجهزًا كل ذلك في حزمة يمكنه تأبطها بسهولة ؛ وهو لا يكاد ينام من الترقب ، سقط جدك من على حصانه . كان عائدًا إلى البيت من البلدة ، ذلك المسكين ، المخمور حتى الثمالة كما درج أن يفعل أحيانًا . جفل الحصان . سقط جدك عنه وما عاد يستطيع الوقوف على قدميه ثانية قطّ . بقي عاجزًا مستلقيًا في السرير لأكثر من سنة ، ثم مات . كان أبوك أكبر أشقائه ، وبالكاد تدبر أمر العائلة بعد التضحية بتلقيه العلم طبعًا ليبقي العائلة متماسكة إلى أن ماتت جدّتك ، عندما بلغ أبوك العشرين من العمر كانت العائلة غارقة في الديون ، وكان أكبر سنًا من أن يلتحق بالمدرسة . معاقرة الخمر حرمتني من تلقي العلم ، اعتاد أن يقول . الكحول خطر لعين ، هذا صحيح ، ويجب أن تحذر منه ، لكن لولاه لما التقينا أنا وأبوك . تُرى أي حياة كانت بانتظارنا لو لم يحدث ذلك؟ أحببت أباك حبًا يستعصي على الوصف ، أحببته أكثر من الحياة ، وكنا ننوي التأكد من

أنكم جميعًا ، أنتما وليليا طبعًا ستتعلمون حتى لو أن ذلك سيوقعنا في براثن الإفلاس .

هكذا هي الحياة :

حصان يجفل ، وبسببه يولد هو .

هناك تعديلات ثانوية على هذه الخطط ، تقول هيلغا ، كأنها تتكلم من مسافة بعيدة . تعديلات؟ يسأل الفتى بفزع ، بانفعال جلي . نعم ، تعديلات ، أو بالأحرى تأخير ؛ الفتى سيرسل في رحلة ، خارج البلدة إلى آخر تخوم الدنيا . حيث تنتهي حدود آيسلندا ويبدأ الشتاء الأبدي . جاء سنوري في وقت مبكر باحثًا عن ينز الذي قضى المساء السابق مع التاجر بعد ارتياده مقهى سدوم . ماذا لديه في سدوم؟ كانت هيلغا قد استفسرت . مثلما يريد أي شخص آخر على الأرجح ، أجابت غيرترود . نعم ، وافقها سنوري ، ولكن أيضًا ليسأل عن القارب وعن أوغست ليجدف به في فيترارسترند . لسبب ما أقنع سيغورد ينز بالذهاب إلى هناك ، بل حتى أبعد شمالاً ، ليسلم البريد ، أو ربما خدعه ليفعل ذلك . خدعه؟ يسأل الفتى . نعم ، أفترض أنه فعل ذلك لينال منه ، تقول غيرترود .

هيلغا : أأنت متأكدة من أن هذه هي المسألة .

كولبين : سيغورد وحش ، مثل جميع تلك الشخصيات البارزة . وإلا ما كانوا ليقبلوه نسيبًا لهم .

هيلغا : لا داعي إلى اعتقاد الأسوأ بخصوص الناس دائمًا .

غيرترود : لكن من الصعب تفادي هذا في أغلب الأحيان . قد يكون العالم جيدًا فعلاً ، إنما البشر ليسوا كذلك .

لكن لماذا يجب أن أذهب معه؟ يسأل الفتى . يخاف ينز من البحر ،

تقول هيلغا ، لن ينجح أبدًا في عبور المحيط بالقارب وحده ، قد يجنّ من الخوف ، ذاك الرجل الضخم القوي . ثم عليه أن يجتاز دمبسفيردر أيضًا . يحتاج إلى شخص معه يجدف به ، ويحافظ على مسافة لائقة بينهما خلال الرحلة ، وأخيرًا وليس آخرًا ، لا يقلل من شأن خوف ينز من البحر . أنت تعرف البحر ، ويمكنك أن تسير لمسافات . متى نغادر؟ في أسرع وقت ، تقول هيلغا وهي تميل جانبًا لتنظر من النافذة ، السماء ما زالت ملبدة بالغيوم . تغادران قبل أن يعاود الثلج تساقطه من جديد ، وربما يتساقط مصحوبًا بالعواصف . هل حدثتِه بهذا الشأن ، أعني بخصوص مرافقتي له؟ يستفسر الفتى . لا ، تقول هيلغا . هل سيوافق؟ يسأل بنبرة شك . فتجيب غيرترود ، هذا لا يعود إليه . الناس لا يبتعدون كثيرًا وهم نائمون ، ينبغي أن يوقظه أحد الآن . بيد أنهم ما لبثوا أن سمعوا خبطة من الأعلى حيث يجاهد ينز متعثرًا على أرضية غرفته .

حلم أن شيئًا مظلمًا يدفعه من فوق حافة منحدر ؛ قاوم كثيرًا وبشدة ، لكن قوته خانته في النهاية . بدأ يسقط في الأعماق السوداء الخاوية وسمع هدير البحر آتيًا من الأسفل ؛ يسقط وعندئذ يستيقظ على الأرضية . يتلفت حواليه ، مذهولاً من الزرقة المحيطة به ، يذعر للحظة ؛ أأنا في قاع البحر ، يفكر ، هل غرقت؟ إلا أن ذلك ليس موت البحر الأزرق ، بل ضوء السماء المبارك ، إن التمييز بينهما يمكن أن يكون على هذه الدرجة من الصعوبة .

وهذه بالتالي طبيعة الأمور : الفاصل بين الحياة والموت صغير جدًا بحيث يمكن أن يلتئم الاثنان في كلمة واحدة . ولذلك يجب على المرء أن يكون أبدًا حذرًا مع الكلمات ؛ فإحداها على أقل تقدير تتضمن الموت .

لا طمأنينة يجلبها الموت

بدأ ذلك كلّه بالموت ؛ ومن الصعب بمكان الارتداد إلى ما قبله . يمكن أن تكون السماء أعمق زرقة من كل ما هو أزرق ، ونحن كنا على قناعة بأن الموت سينقلنا أخيرًا إلى هناك ، بيد أن السنين مرت ولم نصل إلى أي مكان ، ما زلنا على حالنا ملتحقين بالبلدة . متنا ، وبدلاً من أن نرحل ، حوصرنا بين الحياة والموت مثل ذباب عالق في حاجز فاصل ، و إذا أصغيتم في وسعكم ربما أن تسمعوا أزيزًا خافتًا .

لا طمأنينة يجلبها الموت ؛ ولو أن شيئًا كهذا له وجود ، ستعثرون عليه في الحياة . مع ذلك لا شيء يستهان به كما يستهان بالحياة . تلعنون أيام الاثنين ، والعواصف الماطرة ، وجيرانكم ؛ تلعنون أيام الثلاثاء والعمل والشتاء ، لكن هذا كله سيختفي في غضون ثانية ، تنقلب جزالة الحياة وتتحول إلى لا شيء ، تحل محلها فاقة الموت . وفي اليقظة وفي النوم ستفكرون في الأمور الصغيرة الكائنة على مسافة بعيدة من الجوهر . ما المدة التي يعيشها المرء على أي حال ؛ ما عدد اللحظات الصافية التي يختبرها ، كم مرة يحيا مشحونًا بطاقة كهربائية وينير السماء؟ يغرد الطائر ، تقلّب دودة الأرض التربة كي لا تختنق الحياة ، أما أنتم فتلعنون أيام الاثنين ، وتلعنون أيام الثلاثاء ، وتتضاءل فرصكم وتتبقع الفضة داخلكم .

متنا ، أو ببساطة امتنعنا عن أن نكون أحياء ؛ تحولنا إلى أطياف غير

مرئية ، وعظامنا تفتتت في التربة . السنون مرت ، والعقود مرت ، ولا أحد على وعي بنا . والغربان لا تلاحظ شيئًا ؛ سوداء تخفق بأجنحتها وتمر عبرنا ناعقة من غير أن تعرف ذلك ؛ ليس ممتعًا في شيء أن يخترقكم طائر أسود ضخم ويطير خلالكم ، من غير أن يخلف وراءه إلا نعيقًا غليظًا . نحن شذوذ عن القاعدة ، نحن سوء فهم ، ذباب عالق بين العوالم . في بادئ الأمر سعينا إلى الترويح عن أنفسنا بالمرارة ؛ ليس هناك الكثير مما يغذي المرء كما تفعل المرارة ؛ تغذي وتقضم وتطحن ، وسعينا إلى مواساة أنفسنا بالاستمتاع بشقاء حياتكم ، بالأخطاء وهدر الفرص ، بهزائمكم الأبدية في وجه الشهوة . في وجه المرارة والضغينة . وهل هناك شيء آخر إلى جانب هاتين الأختين في بصاق الشيطان؟ في يوم ما ، سنروي لكم ما جرى ، كيف استطعنا غسل البصاق ، سنخبركم عن اللحظة التي انفرج فيها ما يشبه الشقّ بيننا وبينكم . هذه ربما مجرد هلوسة ، لكن من خلال ذلك الشق نهمس لكم بالقصائد والحكايات ، بالبهجة والقنوط ، بالأمل واليأس .

الرحلة :

إذا كان الشيطان قد ابتدع أي شيء في هذا العالم ،

إلى جانب المال ، فهو

الثلج المدوّم في الجبال

١

نادرًا ما تكفي الكلمات لوصف الريح هنا . أحضر ينز والفتى مجرفة من عند مارتا ؛ وهما يجرفان الثلج من القارب والريح تعصف بهما . هناك ريح شمالية وكل شيء أبيض ، بل حتى البحر يبدو أبيض ، كل شيء ما عدا جروف الجبال الصخرية والكآبة في عيني ينز . هما صامتان وحقائب البريد الثلاث مستقرة على الثلج ، كل واحدة منها تزن عشرين كيلو تقريبًا ، معظم ما فيها صحف ، والتايمز البرلمانية وبضع رسائل . زودتهما هيلغا بمؤونة جيدة ؛ أنت مسؤول عنه ، قالت لينز ، ولذلك خذ أحوال الجو بعين الاعتبار ، لا تتهور وتندفع نحو أي شيء مهما كان . جلس ينز متجهمًا أمام عصيدته ، لا تُسحب منه كلمة إلا بصعوبة ، قال القليل عندما أُعلِم أن الفتى سيرافقه ، اكتفى بهزّ رأسه ، وبهذه الإيماءة سُويت المسألة .

الثلج متكوّم على القارب ، وهما يجرفان . ومارتا تقف بين البيت والقارب وتراقب . ربما تواجهان جوًا معتدلاً ، كانت هيلغا قد قالت وهما يلبسان في المدخل ؛ سراويل صوفية وجلدية ، وزوجين من البلوزات السميكة ، ينز يرتدي سترة ثقيلة تقي من الرياح ، والفتى بسترة جلدية ، وزوج من الجوارب الصوفية وجزمة جديدة من متجر تريجفي . يفتح ينز الباب على نسمة لطيفة وعلى غيوم بلون رمادي فاتح وغير مؤذية على ما يبدو . خرج كولبين إلى الشرفة المسقوفة واستنشق الهواء ؛ جوّ حسن ، لا أكاد أجزم بذلك ، قال وعاد إلى الداخل ، حاوِل فقط أن تعود ليتسنى لك أن تنهي قراءة عطيل ، قال للفتى . بدأت الريح تعلن عن حضورها قبل أن

يصلا إلى الشارع التالي، كما لو أنها كمنت تنتظرهما، وغدا هبوبها شديدًا وقتما بلغا مقهى سدوم. يجرفان، ويتصلّب وجه الفتى فورًا، بينما يتصرف ينز كما لو أن كل شيء طبيعي، لعل البرد لا يلسعه وقد صلدته السنين والأنواء والتجارب التي لا تحصى. يشمخ جبل كيركوفل نحو السماء على الطرف الآخر من القناة المسماة رينان؛ يمكن أن يكون ظل الجبل ثقيلاً وخانقًا هنا. فالجبل يبلغ ارتفاعه ثلاثة كيلومترات تقريبًا؛ ولن يلبثا أن يخلفاه وراءهما عندما يجدفان حوله ويخرجان إلى عرض البحر المكشوف، إلى ذلك الخليج الواسع.

تراجعت مارتا نحو مسافة أقرب من البيت، حيث الريح أخفّ وطأة؛ تشعر بالبرد على الرغم من أنها متدثرة بالمعطف السميك الذي حصلت عليه من بحار أجنبي في الخريف الماضي. ينهيان جرف الثلج من القارب، لكن تحريره يتطلب وقتًا وقد تجمد وتثبت بالأرض كأنه لا يريد المغادرة. هذا ماعدا أنه ليس قاربًا بقدر ما هو زورق تجديف، يباغَت الفتى قليلاً عندما يرى كم هو صغير. يلقي ينز حقائب البريد فيه، والبوق البريدي معلّق حول رقبته في كيس جلدي؛ يعتدلان في وقفتهما وينظران نحو فيترارسترند، يعاينان ما تربو مسافته على خمسة عشر كيلومترًا من البحر. الشاطىء مكلل بالبياض؛ والغيوم الرمادية الثقيلة تستقر فوقه، وعلى مسافة أبعد يريان دمبسفيردر شبه ملتحم بالمدى وضوء الشمس الشاحب. يتنحنح الفتى ويقول حسنًا، لأن حسنًا في الواقع كلمة جيدة، فهي شاملة ويمكن أن تقصر المسافة بشكل ملحوظ بين الأفراد، بيد أن ينز يتصرف كما لو أنه لم يسمعها، فتتهاوى هذه الكلمة التي من الدرجة الأولى وتسقط أرضًا ميتة. يتظاهر ينز عمومًا بأنه لا يرى الفتى؛ أمامنا رحلة رائعة، يفكّر الفتى بمرارة، ويدفع ينز زورق التجديف ببطء نحو البحر؛ فيقلع على الثلج ثم يحطّ في الماء.

يا . .! مهلاً!

ينظران نحو مصدر الصوت وتلتفت مارتا . يرون غيسلي في طريقه إليهم من الحي القديم ؛ يشق طريقه خلال الثلج وهو يلهث بشدة بحيث يمكن سماع لهاثه من مسافة بعيدة . يصيح ، يلوح بيده حاملاً رزمة ضمتها يده الأخرى إلى صدره بقوة . ينخر ينز مثل كبش نزق . تنتظرني أيام واعدة حقًا ، يفكر الفتى وعيناه تراقبان غيسلي يتقدم ، ذاك القادم هو تجسيد الشعر والثقافة ، يلهث غيسلي ويدفع طريقه عبر الثلج بوجه أحمر . يتوقف إلى جانبهما ، ظننتُ ، يبدأ ، ثم يعجز عن قول المزيد مع أنفاسه المتقطعة ، يبتلع الهواء فاغر الفم ، يكح ويسقط على ركبتيه من شدة السعال ، يرفع يدًا كأنه ينوي أن يقول ، انتظرا لحظة ، وهذا ما يفعلانه . تنضم إليهم مارتا ؛ أنتَ لا تنازع ، أليس كذلك؟ تسأله ، فيهز غيسلي رأسه ، لا . . . لست أنازع . . . تحت السماء العارية . . . أبدًا . . . أمر مستبعد . . . وساعديني على النهوض ، أنت خطيئتي ومُخلّصي ، يقول ، فترفع مارتا مدير المدرسة وتوقفه على قدميه . ظننت أنني لن ألحق بكما ، يقول بعد أن استعاد أنفاسه ووقف منتصب القامة . سمعت من الصغار أنكما بصدد أخذ البريد ، فتركت الدرس وأسرعت إليكما . وجد الأطفال متعة كبيرة في مشاهدة سكير متهالك يندفع مثل مجنون في الثلج ، بل حتى وقعت مرتين لأمعن في تسليتهم ، نعم ، يتحمل المرء مسؤولية هذه الأرواح اليانعة . أتعرف كيارتان الفرنسي في فييك؟ يتابع سائلاً ينز الذي يكتفي بهزّ كتفيه . حسنًا ، ماذا في ذلك ، أنت تميز القسّ حالما تلمح واحدًا ، وهذه الصفحات هنا له ، توليفة من الجنة والجحيم ، على أمل أن تحرسا الرزمة بحياتكما . يمدّ غيسلي الرزمة ، يتقدم ينز ليأخذها ، وهذا أجرك ، يضيف غيسلي وهو يناول ساعي البريد قارورة نحيلة فضية اللون ، هو صديقي المقرب على مدى سنوات عديدة ، وأحيانًا يضطر الأصدقاء إلى الافتراق ، وهذا أسى الحياة . لا يعلق

ينز بشيء على ذلك، يكتفي بأخذ القارورة ويدسّها داخل سترته الواقية. وعلى نحو غير متوقّع بينما هما يستعدان إلى دفع الزورق تقول مارتا: كونا حذرين، وتخلع قبعتها لحظة كأنها تشدد على كلماتها. يتطاير شعرها الأسود أمام وجهها بقسماته الحادة وعينيها الداكنتين الماثلتين بعض الشيء، فيترددان معًا، كأنهما يرومان تأمل هذا الدفء المفاجئ في الحياة، أو ليحتفيا به، وربما يدفناه في جذور قلبيهما ليحافظا على الحرارة في البرد الذي يتجهان إليه. بعدئذٍ يمسكان في وقت واحد حافة الزورق العليا، فينزلق بسلاسة في البحر بحيث كادا يطيحان فيه. يتقدمان بروية حتى لا يقلبا الزورق، يجلس الفتى على مقعد المجداف الخلفي، وينز على المقعد الأمامي، يحدث الأمر تلقائيًا، والفتى أسرع من ينز في تولي أمر مجدافيه، ثابت اليدين، لكن ينز تعوزه المرونة، فهو ساعي بريد وليس بحارًا، مع ذلك تبدأ الرحلة والمجاديف الأربعة في الماء، وهما ينحنيان إلى الأمام ويميلان إلى الوراء؛ يشعران بالبحر تحت أقدامهما، والزروق يزحف معاكسًا الريح. يتحركان ببطء بعيدًا عن اليابسة؛ غيسلي ومارتا واقفان جنبًا إلى جنب يراقبانهما. يرفع ينز رأسه بسرعة فيرى أوغست يظهر في مدخل الباب، هزيلاً ومزريًا، ممتقعًا من قضاء معظم وقته في الداخل. يرفع صاحب المقهى يده، هزيلة جدًا بحيث بدت تشبه المخلب، يحركها برفق إما ليودع الرجلين أو ليتلمّس لهما الطريق.

٢

أكثر من ثلاثة أسابيع بقليل مضت منذ أن ارتاد البحر آخر مرة ، وملامسة المجاديف أعادت إليه ذكرى ذلك كله ، القارب السداسي ومحطة صيد السمك ، باردور والحياة التي اندثرت ، العينين اللتين تكدرتا وتحولتا إلى بركتين موحلتين ومتجمدتين . يعصر المجدافين ، يركل بقدميه ، يمعن في الانحناء إلى الأمام ، ثم يميل إلى الوراء ، يبقي ظهره مستقيمًا وبذلك يحرز مزيدًا من القوة ، وهي بالتأكيد ما يحتاجانه ؛ تعصف الريح الشمالية عليهما مباشرة تقريبًا ، لكن على الأقل عيونهما الحساسة ووجهيهما العاريين تتجه بعيدًا عنها . غادر غيسلي ومارتا ، لا أحد هناك أمام مقهى سدوم ، يزداد المبنى تضاؤلاً ، يبتعدان عن البلدة . يبتعدان بصعوبة . هذه ستكون خمسة عشر كيلومترًا مرهقة ، وستصبح أصعب عندما يجدفان خارج الخليج إلى المحيط ؛ حيث يتفاقم عمق البحر ، وتغدو الريح أقوى والأمواج أعتى . يصحو داخل الفتى خوف قديم مألوف ؛ مجرد لوح خشبي رقيق تحت قدميه ، فوق متر بعد متر بعد متر من الماء البارد ، أكثر من مئة متر عندما يبلغان عرض البحر ، ثم يجدفان في مياه ديوبالنر .

يجدفان ، يتقدمان ببطء خارجين من كنف الجبل ، يشقان الماء ببطء نحو عرض البحر الرصاصي الجسيم ، يفعلان ذلك بتلكؤ ، بكثير من التلكؤ . الريح الآن تهب مائلة جزئيًا . الأمواج ، مشهد متنام أبدي التغير يحيط بالزورق . تعلو وتهبط بزرقتها الباردة المشوبة بمسحة خضراء ، لا تبدو هائلة الضخامة من اليابسة ، ولا أكبر بكثير إذا شوهدت من سطح سفينة ،

لكن أولئك الذين يجلسون في زورق تجديف لا يستطيعون تجنب رؤية ذرواتها الصاخبة ، هذه الأمواج الهائلة التي ترتفع أعلى من القارب وتحجب مؤقتًا اليابسة من حولهم ؛ وقدرة الرجلين على البقاء عائمين أمر ملغز حقًا . كلمة «القارب» هي أيضًا كلمة أكبر بكثير مما هما يبحران فيه ، فهو لا يزيد في حجمه عن سرير متوسط الحجم ؛ وإذا هاجمتهما موجة عاتية واحدة سيتحول إلى فراش موت . يجدفان بتناغم ؛ رجلان يغرزان أربعة أنصال في البحر ، ويضعان فيها جلّ ثقلهما وقوتهما ، ومع ذلك لا يبدو أنهما يتزحزحان بوصة واحدة . ينشل البحر الزورق ، فيتاح لهما أن يلقيا نظرة على وضعهما ، قبل أن يهبط الزورق ثانية فيغيب عن عيونهما أي شيء آخر ما عدا الأمواج . اللعنة ، يفكر الفتى ؛ يرفع نظره بين حين وحين ويرى أنهما يحققان شيئًا من المسافة بينهما وبين كيركوفل ، ولو أن ذلك يحدث ببطء لا يطاق ، وهذا من ناحية أخرى يعني ، على أي حال ، أن عمق البحر تحتهما يتفاقم . يتنفس ينز بصعوبة وهو جالس خلفه ، لم يتفوه بكلمة واحدة ، ولو أنه من الجيد أن يتبادلا الحديث الآن . الكلمات ممتازة في أغلب الأحيان ، هي تربط بين الناس ، تخفف الشعور بالوحدة ؛ وبذلك لا يكون المرء وهو يواجه البحر مغرقًا في عزلته . ينظر الفتى من فوق كتفه وهو يميل إلى الوراء ، يهمّ بقول شيء ما ، أي شيء ، لمجرد أن يتواصل مع إنسان آخر ، يقول شيئًا عن الريح ، شيئًا عن البحر ، عن المركب السداسي ، ينظر من فوق كتفه وفي الحال يُعرض عن متابعة النظر . وجه ينز بشحوب الموت ، وعيناه حجران أسودان صغيران يحملقان في الفتى بحدة . هذا الرجل الضخم الذي لا يخشى أي عاصفة ، الرجل الذي دفعته الزوابع فوق مروج مهلكة ولم يذعن قط ، هذا الرجل مذعور الآن . هو يخاف من البحر ، كانت هيلغا قد قالت ؛ إنه يصيبه بالجنون ، والآن يستوعب الفتى ما عنته . تنشط الريح ، يجدفان ، الموج يتلاطم حول الزورق ، يسمعان صوتًا مثل شفط صادر عن وحش

هائل، البحر نادرًا ما يصمت، والمنخفضات بين الأمواج تزداد اتساعًا. حافظ على تزامنك معي! يصيح الفتى، اضطرَّ إلى الصياح ليجعل صوته مسموعًا، البحر والريح على حافة فقدان الصبر معهما؛ ماذا تريدان هنا؟ تصفر الريح والأمواج تعلو وتتكسر فوقهما. أتسمعني؟ يصيح مجدّدًا من غير أن يتوقف عن التجديف، من غير أن يتوانى، منكرًا الإعياء المتزايد، الإنهاك. أتسمعني ينز؟ يصيح بكل ما أوتي من عزم، ويبعث ينز صوتًا يشبه «نعم». هذا سهل! يصيح الفتى ثانية بثقة بالغة، متماسكًا، هادئًا، كما لو أنه فجأة شاخ، كبر سنوات عديدة وتخلص من ارتباكه كله؛ يجب أن نبقى متزامنين، نجدف معًا، وبالتالي يستمر الزورق في زحفه، سنستمر في التقدم ببطء... ولن تتكسر الأمواج فوقنا، فقط لا تتوقف! همّ أن يقول «سيكون تكسرها فوقنا أقل،» لولا أنه أدرك في الوقت المناسب أن كلمة «أقل» من المحتمل أن تضخم مخاوف ينز؛ لا يصدر عن ينز أي ردّ، يكتفي بالتجديف، يزامن تجديفه مع تجديف الفتى. يكنس الرجلان الماء إلى الأمام والوراء مثل بندول ساعة؛ إذا توقفا، يتوقف الزمن ويموتان. يحبو القارب قدمًا منتحيًا زاوية من الريح المتعاقبة، يحبو في البحر المصطخب. يركّز الفتى على التجديف؛ فزع ساعي البريد يمنحه الثقة، تتعاظم فيه قوة هذا العملاق الصامت، ينسى الهاوية السوداء تحت قدميه، على الرغم من أنها تحوي السمك والرجال الغرقى. وبالنسبة إليها لن يُحدث اثنان آخران فرقًا كبيرًا.

حياة الإنسان هي اختلاجة غامضة في الغلاف الجوي؛ تمر بسرعة كبيرة بحيث تفوّتها الملائكة إذا طرفت عيونها. يحدق ينز إلى الأمام مباشرة، يتحرك مثل آلة، لا يرفع عينيه عن ظهر الفتى الممشوق ويحاول بتلك الطريقة أن يتجاهل البحر النهم بسواده القاتم. قفازاتهما رطبة، وجهاهما يقطران بماء البحر، والملح يلسعهما. يجدفان، يكنسان الماء إلى الأمام والوراء، الألم ينخر في أسفل ظهر كل منهما، يعملان كالمجانين.

ألوقت يمر؟ أيتحركان؟ عندما يستسلم الفتى لإغراء التطلع من فوق كتفه يفعل ذلك لاهثًا، ولا يكاد يصدق أنهما يقتربان من فيترارسترند، هذا لا بدّ من أنه وهم، هلوسة، مجرد تمني! بعد وقت قصير ينظر ثانية ويرى أن الشاطئ قد تحرك ودنا أكثر؛ إلا أنهما حُملا بعيدًا جدًا عن مسارهما. كان مخططهما أن يحطّا عند قرية صيد السمك الصغيرة في بيريادالسيري، أما الآن فيحتاجان إلى أن يغذا في السير عشرة كيلومترات ليصلا إليها، هذا إذا بلغا الشاطئ. تتكسر الأمواج على القارب، يشهق ينز طلبًا للنفس، وسرعان ما يمتلئ قاع الزورق بخمسة سنتمترات من ماء البحر. يبدأ ينز بالتهوع، يتقيأ من غير أن يفلت المجدافين، يتقيأ على حضنه وفخذيه. عندما ينظر الفتى مجدّدًا لا تكون أمامهما إلا مسافة قصيرة ليقطعاها؛ سننجح، يفكر، بيد أن الثلج يبدأ في التساقط. لطمت وجهه ندفة ثلج أو ندفتين في البداية، كما لو أن ذلك حدث نتيجة خطأ ما، ثم اصطبغت السماء بأكملها باللون الأبيض؛ لكن خلف البياض هناك الشاطئ، ينتظرهما مثل عناق مطَمئِن. سننجح، نحن عمليًا هناك، اللعنة، يصيح الفتى بانتصار من فوق كتفه؛ لكن ينز ينفر فزعًا، يسحب مجدافيه من الماء ويقفز خارج القارب دفعة واحدة وبلا هوادة.

أمجنون أنت؟! يزعق الفتى عندما يدرك ما حدث، يلقي بنفسه جانبًا، يدفع يده نحو البحر الأخضر البارد، يفلح في إمساك سترة ساعي البريد وهو يهوي نحو قاع البحر، يجذبه ويبقيه مرفوعًا إلى أن يتمكن ينز من التعلق بحافة القارب وهو يبصق ويلهث، ثم يتناول مجدافيه ويجدف بهما. يمنح اليأس قوّة، يشعر بالقوة تنتفخ في ذراعيه. عندما تواجه قدما ينز مقاومة يصيح ثم يفلت حافة القارب ويشق طريقه ضاربًا بيديه أو شبه يسبح إلى اليابسة، يترنح مشبعًا بالماء إلى عظامه على الشاطئ الزلق الصقيعي، يعتدل واقفًا، يغمض عينيه ليتلذذ بالحصول على أرض تحت

قدميه ، ثم يهوي على أربعته ويتقيأ .

إنهما بأمان . بل حتى انتهيا إلى بقعة مناسبة ؛ بضع أكوام من الصخور الكبيرة ، ينجح الفتى في سحب القارب إلى الشاطئ ، جيد أن يجد المرء موطئ قدم ، جيد أن يتحسس الأرض تحت قدميه الاثنتين ، متحررًا من قبضة البحر الذي أخفاه الثلج المتساقط تقريبًا . يتلوّى ينز ليقف ، يتمطط ، طويلاً وعريض المنكبين ، بيد أنه على الرغم من قوته يقف مرتعد الفرائص . الصقيع المجمّد تغلغل في جلده ، وفي مكان ما داخله ثمة قلب عرضة لقضمة الصقيع . يسارعان إلى الاهتمام بالقارب ، يثقلانه بالحجارة ، يثبتانه بها أرضًا ، يعثر الفتى على حجارة مناسبة أما ينز فيختفي في حنايا الثلج ويعود حاملاً صخرة تقريبًا ، تزن ما ينقص قليلاً عن سبعين كيلو ، يضعها في القارب ويذهب طلبًا لأخرى ، يعمل على نحو مسعور ليبقي نفسه دافئًا ، يعمل على نحو مسعور ليستعيد رجولته ؛ انتبه لئلا تحطم القارب ، يهتف الفتى عندما يعود ينز حاملاً صخرته الثانية . لا ، لا ، يجيب ينز وهو يضعها برفق كما لو أنها مجرد حصاة . ينتصب واقفًا وللحظة تلتقي عيونهما عن طريق الصدفة المحضة ، عندئذ يقول ساعي البريد شكرًا . ويرد الفتى قائلاً : إن ذلك لم يكن شيئًا يُذكر ، فيقول ساعي البريد ، نعم ، تمامًا . لماذا قفزتَ من القارب؟ ظننتُ أننا سنرسو ، يجيب ينز ، لا أحبّ البحر . أنت تقطر ماءً ، نحتاج إلى إدخالك إلى مكان ما ، يقول الفتى . يفرغان من تحميل القارب بالحجارة ، يستعجل ينز ، هو لا يريد أن يموت على هذا النحو ، يقطر ماء من البحر والخزي ، يأخذ حقيبتي بريد ويأخذ الفتى الحقيبة الثالثة والكيس الجلدي الذي يضم زادهما وملابس جافة ، وهذا يحكم ربطه على ظهره . ثم ينطلقان في غمار الثلج المدوّم بحثًا عن بيت .

ليس أمامهما إلا خيارين وحيدين ؛ التوجه يمينًا أو يسارًا ؛ ليت الحياة كانت هكذا واضحة جدًا ، وحاسمة جدًا . لا يمكنهما أن يسلكا دربًا

مباشرًا ، فأمامهما يرتفع جرف جبل عمودي ، تليه أصقاع عديمة الرحمة ؛ ولا يستطيعان الالتفاف والرجوع بسبب البحر . يتجهان يسارًا ، إلى المنطقة الشمالية الغربية ، نحو القرية ؛ مجموعة أكواخ صيد سمك وبيوت بسيطة ؛ بل هناك معبد أيضًا ، إذ ، ما الإنسان بدون رب ، أو بالأحرى ما الرب بدون إنسان ، وهناك ينتظرهما حصان يعود إلى نائب ساعي البريد . هي على الأرجح عشرة كيلومترات إلى القرية ، يقول الفتى موجهًا حديثه لظهر ينز ؛ الريح والبرد يحدقان بهما ؛ يثخن الثلج المتساقط ويهبط المساء . في الأسابيع الثلاثة المنصرمة غالبًا ما وقف الفتى عند نافذة الغرفة العليا ومدّ نظره نحو فيتارسترند ؛ من بعيد تبدو مثل نهر جليدي مترامي الأطراف ، ومن الصعب تخيل أن الناس يستقرون هناك بمحض إرادتهم . لكن ما الإرادة الحرة وما الإنسان الحر؟ حوالي ثلاثمئة شخص يعيشون على ساحل بطول ثلاثين كيلومترًا ؛ ثلاثمئة مخلوق رسّخوا أنفسهم في بعض الأشرطة المعشوشبة عند أقدام المنحدرات الصخرية ، قسم منهم لديهم مجموعة من الدواب ، لكن الأغلبية تعتاش من البحر ، الجبال بيضاء على مدار السنة ، الثلج لا يختفي نهائيًا أبدًا ، ولم يفعل ذلك على مدى سبعمئة سنة ، حتى في أفضل فصول الصيف ، يكمن الثلج في الأخاديد والأغوار ، ثم يقبل الخريف محمّلاً بثلج جديد .

والآن هو يمشي هنا .

يمشي ويتعثر تقريبًا على الشاطئ المجمّد .

يتحركان صعودًا ، يتحرران من الجليد الزلق الأملس ، فقط ليخوضا طريقهما خلال الثلج . يقود ينز الطريق ، يمشي بسرعة ، يحاول التملص من البرد ، يخرج القارورة من غير أن يبطئ السير ، يعبّ جرعة كبيرة ، مرتين ، يمدها من بين الثلج المتساقط ويضطر الفتى إلى الهرولة ليمسكها ، يعبّ ينز جرعة ثالثة ، لكنه يعجز عن الهروب من القرّ ، يعجز عن التملص من البرد

الذي بدأ يشل عضلاته وييمم شطر قلبه . يلقي نظرة جانبية حيث يلهث البحر مع تساقط الثلج ، والرجال الغرقى يتثاقلون على طول قاع البحر جنبًا إلى جنب مع الرجلين ، ويلعقون الملح من على شفاههم . يتبعه الفتى ويحنّ إلى باردور ، بيد أن الإنسان لا يستطيع السماح لنفسه دائمًا أن يتأسف ويبكي ، أحيانًا عليه فقط أن يعيش ، أن يركز على هذا ولا شيء غيره ، ويبقي الموت بعيدًا عنه ، ذلك المخلوق الأسود المتربص بنا أبدًا في كمينه ، ما عدا أنه هنا عند آخر الدنيا هو على الأرجح ممتقع كجثة وبالتالي ممتزج بالثلج . لن أشغل بالي بالموت ، وسأركّز على المشي ، أحافظ على جسمي مستقيمًا وأتجنب السقوط ، يفكّر ، بيد أنه يتعثر تقريبًا ويسقط فوق ينز ، ينز المنبطح فجأة على الثلج ، كما لو أنه أصيب بعيار ناري . يتحامل ساعي البريد على نفسه بصمت ليقف ويتابع تقدمه ، بل حتى يسرع ، ربما على أمل التخلّص من الإجهاد الذي يشعر به بعد وقوعه ، كأن جزءًا من قوته وإرادته قد تخلّف عنه حيث وقع . سرعان ما يتعثر ثانية ، ويفلح في النهوض ، يمشي ، ويقع للمرة الثالثة ويبقى حيث هو ، عضلاته ما عادت تطيعه . يساعده الفتى على الوقوف ، يهسهس ينز بشيء غير مفهوم ، يندفع ويسقط للمرة الرابعة . ويبقى حيث وقع . أحتاج إلى التفكير ، يقول للثلج . يحاول الفتى إنهاضه لكن القوة لا تسعفه . ينز ، يقول ، ولا يتلقى جوابًا . وهناك يقف الفتى . هكذ هي الحياة : تجمّد باردور أولاً حتى الموت ، والآن هذا الرجل العملاق في طريقه إلى الرحيل على المنوال نفسه . يخرّ الفتى على ركبتيه ، مشتت الذهن . لقد تساقط ثلج عظيم ، لسوء حظ الجميع ما عدا أختك . طلبت من سيجمار أن يصنع لها رجلي ثلج ؛ أحدهما أنت والآخر شقيقك . إنهما الآن معنا ، قالت ليليا . أرادت من صميم قلبها أن تنام في الخارج بينكما ، حملتها إلى البيت وهي تنشخ . تحامل على نفسه لينهض على أربعته وبدأ يدحرج كرة ثلجية متنامية حوله . ينظر ينز إليه ،

ينجح في رفع رأسه من بين الثلج ، يرفع تلك القطعة الثقيلة من الجليد ، ماذا تفعل بحق الشيطان؟ أصنع رجل ثلج لأختي ، يجيب الفتى . اللعنة على الجحيم ، يقول ينز . الآن هالا ووالده يمدّان بصرهما نحو الشمال ، على أمل أن يلمحاه عائدًا ، مخلوقان يعتمد وجودهما كله عليه . يقف متيبس الأعضاء ، ثقيلاً ، ويمشي قدمًا ، لا يتسنى للفتى أن ينهي رجل الثلج ، ومعًا يشقان طريقهما في العتمة ، عكس الريح والثلج والصقيع . يتراكم الثلج عليهما ويتابعان المشي ، خطوة خطوة ، متجمدان بردًا لكن غير مهزومين . ثم يسقط ينز للمرة الخامسة . ربما لأن الأرض بدأت ترتفع ، ليس كثيرًا ولكن بما فيه الكفاية . تثلج الدنيا ويهاجمهما الثلج ، يتساقط عليهما من الجبل بكميات هائلة ، يندفع بضراوة ، يكاد يكون من المستحيل أن يتنفسا ، ويتلمّس ينز بوهن بوق البريد ، يحاول نزعه من على كتفه ، ويناوله للفتى ، يفغر فمه ليقول شيئًا إلا أن لسانه متجمد ، لأن الكلمات تتجمّد أولاً ، ثم تتجمّد الحياة . يفتح الفتى الكيس الجلدي ، يقف ، يحطّ شفتيه المتوجعتين الباردتين على البوق ، يملأ رئتيه وينفخ . لا تُنتج محاولته الأولى إلا صوتًا يشبه سقسقة طائر فزع . يحاول مرة أخرى ، وأخرى ، ويبدأ الصوت في التضخم ، يتضح وينزلق مخترقًا العاصفة الثلجية ، يندفع صعودًا معاندًا الريح ، على الرغم من أنه لم يبتعد كثيرًا ، ثم يهمد . ينفخ الفتى ثانية ، الصوت الواضح ينزلق خلال الريح ، النجدة! يصيح الصوت ، أين أنت يا حياة؟ يسأل . يرهفان السمع ، يحاول ينز لكم نفسه ، لكم البرد بعيدًا عنه ، عليهما أن يحتميا بكومة ثلج ، هذا أملهما الوحيد ، وهو على أي حال ليس أملاً ، نعم ، ربما بالنسبة إلى الفتى لا بالنسبة إلى ينز ، الصقيع سيدمجه بالموت . ينظر ينز إلى الوراء نحو البحر ، كما لو أنه يتوقع أن يرى مجموعة من الرجال الغرقى يتهادون مقتربين منه سعيًا وراءه . يستمع الفتى مدة طويلة وقد بدأ يرتعد قليلاً ، ينفخ البوق من جديد وينتظر . يظنّ أنه يسمع

شيئًا . ينز ، يقول مخاطبًا ساعي البريد ، وفي هذه اللحظة يتخلل الثلجَ المدوّم نباح كلب ، ليس بعيدًا جدًّا عنهما ، ثم يتبعه بعد فترة وجيزة صوت رجل يصيح مترددًا ، مرحبًا ، أنتما رجلان حيّان أم شبحان؟

٣

تقوم المزرعة على نتوء ، وربما هي مطوقة برقعة معشوشبة ، أما تسميتها بحقل حشيش فستكون على الأرجح كلمة فضفاضة جدًا . الآن ، الريف بأكمله يضطجع تحت طبقة كثيفة من الثلج ، وقد كان ممكنًا تجاوز المزرعة ، تجاوزها بدون الانتباه لشيء ، بدون توقع أي حياة تحت قدمي المرء . البيوت الريفية هنا تختفي ، ومعالم ملحقاتها تضيع تحت هذا الثلج الذي يأتي من السماء ، ويعصف على قمم الجبال مشكلاً الأفاريز .

يضطران إلى ترك حقائب البريد أسفل المنحدر؛ أنا . . . أح . . . أحضرها . . . لاحـ . . . لاحقًا ، يقول المزارع بصوت خفيض ومتردد كثيرًا ، كما لو أنه خائف من الكلمات . بيد أنه لا تردّد هناك في جسم المزارع بينما هو يلفّ إحدى ذراعي ينز فوق كتفه ويسحبه صعودًا ؛ الفتى يترنح خلفهما على طول ما لا يزيد عن مئتي متر إلى المزرعة ، هذه نزهة لطيفة في فصول الصيف عندما يتلون كل شيء بالخضرة وتصبح السماء زرقة فقط ، أما الآن فهي رحلة طويلة ، رحلة عشرة كيلومترات أو عشرون . يحتاج المزارع إلى التوقّف مرتين ليلتقط أنفاسه ، الكلب يقفز حولهم ، إحدى أذنيه معقوفة ، ذيله ملتو ولسانه متدل؛ من المثير أن يأتيهم زوار ، روائحهم جديدة ، ويتحركون بطريقة مختلفة ، ولولا أن سيده بدا في منتهى الجدية لرغب في أن ينبح . طبعًا ، صعب جدًا ألا يسمح له أن ينبح ، يقفز الكلب جانبًا ويزدرد عدة حفنات من الثلج ملء فمه ليكبح جماح رغبته بالنباح . يتوقّف المزارع عند كتلة أعشاب بيضاء ، يمدّ يده وكأنما بوساطة السحر يُفتح أمامهم ممر

معتم ؛ أأنت جني؟ يدمدم ينز بصوت يكاد يستعصي على التمييز من وراء الصقيع والجليد .

الممر ضيق وعلى ينز أن يعبره بلا مساعدة ، وهذا ما يفعله ، وعندما يصلون إلى المطبخ يتهاوى أرضًا ويستقر هناك ببساطة . ولا يقول شيئًا سوى ؛ حقائب البريد . أنا أجلبها . . . يجيب المزارع وهو يرمق المرأة الواقفة هناك ؛ فتهز رأسها وتبدو أنها فهمت ما يرمي إليه . المطبخ معتم ويكاد تقريبًا يضيق بثلاثتهم ، خصوصًا عندما تجثو المرأة أمام الفرن الحجري وتشرع في النفخ لتلهب النار ؛ الفرن ما زال دافئًا بعد العشاء . واجهنا بعض المتاعب ، يقول الفتى ، وهو يدنو من الفرن ، يدنو من الحياة . نعم ، تقول المرأة وهي ترفع نظرها نحوه ، وإلا لما كنتما هنا . إنه لا يبدو في حال جيدة ، هل أغرقه الماء؟ تسأل ناظرة إلى ينز ثم الفتى . كاد قاربنا ينقلب ، يقول الفتى ، وأُلقي ينز خارجه ، هذا هنا يدعى ينز ، يضيف مومئًا برأسه صوب ساعي البريد . تنظر المرأة ثانية إلى ينز ثم تواصل النفخ . يتّكئ الفتى على الجدار ، يلاحظ صوتًا مبهمًا يتناهى منه ؛ فئران ، بلا شكّ ، هناك فجوات كثيرة بين الصخور المتراصة ، بعضها مفيد لتخزين أشياء صغيرة ، بما فيها أسنان الأطفال اللبنية ، لضمان طول عمرهم . يتكئ على الحائط ويراقب المرأة تعمل على تأجيج النار . النساء هنا في آخر الدنيا يعرفن كيف يوقظن النار من رقادها ، وفعلن ذلك كل صباح على مدى عديد من مئات السنوات . والرجال العظماء في العالم تأمّلوا الإنسان والكون ، اكتشفوا الكواكب ، وابتُدعت أبيات الشعر ، والأباطرة والملوك والجنرالات أبادوا الحياة من حولهم . هكذا علا التاريخ وتهاوى في كافة أنحاء العالم ، تتجمع السنين وتصبح قرونًا وعلى مدى الزمن النساء هنا عند آخر الدنيا استيقظن دوما قبل الربّ وقبل الرجال وجثون أمام المواقد ، ونفخن على فضلات القش التي عهدن بها إلى النار في ليلتهن الماضية . يمكن أن يستغرق إضرام النار ساعة في أوقات

الصباح، ينفخن إلى أن يتصبب عرقهن، ينفخن ولا يستسلمن، إذ ما الحياة المطوقة بالصقيع بلا نار؟ ينفخن، يكابدن، تستشعر عيونهن وخز الألم بينما يصعد الدخان أخيرًا، أو تدمع بينما في اللحظة نفسها يكنس الدخان وجوههن. يجعلهن الدخان يبكين. البكاء هنا أمر حسن. الأطفال يموتون، الأحلام تموت، يبهت الوميض ويتلاشى، ومن لا يبكي يتحول إلى حجر. ينفخن على الشرر ويبكين، لأننا قادرون على بعث النار من الموت، ولكن لا نستطيع بعث الناس منه.

ينير وهج النار التي بُعثت من جديد إلى الحياة وجه المرأة؛ هو غائر، شفتاها سميكتان ومتشققتان، ولا ريب في أنها باستمرار تضيّق عينيها البنيتين لترى من خلال الدخان. تلقي النار وهجها أيضًا على المسامير في العوارض الخشبية؛ تُعلق عليها في الخريف وإلى وقت متأخر من الشتاء، قرب المدخنة حيث الدخان أقوى، مقانق ولحم وأضلاع في أكياس كتانية، والآن لم يتبق شيء سوى المسامير، وعلى العارضة الأبعد، قطعة جلد حُفظت لتصنع منها الأحذية في الربيع. أخذ ينز يرتعش. تنظر إليه المرأة كما لو أن انتباهها قد تشتت، خدها الأيمن يواجه ضوء النار، والأيسر في العتمة الجزئية، هي في آن مشعة بالشباب وكالحة من التقدم في السن. ثمّ كما لو أنها تستعيد وعيها، تقف، تجثو قرب ينز، تضع يدها تحت ثيابه الباردة، تتحسس القرّ الصقيعي وتقول للفتى: ساعدني لنخلع عنه ملابسه. ولا يصدر عن ينز أي اعتراض بينما يشرعان في نزع ملابسه نصف المتجمدة. تظهر وجوه ثلاثة أطفال؛ ست عيون استدارت فضولاً، عودوا إلى الفراش، تأمرهم المرأة، وهي على ما يبدو ترى الأطفال على الرغم من أنها توليهم ظهرها. يُجرّد ينز من ملابسه كلها، هذا الرجل الضخم عارٍ، لا أحد رآه هكذا على امتداد سنوات، ما عدا سالفر ربما، في سرية الغرفة العائلية، وثلاث مرات على ضوء ليالي الصيف. ذراعان مفتولتان، ساقان

قويتان ، كتفان عضليتان ، والآن هو واهن كشيخ هرم . معًا يساعدانه ليدخل الغرفة العائلية ؛ وهي ليست بدفء المطبخ . يظهر المزارع ثانية فيغمغم ينز بكلام ما ، عاريًا وأعزل ، وجوه الأطفال تراقب من أحد أسرّتهم وأحدهم ، البنت الأصغر ، تجتاحها نوبة سعال ، في البداية تكح مرتين كما لو أنها تحاول التخلص من البلغم في حنجرتها ، ثم يغدو السعال أقوى ومتواصلاً بحيث تعجز الطفلة عن التنفّس . ماما! يصيح الطفلان الآخران لكن المرأة كانت في تلك اللحظة قد انزلقت من تحت ذراع ينز التي لو لم يسارع المزارع إلى الإمساك بها لخرّ وخبط بالأرض مثل كيس . تحمل الأم الطفلة بين ذراعيها ، تسندها على كتفها ، وجه الطفلة أحمر وشفتاها شاحبتان ؛ تهمس بكلام ما ، تمسّد ظهرها بحزم فينحسر السعال ، وتفلح الطفلة في التنفّس ثانية . حياتها لم تغادر إلى أي مكان . تنزل المرأة طفلتها برفق ، تعود إلى الزائرين ، وست عيون أطفال وعينا كلب تراقب بينما يُنقل ينز إلى ما لا بدّ من أنه سرير الزوجين . ينبغي أن تستلقي معه ، تخبر الفتى ، أيتحتم علي أن أفعل؟ يهتف ، مرعوبًا تقريبًا . يحتاج إلى وجود دفء قريب منه ؛ إنها الطريقة الوحيدة لتخليصه من القشعريرة ؛ مات الناس بسبب ما هو أقل من هذا . تلقي المرأة نظرة جانبية على الفتى ، كما لو أنها تتوقع ردًا . يتفحّص الفتى ينز وهو يرتعد تحت الغطاء ، عيناه مطبقتان ، ووجهه بزرقة الموت ، ثم يبدأ في خلع ثيابه ؛ البرد قد أودى بحياة عدد هائل من الناس في هذه البلاد . يقصد الزوجان المطبخ ، يواصل الأطفال والكلب التحديق في الفتى ، تكح البنت الأصغر من جديد ، ينتصب شقيقها وشقيقتها في السرير ، ثم يعودان إلى الاستلقاء عندما تنحسر نوبة السعال ، والفتى قد خلع ثيابه كلها باستثناء سرواله التحتي ، لا يخلعه ، أوه ، لا ، إنه أمر غير وارد ، فهو يفترض به أن يستلقي لصق ينز ، والمرء لا يعرف ما الوجهة التي تتخذها الأحلام ، فبعضها ينجم عنه تأثير ملحوظ على بنية الجسم الذكوري . تخيّل فقط

المذلة إذا حلم براغينهيلد مستلقية جدّ قريبة من ساعي البريد ، كما حلم بها في تلك الليلة ، حيث اضطر على إثر حلمه إلى النزول إلى القبو ليغسل سرواله التحتي بين الفئران الميتة . ينتابه الغثيان تقريبًا من الفكرة ، ينزلق على عجل تحت الغطاء إلى جانب ينز ، يقاوم بصعوبة إغراء إلقاء نظرة متفحصة على الكتب المصفوفة فوق الرف الأمامي التي كما يتهيأ له يقارب عددها الثلاثين ، وبدلاً من ذلك يلفّ ذراعيه حول الجذع الضخم ، يشهق بنفس مقطوع عندما يشعر ببرودته ، هذا تقريبًا مثل معانقة جثة . لا يأتي بحركة ، يركز على طرد الصقيع من الجسم الضخم ، مستغرقًا في التركيز إلى درجة أنه لا يكاد يسمع همس الأطفال النابض بالحياة ، والسعال الذي تحاول أصغرهم خنقه باستمرار ، الغرفة العائلية ليست مظلمة ، وليست مضيئة أيضًا . على الحائط ثلاثة مصابيح زيتية ، نورها باهت جدًا بحيث تبدو كأنها ذكرى قوم من الماضي في مراحلهم الأخيرة من العمر ، نافذة الجملون الصغيرة مظلمة ، والبيت بأكمله تقريبًا مستتر بعباءة ثقيلة من تلك الظلمة نفسها . لكن كلما زادت كمية الثلج المتكوم أمام البيت وعليه ، يصعب على البرد أن يشق طريقه عنوة إلى الداخل ، الصقيع القاسي ، جليد الموت . أثناء فصول الشتاء المثلجة يكون الجو عادة أدفأ في هذه البيوت المحفورة في الأرض من أبنية القرى الخشبية ، حيث يتجمد كل شيء ما عدا الزئبق والدم والرغبة الجنسية . عينا الفتى مغمضتان ، ذراعاه حول ساعي البريد الجسيم ، يفرك صدره بين حين وآخر لأن تحته يكمن قلبه ، وكما تذكرون ، قدرة القلب على تحمّل الصقيع ضعيفة . من مكان ليس ببعيد تخور بقرة ، من المحتمل أن الحظيرة خارج المطبخ مباشرة ، تخور خوارًا طويلاً ، أين الضوء ، تسأل البقرة ، أين الربيع ، أما كان هناك في يوم عشب أخضر؟ وبعد ذلك تتشمم التبن بتكاسل ، بقايا التبن التي لا تقدح شرر أي ذكريات عن كلأ الصيف . قليل ما تبقى من التبن المخزن ، ومع ذلك تنال البقرة أجوده ، على

الخراف أن تقنع بما هو أدنى درجة . تخور البقرة ثانية ، وبعد ذلك يعمّ الصمت باستثناء شيء يسير من الضجة القادمة من المطبخ . أيحتمل أن يكون الأطفال نائمين؟ يرهف السمع ، لا يسمع شيئًا ، يشعر بالحزن ، لأن أصوات الأطفال هي دائمًا نور من أنوار الحياة ، يحبس أنفاسه ويمعن في الاستماع ، فيتناهى إليه حسّ سعال مخنوق ، أقرب بكثير من السابق . يلوي الفتى جسمه لينظر فيرى أربعتهم ، الأطفال الثلاثة والكلب قابعون على الأرضية إلى جانب السرير تمامًا ، ساكنون كالحجارة وينظرون بصمت إلى الزائر . ثمان عيون ، مستديرة فضولاً ، ولسان الكلب متدل باسترخاء من فمه . الطفلة الأكبر ، في السابعة أو الثامنة من العمر بعينين بنيتين داكنتين تحمل بين ذراعيها شقيقتها الصغرى التي ترتعد من نوبات السعال المكتوم . هل سيموت الرجل الضخم؟ يسأل الصبي الصغير ، ربما في السادسة من العمر وبعينين بنيتين أيضًا . آمل ألا يفعل ، يقول الفتى . جيد ، لأن حمله من هنا سيكون صعبًا ، وسيتوجب عليك أن تساعد ماما وبابا في ذلك . لا أحد مسموح له أن يموت ، تنجح البنت الصغرى في القول قبل أن تمزق صوتها نوبة سعال ، وهذه المرة لا يخفّ السعال إلى أن يأتي أبوها ويأخذها بين ذراعيه ، يسندها على كتفه ، يمسّد ظهرها ، فيركد السعال قليلاً ، وتتمكن من فتح عينيها وتلقي نظرة متفحصة طويلة على الفتى ، شفتاها المتقعتان زرقاوان تقريبًا ، وهي أيضًا بعينين بنيتين داكنتين ، تذكار من الصيف .

لا ينبغي بعد أن ينام الفتى . يجب أن يأكل ؛ عصيدة دافئة ، رؤوس سمك القد مغلية ومهروسة وممزوجة بوجبة الجاودار والحليب . يأكل الفتى بسرعة ، جسمه يحتاج ذلك ، أما ينز فيكتفي بالغمغمة ولا يفلحون في حثّه على الأكل ، يتقوقع على نفسه ، يعود ليغرق في النوم ويبحث هناك عن شيء دافئ ، شيء متوهج يمكن أن يطرد قشعريرة الصقيع من عظامه ، يطرد

قبلة البحر الباردة. يغوص في النوم، وفي قاعه يجوب الرجال الغرقى وهم يدندنون باسمه بلا انقطاع.

إنه المساء في الخارج حيث الثلج، والليل يقترب.

تخور البقرة، خوارًا طويلاً ولكن ليس عاليًا؛ أين الضوء؟ تسأل مجدّدًا. لا يجري الكثير جدًا في رؤوس البقر، مجرد بضع جمل تتكرر باستمرار، بيد أن الأبقار تسأل عن أشياء لها أهمية، والجلوس معها مريح عمومًا، هذا يجعلها دائمة السعادة، والسعادة كنز يبحث عنه الناس جميعًا بإلحاح. الأطفال الآن في السرير؛ يجب أن يناموا كلهم الليلة في السرير نفسه بسببنا، يفكر الفتى، وهمسهم الحيوي لا يتوقف إلى أن تبدأ أمهم في قصّ الحكايات لهم عن أرض يسودها جو لطيف دائمًا؛ حتى المطر فيها دافئ، وكل شيء على الأغلب جيد ما عدا بالنسبة إلى الساحرة وعصابتها، فهؤلاء يريدون اختطاف الأطفال وفعل أشياء فظيعة بهم، هم حمر كالكراهية وعيونهم تشتعل، أيديهم مخالب طويلة وحادة كحدة الأسلاك الشائكة. لا أحد في القصّة مسموح له أن يموت، تقول البنت الصغرى. صوت الأم الهادئ يغمر الغرفة العائلية ويستمع الأطفال، يستمع الكلب، البقرة في الحظيرة تستمع، وكذلك يفعل المزارع والفتى، الفتى الذي يتنفس من فمه المفتوح. تصل القصة إلى نهايتها، لم يمت أحد؛ وهذا يبين كيف أن القصص تتفوق على الحياة. ثم تُخمد شعلة المصابيح وتلتهم الظلمة خلسة كل شيء. يجثم الكلب أرضًا يتقوقع حول نفسه ككرة، يئن قليلاً بينه وبين نفسه وهو متلهف لينام. نادرًا ما تحلم الكلاب أحلامًا عويصة؛ هي ببساطة تحلم بقطع لحم جيدة، بالسماء الزرقاء، بأيدي ناعمة وبالجري. لا يصدر صوت لا من البيت ولا من الجو في الخارج، إلا أن البنت الصغرى تبدأ في السعال. سعال نصف مكتوم في البداية، وبهدوء، كما لو أنها تحاول قمعه، تحاول السيطرة عليه، وهذه معركة يائسة. ثم تكح

وتكح ، إنه من اللافت للنظر أن يجد مثل هذا السعال القوي مكانًا مناسبًا له في جسم صغير كذاك . ينهض شخص ما في الظلام ، يقول شيئًا ، تتضاءل حدّة السعال شيئًا فشيئًا ، لكن يمرّ وقت طويل قبل أن يهمد نهائيًا . يشرع المزارع في الدندنة ، صوته خالٍ تمامًا من الفأفأة ، سلس كالماء الفاتر ، بكل سرور سأتبعك :

بكل سرور سأتبعك
أبتاه ، لأمجدك ،
مُخلّص أنا أبدًا
ويدك تمسك يدي

يحلّ النوم ببطء على هؤلاء البشر تحت الثلج ، في البيت الكامن تحت الأرض .

ويدك تمسك يدي ؛ مَددنا أيدينا عقودًا ، بيد أن أحدًا لم يمسكها ، لا القدير ولا الشيطان .

يغرق الفتى في عالم النوم . هناك يستلقي ، شبه عارٍ ، لصق جسم ساعي البريد البري الضخم ، مع الذي لم يكد يبادله الكلام ، اعتبارًا من يوم أمس . يحتوي بإحكام الجسد البارد ، البارد من قبلة البحر ، البرد في عظامه ، وهذا أحيانًا يجلب الموت . لا أحد في القصص مسموح له أن يموت ، مع ذلك تضم حيطان المطبخ أسنان اللبن لطفلة ماتت قبل ما يزيد عن سنة بقليل . يفكر الفتى في أخته ، يتذكر كيف ضحكت ، ولا يلبث أن ينام .

ينام في غرفة عائلية في فيترارسترند .

من بعيد تشبه جبل جليد مترامي الأطراف وبلا حياة . إلا أنه هنا الآن ، وكلب يتنفس على الأرضية والناس في الأسرّة ، هناك بقرة في الحظيرة ، وفي مكان ما تحت الثلج هناك زريبتان فيهما نِعاج . هذه هي طبيعة

الأمور : الحياة أحيانًا لا تكون مرئية للمرء إلى أن يصل إليها ؛ ولذا لا ينبغي أبدًا أن نطلق الأحكام من بعيد .

يستيقظ على رائحة القهوة ، ويجد نفسه وحده في السرير . يبقى مستلقيًا هناك ريثما تتبخر منه الأحلام ، تصعد إلى السماء حيث تطّلع عليها الملائكة ، إنما على أمل أنها تفعل ذلك لمجرد التسلية ، لا لتدونها وتقرأها يوم الحساب ، بكل ما تحمله من خزي لمعظم الناس . ثمّ يقعد في السرير وينظر حوله . ينز قاعد في السرير المقابل ؛ إنه حي إذًا ، مصباح زيت الحيتان في صدره ما زال متوهجًا . تلتقي عيونهما ولا يقولان شيئًا ؛ الكلمات يمكن أيضًا أن تكون جدّ ملتبسة مع وجود هوة معتبرة بينها ، ومع ما يعتلج في صدر المرء ، تلك المسافة غالبًا ما سببت سوء فهم مؤذٍ بل حتى حطمت نفوس الأحياء . ولذلك يستحسن أحيانًا ألا يقول المرء شيئًا ويعتمد على عينيه . يتفقد ينز حقائب البريد ؛ والأطفال الثلاثة يجلسون على مسافة قريبة منه بقدر ما تجاسروا ، الكلب على الأرضية أمامه يراقب بدقة ، عيناه مسمرتان على ساعي البريد الذي يفتش في إحدى الحقائب ثم يسحب ، مثل ساحر خجول ، ورقة بيضاء فارغة ، يضعها على السرير ويقول يمكنكم أن تأخذوها . لا يتحرك الأطفال ، يحملقون في الورقة ، هم ما سبق قط أن رأوا مثل تلك الورقة البيضاء الفارغة ، وإلى حدّ الآن تسنى لهم أن يرسموا أو يكتبوا في هوامش الرسائل القليلة الموزعة هناك ، ربما يرسمون حيوانات صغيرة في الزوايا ، أما الآن فلديهم صفحة كاملة ، صفحة فارغة ، ويمكن على الأرجح أن يسطروا حياة بأسرها على مثل تلك الصفحة . ثم ، ثم هناك وجهها الآخر أيضًا! بيد أنهم أكثر دهشة من أن يقولوا شكرًا ، ولذلك يتقدم الكلب نحو ينز ويدس أنفه في راحته الكبيرة . نعم ، نعم ، يقول ساعي البريد محرجًا . والفتى يلتفت إلى ارتداء ملابسه .

تُقدّم لهما العصيدة والقهوة. لا يقول المزارع شيئًا، يحدق في حجره معظم الوقت؛ هو قصير ونحيل. تأتي المرأة من الحظيرة ومعها حليب دافئ، من الضرع مباشرة؛ تخور البقرة منادية عليها، أين الضوء، أين الربيع، أما كان هناك في يوم عشب أخضر؟ يأكل الفتى ببطء، ويقرأ عناوين الكتب فوق رف السرير، تاريخ البشرية لبول ميلستيد، وخطب فيدالن، وتراتيل الشغف، وأربع ملاحم آيسلندية قديمة، وكذلك عدة مجموعات شعرية. يضع وعاءه من يده، يطّلع على كتابين شعريين، يتلمس القصائد، يتلمّس ما يمكن أن يوسّع العالم، يحرك شفتيه وهو يقرأ، يرفع نظره فتلتقي عيناه بعيني المرأة التي تحدق فيه بتصميم وبطريقة استثنائية بحيث يشعر بالخجل، فيعيد الكتب إلى مكانها ويمضي نحو الباب، الممر واطئ وضيق، ينفتح على نهار ناصع البياض من الثلج إلى درجة أنه يستشعر وخزًا في عينيه، ويضطر إلى أن يطرفهما فترة لا بأس بها لتألفا وهج الضوء. تحلّق الغيوم بثقل فوق الدنيا شبه هادئة وباردة، بصعوبة تتماسك في الأعلى وترتاح هنا وهناك على الجبال، البحر رصاصي ويتنفس بمشقة. أهي تثلج؟ يسأل ينز من داخل الممر، ثم يظهر، يتمطط، ويضيّق عينيه. لا، ولا ندفة ثلج واحدة، يجيب الفتى، بل حتى يجيب بابتهاج، وفي اللحظة نفسها تسقط ندف النهار الأولى من الغيوم وتعوم في الفضاء. كان يجدر بي ألا أقول شيئًا، يغمغم قبل أن يعود أدراجه على طول الممر المعتم.

يستعدان للرحيل بعد فترة قصيرة.

ملابسهما جافة؛ جففتها المرأة على الموقد والفرن الحجري، اسمها ماريّا، كاسم أم السيد المسيح الذي يقال إنه حرر البشرية، مع أنها لا تبدو الآن محررة، فمن ذاك الذي عاد وقيدنا ثانية؟ كانت حبيبة المسيح تدعى ماريّا أيضًا؛ وهو في الواقع اسم أسطوري. تناول المرأةُ الفتى قصاصة ورق مجعدة؛ لدينا حساب في المتجر في سلياتريه، تقول؛ أحيانا يكون لديهم

كتب . لا أدري متى أذهب إلى هناك مجددًا ، أيمكنك أن تختار لي ثلاثة كتب تروق لك ، ويفضّل أن تكون شعرًا؟ أتعتقدين أنني قادر على أن أحسن الاختيار؟ يسألها . رأيت كيف تقرأ ، تقول بلا مواربة وهي ترطب شفتيها بلسانها ؛ هما متشققتان ، كما لو أن الزمن مرّ عليهما بورق السنفرة الخشن . لا ترفع عينيها عن وجه الفتى ؛ اِختر شيئًا ، تقول بصوت أجش قليلاً ، هذا هو . . . شيئًا مختلفًا . . . حيث لا تبقى الكلمات جامدة بلا حراك على الصفحة بل تطير إلى السماء وتهبنا أجنحة ، حتى وإن كنا لا نملك سماءً لنطير فيها . نعم ، ماريّا ، يقول لأنه يريد أن يردّد اسمها ؛ فهو اسم عظيم . المزارع من جهة أخرى ، يدعى يون ، وهو ليس اسمًا رنّانًا ، وهو مطروق جدًّا إلى درجة أنه في الواقع كفّ عن أن يكون اسمًا منذ زمن طويل . بيد أن هذا الـ يون سعيد بألا يكون اسمه غير هذا ، اسمه لا يجذب الانتباه إليه ، وهو أبدي الامتنان لهذا . يقف ويديه في جيبيه بينما يودعانهما ويشكرانهما ، يقف مستندًا على الحائط بعيدًا عن المصباح الزيتي المقلقل بقدر ما يستطيع ، لكن ماريّا تشعل مصباح كيروسين ، وربما هي ترغب في أن تقول وداعًا بكرامة ، وتريد أيضًا تأمين ضوء أفضل للأطفال الذين جلسوا بحماسة أمام ورقتهم ، فهي لحظة أهم بكثير من أن يُسمح لها المرور في ظلّ بصيص مصباح زيت الحيتان . يختلف الأطفال على ما هي أفضل طريقة لاستعمال الورقة ، كتابة الشعر ، كتابة القصائد ، رسم شيء ما . ربما القليل من هذا وذاك ، تقترح أمهم ، وتهمّ الطفلة الصغرى في قول شيء ما ، لكن سعالها يقاطعها مجدّدًا . يضع ينز بعض المال على سرير الزوجين . لقاء النوم والإقامة ، يقول ، فيشيحان معًا وجهيهما عنه ، لأنه ليس من السهل أن يكون المرء فقيرًا . ثم لا يلبث الرجلان أن يخرجا ، لكن الفتى يشعر كما لو

أنه نسي شيئًا ، يعود أدراجه ؛ الأطفال عاكفون على ورقتهم ، يصمتون حالاً عندما يظهر ، وهو بدوره يضع عملة كرونر معدنية على الورقة . لا تهدرها ، كانت هيلغا قد قالت له ، وهو لم يهدرها .

٤

هما في طريقهما . خرجا إلى الثلج ، والريح بالطبع قد استيقظت ، وبدأت تسلي نفسها بدفع أكوام الثلج ، مغيرة معالم الأرض ، مبطنة السماء من حولهما بالثلج العاصف ، مصعبة الأمور على الناس ، وعلى الحيوانات ؛ أين الضوء ، أين الربيع ، ألم يكن هناك في يوم عشب أخضر؟ يلتفت الفتى لينظر إلى المزرعة ؛ من يدري ، ربما هو ينظر إليها للمرة الأخيرة ، هذا البيت القائم على المرج الذي يضم خمسة أرواح ، لا ستة ، لأننا سنحسب الكلب ، وبالتالي فلنقل سبعة ، إذ ما يمنع أن نحسب البقرة ، سبعة أرواح ؛ كيف ستنتهي بها الأمور ، عن أي شيء ستسفر الحياة لتلك العيون البنية الداكنة ، وألم يكن ذلك السعال سيئًا جدًا؟ يلتفت لينظر وهذه التساؤلات في رأسه ، وهذا الخوف ، لكن المزرعة كانت قد اختفت . لم يبتعدا كثيرًا ، لكن الثلج العاصف يأخذ كل شيء معه ، اختفت المزرعة عن بكرة أبيها وربما هو لن يرى هؤلاء الناس ثانية ، أو الكلب ، أو البقرة التي لم يرها مطلقًا في الحقيقة ، فقط سمع أسئلتها اللجوجة . يتثاقلان قدمًا ولا يريان سوى الثلج . يرى الفتى ظهر ينز وهو يقود الطريق ؛ إلى الأمام مباشرة ، من السهل هنا أن يتتبع المرء طريقه على الرغم من كونه في عماء مطلق ، مع الجبل من طرف ، والبحر من الطرف الآخر ، يبقى الطريق بينهما هو الطريق الصحيح ، لا إلى الأعلى ولا إلى الأسفل . عشرة كيلومترات ، قال يون ، وقد استغرق وقتًا وهو يقول ذلك ، خصوصًا وهو يتجاوز حرف «ك» ، وفي هذه الأثناء لم يرفع نظره ، حشر يديه في جيبيه وبدا هشًا بينما توارى في الظلال . بعض

الناس قواقع مغلقة ، رماديون ولا يمكن وصفهم من السطح ، يُحكم عليهم بسهولة ، إنما ربما هناك نواة متوهجة داخلهم لا يميزها إلا قلة من الأشخاص ، وأحيانًا لا أحد . عشرة كيلومترات . تلك على الأقل مسيرة ثلاث ساعات في هذه الظروف ، وأربع ساعات ليست مستبعدة . تستند الحقيبة ثقيلة على كتف الفتى ، وينز يحمل حقيبتين ولا يظهر عليه أنه يشعر بهما ، يشق طريقه بجسارة ، الناس يسمحون للسطح الظاهر أن يخدعهم ، ولذلك يبدو الرجال من أصحاب البنية الضخمة والمتينة أنهم لا يقهرون . يحتاج الفتى إلى استنزاف طاقته كلّها كي لا يتخلف عن زميله ، أحيانًا يضيع مع أفكاره فيفقد أثر ينز مؤقتًا . الريح تعصف مرة أخرى من الشمال ، تنفخ عليهما البرد القطبي ، تنفخ على الجبال المرتفعة عن يمينهما ، الثلج يدوّم على القمم وعلى المزارع المعدودة الصامدة على الشاطئ ، وعلى الرجلين اللذين يترنحان قدمًا . الرجل الذي في المقدمة ينظر أمامه مباشرة ، والذي يتبعه يحافظ على رأسه منخفضًا ويفكر في عطيل وهاملت ، يتمتم كلمات منهما ، جيد أن يحرك شفتيه ، هكذا لن تتجمدا وتلتصقا معًا . هناك كلمات ، يقول للعاصفة الثلجية ، توسّع العالم وتغير معالم الأرض الإنسانية ، إلا أنه لا يلبث أن يجد نفسه لا يفكر إلا في راغينهيلد ؛ في عينيها الرماديتين ، ولكن لسوء الحظ يفكر أكثر في النهدين اللذين تسنى له مرة أن يشعر بهما جيدًا ، إنما بالتأكيد ليس بما يكفي ، يحرك راحتيه غريزيًا داخل القفازين السميكين ، كيف يلمس المرء النهود وماذا يفعل بها؟ باستمرارٍ تُذَكِّرُ البشرية بتفاهتها أمام التساؤلات الهامّة . بيد أن الفتى نسي كل شيء عن قدرات الكلمات عندما كاد يصطدم بينز الذي يقف بلا حراك ويتلفت حواليه . أرى شيئًا ، يهمس ينز . ماذا؟ لا أدري ، تحرك شيء ما . ماذا؟ اللعنة إن كنت أعرف ، شكل أو شيء ما ، لمحته لمحًا ، ثم اختفى . يتلفتان معًا وينظران ، يميلان رأسيهما ، يحاولان بهذه الطريقة أن يحميا عيونهما وأن يريا على نحو

أفضل ، ينزلق تحديقهما بين ندف الثلج ، نحو الثلج الهائج . أكان . . . أكان حيًا؟ يسأل الفتى بتردّد مفاجئ . ها ، تبًا ، لا تكن طفلاً لعينًا ، يهمس ينز . ليس ذنبي أن هناك أشباحًا! يهتف الفتى . لا يردّ ينز على هذا التعليق الأخير ، ويعاودان التلفت والنظر بينما البحر يلهث في بقعة ما وراء الثلج . هناك! يقول الفتى مشيرًا إلى شكل يختفي في اللحظة نفسها . مرحبًا! يصيح ينز . وبعد ذلك بفترة قصيرة يجيب صوت ، بتحفّظ ، مرحبًا! لا يتحركان ، لا يريان شيئًا سوى البحر ، ينتظران ، يهمّ الفتى بتحريك شفتيه وإذا بالصوت ينادي مرة أخرى ، أنتم أحياء أم أموات؟ سؤال وجيه ، يهمس الفتى ، لكن ينز يجيب غاضبًا ، جحيم لعين ، نحن أحياء طبعًا! يقترب الشكل ، ببطء ولكن بثبات ، وتتضح هيئته البشرية ، ولو أنه أبيض بالثلج ، والوجه أحمر من الصقيع ، يندفع نحوهما وتقول الشفتان ، لا داعي للغضب ، كنت أسأل فقط ، من أنتما على أي حال؟ أنا ساعي البريد ، يجيب ينز . نعم ، أرى الحقائب الآن ؛ يقول الرجل وهو يتفحصهما ويميز حقائب البريد المكللة بالثلج . هذا ليس دربك المألوف ؛ أين غودومندر؟

الرجل مزارع من الشاطئ ، جار من جيران يون وماريّا ، بين مزرعتيهما ثلاثة كيلومترات ، وآلاف آلاف الأطنان من الثلج . أخرج ينز القارورة ، وتناولوا جميعًا جرعة ، الفتى أيضًا . يتناول المزارع جرعة كبيرة ، ومع ذلك يبدو مقبوض الصدر ، إذ فقد إحدى حظائر أغنامه ، ولهذا السبب خرج في هذه العاصفة العاتية . كان في الصيف الماضي قد شيد حظيرة أغنام تحت إفريز ، وذاك ربما لم يكن عملاً ذكيًا ، يعترف بصراحة ، ضمّت الحظيرة أربعين نعجة ، أَتراهما سمعا ثغاءً وهما قادمان خلال الثلج؟ لا ، يقول ينز . بيد أن المزارع يعيد طرح السؤال ثانيةً ، لأن خسارة المرء لحظيرة أغنامه ليست مؤلمةً فحسب ، بل هي أيضًا ذلّ مطلق . ثم يردف بيأس بينما تكاد الريح القوية الخانقة أسفل المنحدر تطيره ، يجب أن أذهب وأحضر كلب يون . قد

يكون في وسعنا أن نساعدك ، يقول الفتى . ذاك سيكون جيدًا ، يجيب المزارع بامتنان ، بل حتى يلوح أقرب إلى الانشراح . يقفون هناك في نصف دائرة ، يتبادلون بضع كلمات ، الثلج العاصف العدواني يرغمهم على خفض رؤوسهم . الأفضل ، يقول المزارع ، أن نيمم هذا الاتجاه ، لأن . . . يمضي قدمًا مشيرًا إلى الأمام مباشرة ، وتقتطع الريح ما كان بصدد قوله ، وفي الحال تغدو هيئته ضبابية في الثلج ، كما لو أنه كان يذوب . اِنتظر! ينادي ينز ، ويسرعان وراءه ، يخوضان الثلج ، لكن المزارع اختفى وسط البياض ، كأنه كان هلوسة . يتبادلان النظر ، يلتفتان ويحدقان ، يصيحان عدة مرات يا هذا! أأنت هناك؟ وتجيب الريح بمرح ، نعم أنا هنا! ينتظران ، يستمعان ، ويتفاقم إحساسهما بالصقيع . أكان من الأحياء؟ يسأل الفتى بصوت مرتاب ، لكن ينز يكتفي بهزّ جسمه ، لم تستطع ماريًا أن تجفف ملابسه تمامًا وصقيع الأمس اللاسع ينتشر فيه ، كما لو أنه قد عشّش في عظامه وهو الآن في طريقه إلى عروقه وأوصاله . علينا متابعة التقدم ، يقول أخيرًا ، وهذا ما يفعلانه ، يقتحمان الثلج ، يختاران وجهة ، يختاران ما يعتقدان أنه وجهة ، فعلى الجانبين لا شيء سوى البحر والجبل ، وهذا يقلّص إمكانية أن يضلا طريقهما . وأخيرًا يصلان إلى قرية صيد السمك في غضون ثلاث ساعات .

يدخلان كوخ صيد السمك الأول ، يسألان عن حصان وعن بيت يقطنه يوناس معيّن ، ذاك الذي يدعو نفسه مدير مكتب بريد فيترارسترند . هو هناك ، يقول صياد السمك ، مشيرًا نحو الثلج المتساقط . نعم ، وأي شيء ليس هناك؟ يهتف ينز ، وهكذا يخرجان ويعودان إلى حضن البياض . لا مراكب في البحر ، الرجال ينتظرون ، مسترخين في الأكواخ ، يستمعون إلى الثلج يتكوم أمام الأبنية ، والريح تجرفه نحوهم ، الربيع يقترب طبعًا لكن الحياة مدفونة أعمق من أي وقت مضى تحت الثلج ، وليس من المؤكد تأكيدًا

قاطعًا أن الربيع سيفلح في استخراجنا أحياءً ثانية . يجوب ينز والفتى بحثًا عن بيت لم يرياه من قبل قط . يوناس لا يبخل في استعمال الكيروسين ، ستميزان البيت من الضوء ، أخبرهما صيادو السمك المتفائلون في كوخ صيد السمك التالي الذي قصداه ، أشاروا نحو الثلج وتحدثوا عن الضوء ، وما عدا ذلك لم يحفلوا برفع رؤوسهم عن أوراق اللعب ، أشاروا ، وتصرّفوا كما لو أنه لا شيء هناك ما هو أكثر بداهة من العثور على ضوء في هذا العالم .

يمشي ينز والفتى فوق كنيسة من غير أن يدركا ذلك . فقط يشعران بمرتفع مبهم تحت أقدامهما ، أرض غير مستوية ؛ أفترض أنها كومة روث ، يفكر الفتى ، ثم ينبذ الفكرة في الحال ؛ لا يكاد يوجد هنا إلا عدد قليل من الأبقار ومن غير المحتمل أن تتشكل كومة كهذه في شتاء واحد . السماد والإله متصلان عن طريق الطبيعة ؛ العشب ينمو من السماد ، يخضرّ ويجعل العالم مكانًا أكثر إشراقًا ، يبقي على أرواحنا حية في فصول الشتاء الطويلة ، والإله يفعل الشيء نفسه لنا . إنها لا تكاد تعتبر خطيئة عظيمة أن يخلط المرء بين الإله والسماد ، ومع ذلك ، وكما لو أنه نوع من العقاب ، يخطو الفتى على الغطاء الثلجي ، وفجأة لا شيء تحت قدمه سوى هواء ، والهواء لم يسبق قط أن حمل أحدًا . تند عنه صرخة فزع ويطيح أرضًا برأسه ثم جسمه ، يقف إلى جانب ينز في دقيقة ، وفي الدقيقة التالية يختفي ببساطة . أين ذهبت؟ يصيح ساعي البريد وسط الثلج ، ماذا حصل لك؟ يتلوى الفتى لينهض على قدميه ، يبصق من فمه الثلج ويشتم وينادي ، ينز أين أنت؟ أنا هنا ، أين أنت؟ هنا! يصيح الفتى ، غير قادر على التفكير في جواب أفضل .

أين؟

هنا!

أين؟

هنا!

تبًا أين هذا الـ هنا؟!

هنا يا رجل!

وهكذا يعثر أحدهما على الآخر، روحان تائهتان في هذا العالم تلتقيان ثانية وتتنفسان الصعداء، ومع ذلك تتصرفان كما لو أن شيئًا لم يحدث. غباء أن تختفي هكذا، يقول ينز عابسًا، ثم يضيف تلقائيًا، آسف. لا بأس يقول الفتى متفاجئًا، سعيدًا بهذه الكلمة، آسف، كلمة تقطع شوطًا طويلاً وجدّ جوهرية بحيث يمكن استعمالها لبناء عديد من البيوت وعديد من الجسور، بيوت وجسور بالغة الضخامة إلى درجة أنها تمتد عبر القارات وتقاوم العواصف الجنونية. ينز على أي حال، لا يوجه الحديث إليه بل على نحو ما إلى الكنيسة، فهما في الحقيقة يواجهان نافذة مكسورة ويريان السيد المسيح على الصليب، ولو بشكل غير واضح. الداخل معتم، لا يسمح إلا بالتقاط لمحة من المذبح والمنبر الصغير وقد جللهما الثلج، موعظة اليوم بيضاء وباردة. إنها كنيسة، يقول الفتى كأنه توصّل إلى اكتشاف مهم. نعم، يكتفي ينز بالقول، فهو محقّ، ثمة كنيسة هنا، بين أكواخ صيد السمك والبيوت المتواضعة. كنيسة على أرض معشوشبة بمقاعد لاثني عشر شخصًا، وهذا ملائم، باعتبار أنه كان هناك اثنا عشر حواريًا، لا كنيسة ينبغي أن تكون أكبر من ذلك. القسّ في فييك يأتي إلى هنا مرتين في السنة ويتحدث عن القدير، بيد أنه لا يفعل هذا أبدًا في عمق الشتاء، ففي ذلك الوقت لا يقيم القداس سوى الثلج من المنبر والريح من السطح. تتحمل الكنيسة العواصف الآتية من الشمال الشرقي بشكل سيئ؛ غالبًا ما تتكسر النوافذ، ويخرّ السقف تحت وطأة الثلج، وفي الشتاء يشبه البناء أكثر ما يشبه رجلاً ضريرًا وقته يشارف على أن يُبتلع. لكن بالتأكيد، طرق القدير لا سبيل إلى فهمها؛ لو أنهما لم يعثرا على الكنيسة صدفة، لو أن الفتى لم يزل ويسقط أرضًا عندها، ولو لم يطلق كل منهما صوته مناديًا رفيقه مثل

روحين تائهتين في عالم هائل ، لربما هاما على وجهيهما يجوبان بين أكواخ صيد السمك بحثًا عن الضوء الذي ذكره صيادو السمك ، وشعورهما بالصقيع والإنهاك يتفاقم أكثر فأكثر مع كل خطوة ، مع كل دقيقة ؛ ولبدأ قلب ينز يزداد فتورًا ، ولأصبح هجوم البرد أثقل ، ولأضلهما الشتاء والبياض العميم عن طريقهما ، ولكانا هاما خارج القرية ببيوتها المتناثرة وماتا في العراء . لكن الكنيسة تعرقل الفتى ؛ وينادي الفتى ينز وينز يناديه ، وبعد فترة قصيرة من كل هذا يأتي رجل لنجدتهما ، وذلك الرجل ليس إلا يوناس ، مدير مكتب بريد فيترارسترند ، وزعيم قرية صيد السمك هذه . أنا لم أميّز الأصوات ، قال لهما بعد أن قادهما إلى بيته ، على مسافة قصيرة من الكنيسة ، شاهدا الضوء في النافذة عندما دلهما عليه يوناس ، نادرًا ما يرى غير المؤمنين الضوء بدون مساعدة . لا ، لم يبد لي أن الأصوات تعود إلى أحد هنا في القرية ، أو إلى أي مكان آخر في فيترارسترند ، وصدقاني ، أنا أميزها كلها وانتابني شعور أكيد أن هذه حالة تتعلق برجال تائهين ، وقلت لزوجتي ، من ذاك الذي قد يخرج ويسعى في الأرض في مثل هذا الجو ، وأجبت نفسي فورًا ، عساك لا تظن أنه ساعي البريد ، ومرحبًا بكما!

طرحا حقائب البريد بسعادة ، فركا الثلج عن ثيابهما ومسحاه ، هو بيت خشبي بطابقين يصدر عنه صرير لطيف في الريح . كما لو أننا في سفينة ، يقول يوناس ، نعم كما لو أننا في سفينة ، يا رفاق ، ورجاءً ادخلا إلى غرفة الجلوس ، هي دافئة ومشرقة كما لو أنها في الجنة! لعلّ الجحيم دافئة ومشرقة أيضًا ، يفكر الفتى . مصباح الكيروسين في غرفة الجلوس متوهج ، وثمة امرأة ضخمة البنية تجلس لصق الموقد وتتثاءب . هذا ساعي البريد ، لقد قلت لك يا عزيزتي ، وأنتما متوجهان إلى المروج يا رفاق ، أوه حسنًا ، أوه ، إنها في الواقع ليست في مزاج جيد الآن ، المسكينة ، ليست في أفضل حالاتها! يلوح يوناس بيده ، ولا يدريان أهو يتحدث عن المروج أو عن المرأة

التي تتثاءب من جديد بوجه عبوس ؛ ولا تكاد ترد على تحيتهما ، تنهض متثاقلة على قدميها وتذهب إلى المطبخ . نعم نعم ، يقول زوجها ، ستأكلان شيئًا الآن ، من الطبيعي أن تكونا جائعين ومقرورين ، الرجل يكون جائعًا ومقرورًا في أيام كهذه ، وأنا سأزودكما بالضوء والدفء والطعام ، على فكرة ، هذه غاليتي إنغيبورغ ، يقول بينما زوجته تخرج .

يمضي ينز ويأتي بإحدى الحقائب ويخرج البريد والرزم التي ستُسلَّم هنا ، ويتفحصها يوناس بحماسة بينما هما يأكلان ، بينما يسدان الرمق وينعمان بالدفء يسري في جسديهما قرب الموقد . يصنِّف يوناس الصحف ويتفحص بدقة العناوين المكتوبة على الرسائل التي أُخرجت من الحقيبة ، يردِّد همسًا أسماء العناوين ، لا رسائل كثيرة هناك ، هي في الواقع ست فقط ، إحداها تتحدث عن موت ، أخرى تتحدث عن خيانة . الثالثة : أفتقدكم وأفتقدكم وأفتقدكم . الرابعة تتحدث عن صعوبات في التنفّس وعصيدة محروقة . الخامسة : الأطفال مرهقون ، وسيغي كسولة ، ومتى تصلني رسالة منك؟ السادسة مغتبطة جدًا بالحياة بحيث يشعر يوناس شعورًا جليًا بارتعاش أصابعه .

انتهيا من تناول الطعام ، وسرى الدفء في جسديهما ، ويريد ينز المغادرة ، ليصل إلى فييك قبل حلول الليل . في هذا الجو؟ يصيح يوناس بدهشة بالغة جعلته يتوقف في منتصف حكايته ، هي على الأرجح الحكاية العاشرة التي رواها لهما بينما أكلا ونعما بالدفء . أتعتقد أن المرج والجبل يباليان بالرفقة اليوم؟ يوناس قصير ، يصل طوله إلى صدر ينز فقط ، لكنه عادة يقف على أطراف أصابع قدميه ، للحظة ، كأنه يروم زيادة طوله ، كأنه يروم أن يقول للعالم : أنا في الواقع بهذا الطول . إنغيبورغ جالسة إزاء الموقد من جديد ؛ عادت إلى مقعدها بينما وقفا ، وهي الآن تهز رأسها ردًا على شكرهما لها على اطعام ، لكنها لا تنظر إليهما ، تدنو من الموقد بقدر ما

تستطيع وتتشرب الدفء الذي تمنحه الحياة بشيء من التقتير ربما . يتأمل الفتى خلسة تعبير وجهها المتجهم . جفناها في طريقهما إلى التدلي على عينيها الكبيرتين . يتكلم يوناس ، يتكلم ويتكلم ، المرج هذا والجبل ذاك ، يريدهما أن يبقيا عنده الليلة ، ليتحاشيا العاصفة . نعم نعم ، لا ريب في أننا سنجد ما نتحدث عنه ، هناك الكثير من الحكايات في الدنيا ، كانت هناك ، كما أقول لكما ، امرأة في هذه الناحية من أقصى الشمال احتاجت الحصول على دواء ، عانى زوجها من وجع أسنان فظيع أعجزه عن القيام بشيء ما عدا الاستلقاء في السرير ، وتورم وجهه ، نعم ، بل حتى لم يستطع البقاء مستلقيًا ، ولم يكن هناك أي رجل في الأنحاء ، غادروا جميعًا إلى البحر ، وكان أطفالهما صغارًا ، كان هناك عشرة منهم ، الأكبر عمره إحدى عشرة سنة أو ثنتا عشرة سنة ، والأصغر حديث الولادة ، أتريان ، والجو كان كئيبًا ، أسوأ جو لصعود الجبال ، برد قارس والمرأة مرضع ، مؤكد أنكما تدركان ما يعني أن في ثديها حليبًا ، المرأة المرضع لا يناسبها البرد ، كان لزامًا عليها توخي الحذر ، وعلى الجبال في عمق الشتاء يكمن خطر مهلك . أتريان ، كانت أمامها مسيرة خمس عشرة ساعة لتصل إلى الطبيب ، انتظِرا لحظة ، ثم . . . لكن ينز استغل فورًا تلجلج يوناس ، استغل وجود فرجة في تيار الكلمات المتراصة بإحكام ، وقال نحن راحلان ، يجب ألا نبدّد الوقت سدى ، أين الحصان؟

وبينما هما يغادران كانت المرأة تغفو إلى جانب الموقد .

٥

يجب أن تصدقونا عندما نقول إن المروج هنا يمكن أن تكون رائعة في فصول الصيف، وجميلة بكل ما في الكلمة من معنى وطيور الشنقب في الهواء، وقطرات الندى على الحشيش، وغدير يجري بسكون بين الضفاف المعشوشبة، وحزم النبات منتشرة في جميع الأنحاء مثل كلاب راقدة، وكل حسّ ينحو بطريقة أو بأخرى نحو الصمت. ذاك الذي يجتاز المروج في يوم صيفي مسالم تحت نور الشمس قد يشعر كما لو أنه أضحى في الجنة. هناك أيضًا ليالي الشتاء الحالمة والوديعة تحت القمر، وآلاف النجوم التي تومض على الأرض مثل قصائد قديمة، لكن جوًا كهذا بروعة كهذه يبقى منتميًا إلى وجود آخر، إلى نظام شمسي آخر بينما يغادر ينز والفتى قرية صيد السمك وهما يشعران بالأرض ترتفع رويدًا رويدًا تحت أقدامهما. لا يرى الفتى في أغلب الوقت سوى ندف الثلج، ومن حين لآخر ذراعه وردف الفرس الرمادية التي يقودها ينز هناك في العاصفة، في الهطول الغزير، وفي الثلج الذي تسكبه الريح عليهما، يضيّقان عيونهما ويضطران إلى أن يديرا رأسيهما ليعبّا الهواء، لأن الإنسان يحتاج إلى أن يتنفس وإلا يموت. إن قاعدة البقاء ليست أكثر تعقيدًا من ذلك. الفرس، بعمر عشر سنوات، لم تكن شاكرة مطلقًا للرجال الذين اقتادوها خارج الإسطبل، بعيدًا عن التبن وإلى قلب العاصفة. الرمادية، كان يوناس قد قال بوجه شبه متجهم. وما اسم الفرس؟ الرمادية، قلت لكما، وهي تعرف المروج والجبال والجو هنا، يجدر بكما أن تراعياها وتنتظرا إلى الغد. لم يقل ينز شيئًا، عكف على ربط

حقائب البريد بالفرس، وعندئذ اضطر يوناس، مدير مكتب بريد فيترارسترند إلى الاكتفاء بمراقبتهما وهما يغادران، غير مسرور من خسارته للرفقة؛ إذ ماذا عليه أن يفعل الآن، كيف يجعل المرء الوقت يمرّ، زوجته تنام في الداخل، وهي ربما تفضل صحبة أحلامها على صحبة زوجها، زوجها الذي وقف وراقب الثلج والريح يبتلعان الرجلين والفرس. وقف هناك وثمة سخط كثير في فمه بحيث اضطر إلى فتحه ليخفف الضغط عنه.

أفضّل أن تطوِّح بي العاصفة هنا وهناك على أن أستمع إلى حكاياته، قال ينز للفتى، ثم ما تحدّثا أكثر من ذلك، تفصلهما الفرس والثلوج المتساقطة بينما هما يقصدان مرجًا يمتد سبعمئة مترٍ صعودًا، الدرب الرئيس بين فيترارسترند وفبيك، يرتقيان المرج مدة طويلة بحيث يخطر على بال المرء أنهما يسلكان الطريق إلى السماء. طبعًا هما لا يسلكان الطريق إلى السماء، إنما يتسلقان الجبل الوعر، ليعودا وينزلا ثانية بأسرع ما يستطيعان، يحثان الخطى ولا يتوقّفان إلا بعد أن يصلا إلى بيت القسّ في فبيك. كان يمكن أن يتتبعا طريق الشاطئ، حيث يمكن أن يمهدا طريقهما بين الصخور تحت وجوه الجروف المسببة للدوار، لكن حينها ليس ثمة شك في أن البحر كان سيغرقهما بأمواجه ويشبعهما بللاً، والبرد يتكفل بالبقية، أو قد ينهار إفريز ثقيل عليهما يسحقهما ويكتم أنفاسهما. لذا من الأفضل عبور المرج، ذلك الممر الجبلي اللعين. نعم هذا أفضل، يقول ينز. تريثا ليلتقطا أنفاسهما قليلاً وهما شبه محتميين بصخرة ضخمة. مضى عليهما وهما يشقان طريقهما أكثر من ثلاث ساعات، معاكسين الريح المحتدمة حولهما مثل وحش أبيض. لحية ينز بيضاء، حاجباه متجمدان، ومع أن الصخرة لا تزودهما بغطاء جيد، تصد عنهما الريح بما يكفي ليكون ممكنًا لهما أن يتنفسا بحرية، من غير أن يبتلعا الثلج. يكسر ينز الجليد عن لحيته وحاجبيه، يحاولان تحريك عضلات وجهيهما المتصلبين من البرد، يقلصان

تقاطيعهما ليجعلا الدم يتدفق فيها ، تراقبهما الرمادية ثم تستدير . هي لا تحبّنا ، يقول الفتى ، ثم يسترجع ما أخبرهما به يوناس ، بأن المرج ، ذلك المعبر الجبلي اللعين أفضل قليلاً من الطريق الساحلي ، يكرر الوصف لأنه قد يكون من الجيد أن يتكلم المرء . يقول ينز نعم وهو يمد نظره نحو العاصفة متمنيًا أن يتوقّف الفتى عن الكلام . المرء يرتاح أكثر ما يكون في الصمت ، هذا فضلاً عن أن الكلمات قد ضللت عددًا لا بأس به من الناس . يلاحظ الفتى إعراض رفيق السفر الصامت ، ويتوقف في منتصف جملته ، يفكر في الحكاية التي رواها لهما يوناس عن نوبر خلال الدقائق القليلة التي استغرقها ينز وهو يضع سرج الفرس ولجامها .

ابن عمي ، بدأ يوناس وهو يقبض على ذراع الفتى كأنه يريد منعه من الرحيل ، ذهب قبل بضع سنوات مع ثلاثة رجال آخرين للبحث عن مزارع قصد المرج الجبلي ، ذلك الجبل المنحوس ، ولم يعد . بدأوا رحلتهم بأسرع ما يمكن ، حالما استطاعوا أن يقفوا منتصبي القامات أمام ضراوة العاصفة ، لم يجدوه ولم يتوقعوا أن يجدوه أيضًا ، رأوا بما لا يقبل الجدل أنه قد انزلق عن نوبر . انزلق؟ سأله الفتى . نعم ، سقط . راقب الفتى ينز يضع لجام الفرس ، ثم عاد وسأل ؛ ما هو نوبر؟ ولعدة لحظات أصيب يوناس بالدهشة ؛ ألا تعرف نوبر يا فتى ، وأنت في طريقك إلى تسلق المرج وهو على ما هو عليه الآن؟ يجب أن تُحجزا في الداخل إلى أن تهدأ العاصفة ، يجب أن يُغلق عليكما كما نفعل مع المجانين . نوبر هو الجبل هنا يا رفاق ، هو لا شيء سوى الجبل ، هو المطل على دمبسفيردر ، كالح في الصيف المشمس أو العواصف الشتوية . أولئك الذين يحاولون عبوره من هنا ، في العواصف الثلجية العامية للبصر مثل هذه ، ويلحفون في المضي نحو المنطقة الشمالية الشرقية ، ما إن يصبحوا في الأعلى هناك ، وبدلاً من أن يستديروا في الوقت المناسب نحو الشمال مباشرة ، نعم ، أولئك يا رفاق ، يلقون مصير ذلك المزارع الذي مضى

ابن عمي يبحث عنه مع ثلاثة رجال آخرين ؛ أولئك تطأ أقدامهم الفراغ ويسقطون من على نوبر. أنتما لا تستطيعان أن تريا شيئًا في مثل هذه العواصف ، هذا أؤكده لكما ، لا أنتما ولا مؤخرة أي شخص آخر ، كل شيء أبيض ولا اختلاف بين السماء والأرض ، هذا بمعزل عن الريح إذا كانت تعصف ، كما هو حالها الآن ، في أوقات كهذه يمشي الناس على غير هدى ، تائهين ومشوشين ، إلى أن تطأ أقدامهم الحافة على حين غرة ويسقطون . وكم يبلغ ارتفاع السقطة؟ سبعمئة متر نزولاً إلى الشاطئ ، سقطة مباشرة إلى البحر لا يعرقلها شيء ، إذا كان هناك مدّ ، وإلا فسقطة على الصخور . أغمض الفتى عينيه لحظة . وأردف يوناس : ما لم يحطّ المرء على نتوء . فعاد الفتى وفتح عينيه بينما تابع يوناس : كما حدث مع المزارع ؛ هوى من الحافة عدة أمتار نزولاً ، وسقط على الثلج ، على كومة ملساء ناعمة ، ولم يتكسر . أي نجا! هتف الفتى بارتياح ، سعيدًا لأن الحياة على الرغم من كل شيء ، لا بدّ من أن تكون رحيمة ، رحيمة هنا أيضًا في هذا الجزء من العالم . نجا ، نعم ، أجاب يوناس ، يمكن أن يقول المرء هذا ، ولكن نجا ليجوع أو يتجمد حتى الموت على النتوء الجبلي . وجده صيادو البَيض هناك في الربيع التالي ، اقتاتت عليه الطيور قليلاً ، عليه الرحمة ، لكن الرزمة التي أحضرها معه بقيت سليمة تمامًا ، رزمة من القسّ في فييك ، ترجمة قصة فرنسية ورسالة إلى الدانمارك ، الطيور لا تهتم بالشعر وهراء كذاك ، هي تعرف ما الأفضل . اختتم يوناس وهو يلحف في القبض على ذراع الفتى بحيث اضطر إلى انتزاع نفسه انتزاعًا ليتبع ينز والفرس خارج الأسطبل .

ينز ، يقول الفتى مخترقًا الصمت ، يجب أن نتوخى الحذر ونحن على نوبر اللعين! سمعت القصة التي رواها لنا يوناس في الأسطبل ، عن . . . نعم ، نعم ، يقول ينز وهو ينهض على قدميه بسرعة ويباشر العودة إلى قلب العاصفة ساحبًا الرمادية خلفه .

لماذا يحتاج الثلج إلى التساقط بغزارة كبيرة ، ما العبرة من ذلك؟
ويتابعان رحلتهما .

يتابعانها معاندين الجو والريح والثلج ، يتقدمان بسرعة ، إنه الشيء الوحيد المتاح ، يتقدمان بسرعة أو يستسلمان . يتقدمان ، نعم ، إنما ليس لمدة طويلة ، فعند نقطة ما عليهما أن يستديرا قبل أن تنتهي الأرض الصلبة وتبدأ الهاوية . سقطة سبعمئة متر . التسكع في عاصفة ثلجية لا يتضمن أي تسلية البتة ، بالكاد يريان أذرعهما ويعرفان أن أمامهما هاوية في مكان ما . يعرفان أن الريح تنفث الثلج على القمم ، ومع مرور الوقت يتشكل إفريز عظيم لا يتكسر إلا بحلول الربيع ، هذا ما لم يطأ أحد تلك الأفاريز شخص ما على غفلة منه في عاصفة ثلجية تعمي البصر . هناك القليل مما يمكن أن نعتمد عليه في هذا العالم ، الآلهة تميل إلى خذلنا ، والبشر يفعلون ذلك مرات ومرات عديدة ، لكن الأرض لا تخون أبدًا ؛ في وسعك أن تغمض عينيك بثقة وتقدم قدمك إلى الأمام ، وستستقبلك ؛ سأعتني بك ، تقول لك ، ولهذا السبب ندعوها «الأم» . وبالتالي من الصعب بمكان فهم اليأس الذي يمسك بخناق شخص ما إذا كان هو أو هي يتوقع أن تختفي الأرض من تحته في الخطوة التالية ، أن يفسح الثلج المجال ، أن يحل الفراغ محله ، ثم الهاوية ، فالسقوط . يتثاقل الفتى قدمًا وراء الفرس والرجل ، واضح جدًا أن المرج لا يكترث لأمرهما ، كان يوناس محقًا ، المرج الجبلي لا يكاد يبالي بأي رفقة في الوقت الحاضر . يسقط الثلج بغزارة ، تنفخه الريح وتجمعه أكوامًا ، وعلى الرغم من أن البرد قارس وأن الغطاء الثلجي يقسو أكثر كلما أمعنا في الصعود ، لا يتجمد الثلج بسرعة كافية ليتحمل ثقل الرجلين والفرس ، ولذلك يغوصان فيه باستمرار ، أحيانًا بضعة سنتمترات فقط ، وهذا صعب بما يكفي ومحبط ، وأحيانًا أخرى تختفي سيقانهما تمامًا ، فيجلس الرجلان عالقين هناك ، ويرغمان على استخدام كلّ ما يملكان من طاقة ليتحررا ، ساق

واحدة أولاً ، ثم الساق الأخرى . بيد أن عذر الرجلين بسيط ، فهما يملكان ساقين فقط ، وبنيتهما عمودية ، كما لو أن جسديهما جزء من لعبة شدّ الحبل بين الجنة والجحيم ، إنما لديهما أذرع يستخدمانها ليحررا بها نفسيهما . الوضع مختلف بالنسبة إلى الفرس ، إلى الرمادية ، إذ لديها أربع قوائم رشيقة ومتناسبة مع وزن جسمها الذي يستند باعتدال على تلك القوائم الأربع ، وهي تنزلق بسهولة ، وتقبع حيث هي على بطنها ، عالقة تمامًا . وبالتالي على ينز أن يسحب وعلى الفتى أن يدفع ، يغوصان في الثلج وينزلقان ، والفرس تجاهد ، وهذا صعب جدًا لكنهما يتدبران الأمر بطريقة عجيبة ، تتحرر الفرس ، لكن لا تتحرر إلا لتعلق ثانية بعد بضع خطوات أخرى . تهتاج الريح ، ها نحن الآن نقضي وقتًا مرحًا تقول ، تعوي حول الرجلين والرمادية ، الرمادية التي ما عادت تتصرف بعدائية تجاههما . هذا متعب جدًا ؛ لا هما ولا الدابة يقدرون على تحمل ترف التصرف بعدائية ، ليس في وسعهم تحمل أي شيء ما عدا جرش طريقهم جرشًا ، ما عدا المقاومة ، يغوصون في أعماقهم ويعثرون على القوة ، يعثرون على دافع للاستمرار ، يعثرون على طريقة لإثارة تعطشهم إلى الحياة . يتحول العرق الذي يخضب الرجلين إلى جلد متجمد كلما حاولا التقاط أنفاسهما ، مسهلاً بذلك الأمر على الريح لتخترق ثيابهما وتقتلهما . هناك مأوى في قمّة القفر ، يصيح ينز ، يضطر إلى الصياح ليتغلب على عويل الريح ، نتوقف عنده وننتظر انتهاء أسوأ ما في العاصفة! لكن متى ينبغي أن نستدير شمالاً؟ يصيح الفتى ، شاعرًا بالارتياح حتمًا للسماع عن كوخ في الأعلى ، ناهيك عن الارتياح لسماع هذه الكلمة : مأوى ، في هذا المكان البعيد عن أي رحمة . بيد أن الخوف من أن تتجاوز قدمه حافة نوبر ، قلقه من عجزه عن ائتمان الأرض يجثم بقوة داخله بحيث يتيبس فزعًا كلما انهارت كومة ثلج . قبل أن نسقط ، يجيب ينز مواصلاً سحب الفرس خارج الثلج ، والفتى

يدفع معاندًا العاصفة ، يدفع مؤخرة الفرس ، فرائصه ترتعد إعياءً ؛ إلى متى يمكن أن يستمر المرء؟ يفكر بذهن شارد ، مشيحًا بوجهه بعيدًا عن الريح ، يدفع ويدفع ويلبط برجليه ، وحينما تتحرر الفرس يسمعانها تطلق نخيرًا مقموعًا ، وإذ تندفع بجسمها عاليًا يقع الفتى ، يخر على وجهه في قلب الثلج ، يستقر هامدًا ويفكر أنه لن يتحرك ثانية مطلقًا ، هذا في الحقيقة رائع ، هو كأنه قد اضطجع تحت الريح ؛ هنا في الأسفل في الثلج كل شيء ساكن . يسمع صوت تنفسه لأول مرة منذ فترة طويلة ، وهذا جيد ، هذا رائع . إذًا هكذا أتنفس ، يفكر ، بل هو نادرًا ما شعر هكذا أيضًا ؛ ما أهمية كتفي ضوء القمر ، ما أهمية الكلمات ، ما أهمية المعرفة بالمقارنة مع هذا الشعور ، هذه السكينة؟ إن عنف العالم وقسوته يكمنان فوقها تمامًا ، ومع ذلك هو في أمان مطلق .

إنما ليس لوقت طويل .

يستله ينز بعنف من مهجعه الطري ، ينتزعه خارج السكون ، وإذا به يقف مرة أخرى على قدميه في الريح اللاذعة ، في عاصفة ثلجية تعمي البصر ، في الصقيع المهلك ، يخضه ينز ويهزه مثل كيس فارغ . طيب ، طيب ، يقول الفتى بارتباك ، كفى توقّف . لكن ينز لا يتوقف ، بل حتى يلحف أكثر في خضّ الفتى ، يقول شيئًا ، ربما يقول الناس لا يموتون طالما هم معي ، بيد أن استيعاب ما يقال صعب جدًا بينما المرء يُخضّ على ذلك النحو المسعور ، بل أيضًا لا يطاق مطلقًا . بل ذلك كله لا يطاق ؛ الثلج والجبل والريح ، لا يطاق إلى درجة أن الغضب يملأ الفتى ، يطفح فيه ، فينتزع نفسه بعيدًا ثم يهاجم ينز بقبضتيه المُقفزتين ، مرتين ، ثلاث مرات ، أربع مرات ، ويفلح ينز في تفادي الضربات لكن الرمادية تحدق في الرجلين بعينيها الكبيرتين ويبدو أنها تفكر في شيء ليس في صالحهما . ثم يذهب عن الفتى غضبه ، فجأة كما جاء ، ويقول ينز بنبرة هادئة ، سنستمر في

التقدم ، لن تنبطح على الأرض ثانية . لا ، لا ، يجيب الفتى بالهدوء نفسه ، كما لو أنهما شخصان يجريان محادثة عرضية في الطريق ، بعيدًا عن الخطر والعاصفة والهاوية . وبهذا يتابعان شق دربهما .

لن يلبث الغسق أن يدركهما بالتأكيد . والليل بلا ريب سيعثر عليهما هناك في الأعلى ؛ على الأقل يظهر أن السماء تحيطهما بقليل من العتمة ، هذا إن لم يكن الإنهاك هو ما يجعل كل شيء أكثر إعتامًا ، ومع ذلك يتابعان طريقهما بدون تفكير ، إنما ما الداعي لفعل ذلك على أي حال؟ العالم بسيط على نحو مؤلم جدًا هنا في الأعلى ؛ المرء يفقد كل حزنه وحيرته وشعوره بالذنب وخزيه . في الحقيقة لا شيء يزعج الفتى إلا الإعياء طبعًا ، والهلع المستمر من المنحدر. يدفع الفرس بحزم ، وهو على أهبة الاستعداد لأن يرتمي إلى الخلف إذا انهارت الأرض تحته . لمرتين يتبدى له أن ينز والفرس يتبخران فيتيبس في أرضه ، بل حتى يتهيأ له أنه قادر على سماع البحر على بعد مئات الأمتار في الأسفل ، وعلى الأحساس بجذب المنحدر المظلم له ، إلا أن العاصفة تعيد إظهار ينز والفرس على بعد مترين أو ثلاثة أمتار أمامه . يزداد المنحدر حدّة ، يصعدان نحو منبع العاصفة التي تغدو أكثر عتوًا ، بيد أن الريح ما عادت تهب عليهما مباشرة بل أصبحت نوعًا ما تهب جانبيًا . هل بدلت الريح اتجاهها؟ يسأل . لا ، يصيح ينز ، الفرس تعرف الطريق واستدارت! استدارت بعيدًا عن الهاوية ، يفكر الفتى ، والشعور بالارتياح يستولي عليه ، فالدنيا لا يمكن أن تكون أفضل من هذا ، وهو مبارك . هناك بكل وضوح حدود قليلة العدد لرحمة العالم العطوفة ، لأن ينز يستند مؤقتًا على الرمادية ، يلتفت نحو الفتى ويصيح ، إننا على الأرجح نقترب من المأوى!

مأوى!

أفضل كلمة في العالم!

بامتنان يدفع الفتى الفرس التي ستنقذهما للمرة الثانية .

مأوى .

بنى الرجال الطيبون هذا الكوخ في الأعلى قبل عدة سنوات ؛ رجال يهتمون بأمر جيرانهم ، يقدّرون الحياة ولا يريدون أن يموت الآخرون في الشتاء هنا ، أو حتى في الصيف ، فالعواصف تهب على الجبال على مدار السنة ، نحن لسنا آمنون أبدًا ، ولا حتى في كنف أشعة الشمس في شهر حزيران ، بنوه عند قمة الجبل حيث الجو أسوأ ما يكون ، وحيث الأمل بالرحمة أقل من القليل . بنوه لينقذوا الأرواح ، وليحولوا دون أن يصبح الناس أشباحًا . عبور الدرب هنا عسير بما يكفي من غير إضافة مطاردة الأشباح ؛ التعامل مع العواصف صعب ، ويزداد صعوبة مع مقاومة الأشباح . الأمر هو نفسه دائمًا ، الإنسان خصم أكثر خطورة من قوى الطبيعة . يمضيان قدمًا ، وملامح ينز يستحيل تمييزها ، وجهه مكسو بالجليد ويحتاج إلى تكسيره من على أنفه وفمه بانتظام كي لا يختنق . مع ذلك هنا يشعر أنه بأحسن حال ، هنا ينمو ، يكتشف ذاته . في الأرض المنخفضة هو صامت وتعوزه اللباقة ، ميال قليلاً إلى معاقرة الخمور وربما يعاني من ضعف الإرادة ، أما هنا في الأعلى ، على ارتفاع ما يقارب سبعمئة متر ، يحيطه الجو المكفهر ، الحياة من ناحية والموت من الناحية الأخرى ، يشعر أنه في بيته ، هنا في الأعلى يزدهر . هو متعب ، ربما ، لكن أبعد ما يكون عن الانهيار ؛ هو متعب لكنه يستطيع حمل الفتى إذا دعت الحاجة ، خلال المساء والليل بطوله . وهذا بمجمله محزن قليلاً ، محزن أن لا يزدهر هذا الرجل في أي مكان إلا بعيدًا عن التجمعات البشرية ، بعيدًا عن الحياة في الحقيقة . أيمكن المرء وهو لا يتوهج في أي مكان ما عدا في الخطر المهلك أعلى الجبل ، أن يجد السعادة وتكون له حياة في الأسفل ، حياة تتخللها لحظات هادئة وكلمات لطيفة وقُبل وعيون وديعة؟ ينظر الفتى إلى ينز ، يستشعر قوته ، ثقته ، ويستمد شجاعته منه

ويعلق أمله على هذا الرجل الذي يزداد عظمة في العاصفة ، يجر الفرس ، يحثّ الخطى أمامهما ، يشق دربًا ويسهل الأمر على الفرس والفتى ليتبعاه . بيد أن الأشياء جميعها تغدو متعبة أكثر . مضت عليهما على الأقل عشر ساعات وهما يرتقيان المرج ، والأمس لم يكن سهلاً ، فقد كاد البحر يأخذ ينز ، وما أطلق سراحه إلا مؤقتًا ، هذا تقريبًا كما لو أن ساعي البريد يسمع البحر أحيانًا من وراء العاصفة ينادي : أعرف أنك هناك في الأعلى ، وفي مرحلة ما ستعود وتنزل إلي! يزلّ الفتى ، يكافح ليتماسك على قدميه ، ترفع الفرس رأسها وتقف بلا حراك دقائق طوال ، تضربهم الريح ، يهاجمهم الثلج وتتخدر روحهم القتالية ، لولا المأوى لرغب الفتى في الاستسلام . إنها روعة لا توصف أن يعرف عن المأوى ، لا شيء يضاهيها ، سوى ربما الإيمان بالقدير والجنة أثناء التعرّض لمحن الحياة . ذاك الذي ينعم بالإيمان لا يُكسر أبدًا ، ذاك الذي ينعم بالإيمان لديه مأواه الخاص . وعدٌ بملجأ يمنح المرء قوة لا حدود لها . لكن ، كم يبعد المأوى؟ ونحن نسأل الآن بناء على الدقائق لا الأمتار ، قياس المسافة بالأمتار هو طبعًا عديم الفائدة ؛ خمسئة متر يمكن أن تعني ما بين عشر دقائق إلى أربع ساعات ؛ هل بقيت أمامنا مسيرة نصف ساعة أم ست ساعات؟ عساها ليست ست ساعات ، لأن المرء في هذه الحال ربما يُستحسن أن يستلقي أرضًا ويموت ، يستسلم ، يمتزج بالبياض ويختفي في أحضان السكينة . بقيت أمامنا نصف ساعة على الأغلب ، يصيح ينز ، مقتربًا كثيرًا من الفتى بحيث يميز الأخير بقعتين سوداوين صغيرتين في وجه ساعي البريد : يميز عينيه ، كالحتي السواد ، ومعًا يغوصان لينتشلا الفرس من جديد ، ويخففا حملها بتنحية حقائب البريد للمرة المئة ، وبالتالي يجران الحقائب الثقيلة أو يحملانها إلى أن تتحرر الفرس ثانية ، ثم يحكمان ربط الحقائب عليها على أمل أنها لن تغوص في الثلج مرة أخرى ، وهذا بالطبع تفاؤل سخيف ، لكنه ربما مبرر لأن القوى الكائنة انحازت لهم ، كافأتهم على

مثابرتهم ، فقد تشكلت قشرة من الجليد على الثلج تحت الثلج الجديد المتساقط حينما صعدا إلى علو شاهق ، إلى بقعة أقرب ما يمكن من السماء ، قشرة على الرغم من هشاشتها تحملت في البداية ثقل الرجلين ؛ أما الفرس فما فتئت تغوص ، وعلقت مرتين بسرعة كما حدث سابقًا ، وهكذا يضطران إلى النزول على أربعتهما ليكسرا قشرة الجليد من حولها لئلا تجرح الحواف قوائمها ، إلا أنه من الرائع بما يفوق الوصف أن يكونا قادرين على المشي على أرض صلبة من غير أن يغوصا مع كل خطوة ، إلى درجة أن ذلك يشيع فيهما الشعور بسعادة مطلقة . تعصف الريح على الدنيا وتحول الثلج المتساقط إلى مطر ثلجي يخدش الجلد ؛ ويرغَم الرجلان على النظر إلى الأسفل كما لو أنهما يفعلان ذلك من منطلق التواضع ، بيد أن الشعور بالارتياح لا يفارقهما ، والقشرة الجليدية تزداد صلابة وسرعان ما تتحمل ثقل الفرس والرجلين ، الآن لا يحتاجان إلا إلى التزام جانب الحذر لئلا يسمحا للريح الجانبية الملحاحة أن تحرفهم عن المسار الصحيح . بين فينة وأخرى يرفع الفتى رأسه وينظر ، يتأكد من أن الفرس ما زالت أمامه ، يتأكد من أنه ما زال يستطيع لمح ينز ، ثم يعود ويطأطئ رأسه قبل أن يؤذي المطر الثلجي عينيه . وأخيرا ترفع الرمادية رأسها وتصهل برفق . يلتفت ينز ويسفر الفتى عن شيء يشبه الابتسامة من وراء قناعه الجليدي . إنه المأوى . لقد كُتبت لهم النجاة . إذًا هناك عدالة في هذا العالم .

باركهم القدير ، أولئك الرجال الكرماء الذين كانوا جدّ قلقين على أرواح جيرانهم فشيدوا المأوى ، هذا الملاذ العالمي ، هنا في القمة ، على طول الدرب إلى الأعلى ، مقابل السماء حيث الرياح على أشدها إلى درجة أن الثلج نادرًا ما يطمر الكوخ أو يخفيه عن أعين البشر . طبعًا هو مجلل تمامًا بالبياض في اللحظة الراهنة ، ومع ذلك يميزانه بوضوح ، يلمحان جملونه من بين المطر الجليدي المنهمر ، هناك وراء الثلج العاصف ، واجهة بنوافذ صغيرة ،

كأنما الكوخ يسترق النظر إلى العاصفة بحثًا عن أرواح ضائعة وفزعة ويدعوهم إليه . هو ليس كبيرًا بالتأكيد ، ومن الملائم في الحقيقة تسميته سقيفة ، لكنه هنا يماثل القصر . ينجحان في الوصول إلى ما تحت الجملون ، وهناك يشعران بإعيائهما ؛ يهاجمهما مثل لكمة ، يشهقان طلبًا للنفس ويغدو كل شيء مظلمًا للحظات ، كما لو أنهما قد استهلكا آخر قطرة من قوتهما لبلوغ الملجأ ، ستكون روعة لعينة ، بل تقريبًا روعة تتجاوز المنطق أن يدخلا ، يستلقيا ، يقضما زادهما ، يستمعا إلى العاصفة تزأر حول المأوى ، مغلوبة على أمرها وحانقة لأنها أضاعت الرجلين والفرس . الآن يحتاجان إلى الالتفاف حول الزاوية ليعثرا على الباب ، على ضمّة الكوخ الرحيمة . الريح كامنة تترقب عند الزاوية ، وتقبض على الرجلين والفرس في الحال ، راغبة في قذفهم نحو العراء ، بيد أنهم يرفضون أن يقذفوا بعيدًا عن الملجأ ، عن السعادة والاستراحة . لقد نجونا! يصيح الفتى بمعنويات عالية في وجه الريح عندما يلمح أطر الباب ؛ وأكثر ما يتوق إليه أن يعانق ينز والفرس ويطلق عليهما أسماءً جميلة . لا ، لم ننج ، يقول ينز ؛ ولا يحتاج إلى قول أكثر من ذلك . لم تكتب لهم النجاة مطلقًا ، فقد مضى زمن طويل منذ أن اقتلعت الريح باب الكوخ ، وحطمته . يحملق الثلاثة ؛ الرجلان والفرس ، في المأوى الذي تكدس فيه الثلج والجليد إلى ما فوق منتصفه بقليل ؛ فتحول بذلك إلى ثلاجة ، ولن ينقذ أحدًا من العاصفة ، لكنه بالتأكيد مكان ممتاز لتخزين اللحم وجثث الأموات .

يتراجع الثلاثة إلى جانب الكوخ المستتر ؛ هكذا هي الحال إذًا : في وسع الرجلين أن يختارا البقاء هنا ، أن ينتظرا انتهاء أغلب ما تحمله العاصفة من غضب ، وربما يتجمدان حتى الموت ، يموتان هنا في الأعلى إزاء هذا الكوخ بكل ذكرياتهما ، بكل أحلامهما بحياة أفضل وأنعم ، مع كل هذا البريد الذي يقع عاتق مسؤوليته عليهما ، أو يمكنهما أن يتابعا التقدم ليحاولا بلوغ

القرية وهما على قيد الحياة . في النهاية يقرران أن يأكلا أولاً . يأكلان من الزوادة التي أعدتها لهما هيلغا قبل ما يقل عن أربعين ساعة مضت ؛ هناك طاقة في اللحم المجمد ، يقضمان ويمضغان ويتشربان الطاقة . تحشر الرمادية رأسها بينهما وتحصل على كسرة من الخبز . يتبادل الرجلان بضع كلمات أما الرمادية فصامتة ، عيناها نصف مطبقتين . تهب الريح ، تعوي وهما عند الملجأ الوحيد في منطقة شاسعة ، ستار هزيل لرجلين وفرس ، لا يحتاج الرجلان إلا إلى مدّ أيديهما فقط ليستشعرا البطش ؛ بطش الريح القطبية التي تبدو حانقة على كل ما هو حي . اللعنة ، يغمغم ينز وهو يخرج قارورته .

اللعنة : لأن الباب اقتُلع من الكوخ ، والكوخ يحتله الجليد والموت .

اللعنة : لأن العاصفة عاتية جدًا بحيث لا يكاد المرء يستطيع الوقوف منتصبًا في العراء ، ناهيك عن المشي ، بيد أن هذا ما عليهم أن يفعلوه إذا كانوا يريدون بلوغ القرية .

اللعنة : لأنهم على ارتفاع سبعمئة متر .

اللعنة : لأنه ظمآن من تناول اللحم ومن المشقة . الظمأ هو أسوأ عدو في مثل هذه الرحلات . أمر لا يطاق أن يجد المرء نفسه في منتصف الشتاء ، ولا شيء حوله سوى ماء متجمد ، ومع ذلك يلازمه الشعور بالظمأ . ممكن طبعًا أن يسحن الثلج بين أسنانه ، غير أن هذا لا يؤمّن إلا غوثًا مؤقتًا ، إذ يعمّق الشعور بالبرد ، ويترك المرء بعد ذلك ظمآن كما كان .

اللعنة : لأن شعوره بالبرد نذير سوء ، فهو لم يفلح في أن يتدفأ كما ينبغي منذ أن قفز إلى البحر ، سمح هلعه للبرد بالدخول ، برد متجذر لا أحد يمكنه أن يرتدي ما يصده . الشيء الوحيد الذي ينفع هو أن يبقى المرء في حركة دائمة ، أن يكافح خلال الثلج والريح . كلما أطال البقاء هنا يغدو إحساسه بالبرد أصعب ؛ نصف ساعة زيادة ، أو أربعون دقيقة ، يموت أو

يصبح في عداد الأموات .

اللعنة : لأنه الآن ليس مسؤولاً فقط عن نفسه وعن البريد ، بل أيضًا عن فرس رجل آخر وعن هذا الفتى الجاثم إلى جانبه يحدق في العتمة شاحبًا من البرد والإعياء .

اللعنة : لأن زيادة على كل ذلك ؛ زيادة على الارتفاع الذي يقارب سبعمئة متر ، والبرد والإنهاك والعطش والمسؤولية يفتح الفتى فمه ويبدأ في الكلام . أولئك الذين يتكلمون كثيرًا ليسوا رفاق سفر مناسبين ؛ هم يستسلمون بسرعة .

يتحدّث عن أخته . اسمها ليليا ، وهذا اسم جميل بالتأكيد . لا ، كان اسمها ليليا ، هي ميتة ، وهذا بالطبع مؤسف ، يستحيل إنكار ذلك ، لكن من ليس ميتًا؟ ثمّ يبدأ الفتى في التحدث عن أبيه ، هو ميت أيضًا ؛ يتحدث عن أمه ، وهي كذلك ميتة . اللعنة ، هؤلاء القوم سريعو الزوال ، إذًا لا أحد ما زال حيًا؟ أخيرًا يصمت ، وهذا جيد ، إلا أنه فجأة يسأل من العدم ، أتعيش وحدك؟ أنا؟ يقول ينز مستفهمًا ، كأنما هناك أحد غيره قد يجيب . نعم أنت . لا . أوه ، ظننتُ هذا . ظننتَ ذلك؟ نعم . طيب لا بأس ، يقول ينز ، بنبرة ليست عدائية بمجملها ؛ فهذا الفتى قد فقد الكثير بحيث لا يكاد يكون هناك مجال لإساءة معاملته . أنت لا تعيش وحدك إذًا؟ لا . هذا جيد . ماذا تعرف عن ذلك؟ أعتقد أنه من السيئ أن يعيش المرء وحده ، أعتقد أن هذا لا يناسبه ، يحتاج القلب إلى أن ينبض من أجل الآخرين ، وإلا يكتسحه الصقيع . أوه ، حسنًا . أيعيش ذويك معك؟ ما أهمية ذلك؟ يسأل ينز وقد كفّ عن الشعور بكثير من الأسف على الفتى . لا أدري ، أفترض أنه مهم في كل شيء ، ذاك يعني أن هناك أناسًا كثرًا أحياء . أبي يعيش معي ، يقول ينز ، مستاءً من بوحه بالكثير ، إلا أنه ليزيد الأمور سوءًا أضاف ، وكذلك أختي . أنتم ثلاثة إذًا ، يقول الفتى بسرور سخيف ، ما اسم

أختك؟ اسمها هالا ، يقول ينز ، وما فعل ذلك إلا لتوقه إلى نطق اسمها ، ليشعر بدفء البراءة . هالا ، يكرر الفتى ببطء ، اسم جميل . أولئك الذين يتكلّمون في سفرات كهذه يجب أن يبقوا في الأراضي الواطئة ، يقول ينز وهو يقف ، يشعر بالبرد اللاسع في كافة أنحاء جسمه ويحاول تجاهله ، يمسك اللجام ويخطو نحو الريح .

أو يلج فيها . الريح تهبّ بعنف بالغ بحيث أن الحس العام يملي على المرء أن يزحف ؛ يمتاز البشر عن الدواب في أنهم يمكن أن ينبطحوا أرضًا ويحولوا أنفسهم إلى أفاعي ، لكن ينز يرفض أن يبالغ في الانحناء ويواجه الريح منتصب القامة ، والفرس تتبعه . بصعوبة يتقدم الفتى في أعقاب الفرس حيث هو مستتر بعض الشيء ، تعبه الذي بهت بقدر لا بأس به بفضل الستار الواهي والطعام ، عاد إليه مضاعِفًا وهن ساقيه . الريح تهتاج ، والبرد يلفح وجهه ، ينزلق مخترقًا ثيابه ويجمّد فيه كل شيء ، عضلاته وأفكاره وذكرياته . مع ذلك لا يبدو أن محيطهم ضدهم ، فالثلج حيث هم شديد التماسك إلى درجة أنه يدعم ثلاثتهم . من يدري ، ربما ينجحون في النزول والوصول إلى القرية ، إلى الأسفل والأرض المأهولة بالناس ، إلى الأسفل حيث الجالية وبيت قسيس فييك .

الحياة ، على كل حال ، بسيطة نوعًا ما . أولئك الذين يضعون قدمًا أمام أخرى ، ثم يعكسون الآية ويكررون ذلك بما يكفي ، يصلون في النهاية إلى وجهتهم ؛ إذا كانت لديهم أي وجهة مطلقًا . هذه إحدى حقائق هذه الدنيا . لكن بالنسبة إلى هذين الرجلين اللذين في الأعالي يقطعان المروج الجبلية ، في عاصفة ثلجية تعمي البصر ، يعانيان من العطش وفي منتهى الإعياء ، والبرد يضغط ببطء وبالتدريج على قلبيهما ، بالنسبة إليهما لا تختلف الحقائق عن أي هراء آخر . لأنهما ، كما ترون ، مضت عليهما ألف

سنة وهما يجتازان هذه المروج الوعرة، وفي هذه الأثناء جاءت أجيال ثم مضت إلى ما تحت الأرض، ونشبت الحروب في العالم، بلدان أُنشئت وذوت، جِراء قفزت في الهواء ثم حطّت ككلاب نصف عمياء، وشخص ما انحنى فوقها ومعه سكين حادة. طوال هذا الوقت ما فتئ رجلان وفرس يتثاقلون قدمًا في العواصف الثلجية المضللة، ثلاثة مخلوقات في طريقها إلى مكان يبدو باستمرار أنه يتراجع إلى الوراء. لكن الصعوبات واليأس وحدتهم؛ حبل متين يمتد من الرجل في المقدمة، يمر عبر الفرس ومحكم الوثاق بالشاب في المؤخرة. يتوغل المساء في كل شيء حولهم، لكن الحبل يربطهم معًا، وفي لحظة ما يعثرون على ستر مناسب. يتنهد الفتى أما ينز فلا يفعل، بدلاً من ذلك يجاهد فترة ليخرج قارورته من سترته، يتناول جرعة كبيرة، يناول الفتى القارورة، والفرس بينهما لا تحصل على شيء. يستمعون إلى الريح تزأر حول الصخرة، كامنة تنتظرهم. كم عمرها، أختك، هالا؟ يسأل الفتى بينما ينز يأخذ جرعة ثانية، وربما بسبب المشروب، المشروب اللعين الذي يجعل الكثير في الحياة قبيحًا، أو ربما بسبب سماع اسم هالا، هناك في اصطخاب العاصفة، بعيدًا عن الآخرين، يجيب: هي في الثامنة والعشرين. كما لو أن للفتى أي شأن بهذا. ولم تتزوج مطلقًا؟ يعود الفتى ويسأل. ماذا؟ يقول ينز مستاءً. لم تتزوج مطلقًا؟ أوه لا! ولن تتزوج أبدًا. ما يجعلك واثقًا جدًا من أنها لن تتزوج؟ لا يجوز بتاتًا أن تقول شيئًا كهذا، المرء لا يعرف أبدًا ماذا يجلب المستقبل. هي بلهاء، يجيب ينز بحدة. هذا مؤسف، أنا آسف، يتمتم الفتى كأنما وجود هالا كان أمرًا محزنًا، خيبة أمل مطلقة. مؤسف، وأنت آسف، يقول ينز، تبًا، على ماذا، ما أدراك بحالها؟

يتنحنح الفتى ، يستجمع شجاعته ، وماذا عن أبيك؟ يقول . فيجيب ينز وهو ينهض لينطلق مجدّدًا قبل أن يتاح للفتى الوقوف ؛ هو شيخ طاعن في السن .

*

تبدأ الأرض في الانحدار ، انخفضت درجة ارتفاعهم وعادوا يغوصون في الثلج ثانيةً . الريح التي ما فتئت تعصف منذ وقت طويل تجعل رأس الفتى يطن ، وتجعل البرد يعشش في رئتيه ، وتفقده الإحساس بالاتجاهات ، بحيث يختفي كل شيء من حوله ما عدا الثلج والعاصفة . مع ذلك ما عادت أقدامهما تطأ تضاريس جرداء وصخورًا صماء ، بل بعض حزم الأعشاب والحشيش التي تحلم بالخضرة وأزيز الذباب ؛ أليست هناك راحة مؤكدة في إدراك المرء أن مثل هذه الأشياء تحت قدميه ، ألا يجب أن تكون دليلاً على وجود عالم ألطف قليلاً؟ من الناحية الأخرى ، الثلج يتكوم هنا بمزيد من السهولة ، وهو أكثر طراوة ، وعليهما أن يحررا الفرس من حقائب البريد من جديد ، ويشقا ممرًا لها ويجرّا الحقائب خلفهما . الليل يدنو ببطء وثبات ، والموت يدنو ببطء وثبات . ذلك الشيء الخفي ، المترصد أبدًا ، يسرق الذرر ، يدخر القمامة ، أنفه لا يحيد عن أي شيء ، ويرسل الإعياء والبرد واليأس ، يوفد أمامه أربعة كلاب متوحشة تتشمم كل ما هو حيّ في العواصف العاتية . النزول سريع هنا ، يقول ينز وهو يرتاح بعد انتشال الفرس من منخفض آخر ؛ يعيد ربط حقائب البريد عليها ، والفتى يلاحظ أن حركات ينز قد تصلبت وأنها أضعف . تتنفس الرمادية بصعوبة وأحيانًا يتكئ عليها ينز طلبًا للدعم ، كما لو أنه يفعل ذلك بطريقة عرضية . يتابع الرجلان المضي ، وينحدران بسرعة . تقود الرمادية الطريق ، ساقا الفتى تزن كل واحدة منهما مئة كيلو . لن يلبث أن يزيد الوزن إلى مئة وخمسين كيلو ،

وحينها لن أفلح في الاستمرار إلا بصعوبة ، يفكر ، لكن بعد ذلك بقليل يميزان بيتًا . لقد وصلا .

أو تقريبًا .

هو في الحقيقة ليس البيت الذي يريدانه ، بيت القسّ في فييك الذي يعتبر أيضًا مكتب بريد ومسكنًا مؤقتًا لساعي البريد ، وفيه علف للفرس وماء وملاذ من الجو القاسي . لا لا ، يقول المزارع عند باب بيته ، نصف نائم ، لأن الليل يخيم على المناطق السكنية ؛ أما هما فقد كانا في القفر ، في غمار عاصفة مظلمة ، والوقت هناك مختلف . يلاحظان النعاس في عيني المزارع ، يتبينان حركة طفيفة في محيط بؤبؤي عينيه ، حيث أحلامه في طريقها إلى التبخر . قرعهما على الباب أيقظ الكلاب ، التي انتفضت تنبح في الممر المعتم وأيقظت أهل البيت . بيد أن الكلاب لا تغامر بالخروج إلى العاصفة ، فقط تتشمم بفضول الناحية التي يقف فيها الرجلان والفرس ؛ تظهر أطياف عدة وجوه على مسافة أبعد في ظلمة الممر ؛ قرع على الباب في الليل هو أخبار مهمة ، والمرء لا ينبغي أبدًا أن يبقى نائمًا خلال ذلك . هذه ليست فييك ، يقول المزارع شبه مبتسم من الفكرة التي قد تخطر على بال أحد ؛ مَن يفترض بي أن أكون حينها؟ القسّ؟ يضيف مستصعبًا كما يبدو الامتناع عن الضحك ، فهذه خاطرة طريفة جدًا بالنسبة إليه ، وفي منتهى السخف ، وهكذا تتلاشى الأحلام من بؤبؤيه ويتنبه تمامًا . لا يظهر على الرجلين والفرس أنهم مستمتعون هم أيضًا ، لعل القدير نسي أن يهبهم حسّ الفكاهة ، ينظرون بتجهم إلى المزارع ؛ الرجلان يقفان بسيقان متباعدة كما لو أنهما يخشيان أن يفقدا توازنهما ، هما مجللان بالثلج والجليد ولا يمكن تمييزهما ، إلا أن المزارع لا يعرفهما على أي حال ، لم يسبق له قط أن رآهما ، لكنّه يعرف الفرس ؛ نعم ، يميزها ، يميز العينين النزاعتين إلى التأمل ؛ أليست هذه الرمادية؟ يسأل ، ويهز الرجل الضخم رأسه إيجابًا . أحضرتما البريد إذًا ،

ماذا فعلتما بغودومندر؟ هو مريض ، يجيب الرجل الضخم ، الآخر لا يقول شيئًا ، ومعًا يحدقان في المزارع الذي يقول وهو ما يزال نصف مبتسم ، يفترض أن تذهبوا إلى هناك ، ويشير نحو الشمال ، كما لو أنه يدلهما على الطريق إلى الجحيم . إنها مسافة كيلومترين فقط ، يضيف . الرمادية تعرف الطريق ، يقول عندما لا يأتي الرجلان بحركة ، يكتفيان بالوقوف هناك كأنهما ميتان ، ويحدقان فيه . لا بد من أنكما ظمآنان ، يقول صوت من الممر ، صوت يعرفه أكثر من أي شيء آخر في العالم ؛ صوت زوجته التي بدونها لن يكون إلا مجرد أجير بائس في أفضل الأحوال . بامتنان يقبل الرجلان الحليب الذي تناولهما إياه ، يبتلعانه ، لكن الفرس لا تحاول حتى أن ترفع رأسها ، ربما بدافع المجاملة ، كي لا تجلب الانتباه إلى حقيقة أنها هي أيضًا ظمآنة . في وسع زوجي يون أن يأخذكما ، تقول المرأة . شعرها الطويل لامع كالشمس ، اليدان اللتان حملتا الحليب متشققتان من العمل ، بينما في وجهها الدقيق الذي جوّته الرياح تجاعيد تمتد من عينيها مثل أشعة الشمس . محن الحياة تذل بعض الناس ، بينما يصبح غيرهم أجمل ؛ هذه المرأة في غاية الجمال إلى درجة أن الفتى ينسى نفسه وهو ينظر إليها ، وزوجها الذي يدعى يون يصحو أحيانًا في الليالي المقمرة الوضاءة ليتأملها فقط مسحورًا بنعمة القدير ، هذا مع أنهما عاشا هنا معًا خمس عشرة سنة صعبة . هذا ليس ضروريًا ، يجيب الرجل الضخم المرأة ، شكرًا جزيلاً ، ما دامت الفرس تعرف الطريق سنكون بخير . ما اسم هذه المزرعة؟ يسأل الرجل الأقصر من رفيقه بعد أن استعاد صوته ، مع أن وقعه بدا مبهمًا قليلاً ومتضررًا من الصقيع . سفرتيساتير ، أي المزرعة السوداء ، تقول المرأة مبتسمة ، ربما لتخفف من الظلمة الكامنة في الاسم . إنه اسم جميل ، يقول الفتى ، فينظر الجميع إليه متفاجئين .

اسم جميل؟ يزمجر ينز بحدة وسخرية بينما ينطلقان عائدين إلى قلب

العاصفة ، نحو الشمال ، كأن مهمتهما أن يكتشفا منبع الشتاء ، وأن يسدّاه بحجر ضخم . أحيانًا لا تكاد الحياة تكون ممكنة في هذه البلاد ، البرد يحبس شيئًا داخلنا ، قسوة الظروف تجعلنا أخشن ، تعيق بهجة الحياة ؛ تجعل الأمر يبدو كما لو أننا نحتاج إلى مرحلة إعداد لنستمتع بالحياة . تخوض الفرس طريقها خلال أكوام الثلج وأذناها منتصبتان . نعم ، أراه جميلاً ، يجيب الفتى وهو يحدق أمامه مباشرة ، ومركّزًا بقدر ما تسمح له العاصفة الثلجية . يصلان إلى باحة كنيسة بعد عبور النهر الذي ينعطف تحتهما تمامًا من غير أن يلاحظاه ؛ هناك الكثير مما يخفى علينا بسبب الثلج والصقيع ، في الحقيقة الأرض بأكملها تقريبًا . من قد يتوقع أنه في فصول الصيف يجري هنا نهر حالم ودود بين ضفاف من الحشيش ، مع طيور الفلروب تعوم على سطحه ، وطيور الخرشنة تزعق في الفضاء ، وسمك السلمون المرقط يتثاءب في البِرك والتوت يَسودُّ في الشمس؟ بيت القسيس بناء خشبي فخم وليس بيتًا تحت أرضي مثل المزرعة السوداء ، أعلى قليلاً من مستوى الرؤوس ، والسطح يختفي في دياجير العاصفة المظلمة . يطرق ينز الباب بقوة ، يطرقه غريزيًا بقوة لأن البرد بدأ يقضم طريقه نحو قلبه ، كما لو أن سدًا قد تحطم فجأة . يطرق بشدّة ، مستخدمًا بقايا قوته ليجعل طرقه مسموعًا في الداخل . يطرق ثانية ولا يسمع ردًا . ربما ليس هناك كلب في البيت لينبح . اللعنة ، يغمغم ينز ويترنح ، يضع ذراعه على الفرس ولا يحاول حتى رفع رأسه عندما يُفتح الباب أخيرًا ، ويظهر رجل في المدخل ، متردّدًا متقهقرًا إلى الوراء وغير راغب في فتح الباب على مصراعيه حتى لا يسمح للعاصفة بالدخول . ساعي البريد ينز ، ورفيقه ، وفرس ، يقول ينز من غير أن يرفع رأسه ، صوته أجوف ومسطح ، والقسّ يرد ، لأنه في الحقيقة هو المعني ، القسّ كيارتان ، كيارتان الفرنسي . هذا ما أحبه ، يهتف ، بريد ورفقة ؛ عظيمة رحمة الخالق!

٦

يمكن أن يقف المرء منتصب القامة وقتًا طويلاً إذا كان الأمر مسألة حياة أو موت ؛ إرادة الحياة هي تقريبًا بلا حدود ، وينز ما زال على قدميه طوال هذه الرحلة ، سبعمئة متر صعودًا ، عاليًا في كنف الثلج والصقيع ، والريح العاتية ، نحو سماء منذرة بالوعيد ، ثم نزولاً ثانية ، والغوص في البياض مع كل خطوة ، يسحب الفرس من الحفر ، ينهكه الظمأ كما لو أنه في الصحراء . مرهق بعد الرحلة البريدية الطويلة من دالير ، ثم عروجه على الريف اللطيف حيث والده ينحني للزمن وأخته يوم صيفي مشرق ؛ متى يأتي ينز؟ تسأل ثلاثين مرة في اليوم ، تسأل أربعين مرة في اليوم ، وأبوها يرمق العاصفة بقلق ، تلك التي نهشت قضمات أكبر من ساعي بريد واحد ؛ على امتداد ذلك الطريق بأكمله يقف ينز على قدميه ، شامخًا ، لا يدعم نفسه بالفرس إلا خلال الكيلومترات الأخيرة ، بعدما جرده قرّ البحر المعشش فيه من قوته كلها . بيد أن الرجلين لا يلبثا أن يصلا إلى بيت ، هو ليس وجهتهما الأخيرة طبعًا ، فالوجود ليس كريمًا جدًا ، إنما بلغا مكانًا ينالان فيه قسطًا من الراحة ، ولهذا السبب لم يكن وقوفه منتصب القامة جذريًا تمامًا ، ولن يكون في الاسترخاء فترة قصيرة موت محتم . يفلت ينز الفرس ، يربتها ، يدخل البيت ، ببطء ولكن بقامة مستقيمة ، يخطو نحو السكون ، ثم كأنما نُسفت ساقاه اللتان تدعمانه ، يغدو لا شيء سوى كومة لا شكل لها على الأرضية . اللعنة ، أين كرامتك ؛ ألست رجلاً أكثر من هذا؟ يفكر . كان الفتى في هذه الآونة قد دخل وجثم قرب ينز قبل أن يدرك كيارتان ماذا

حدث ؛ كيارتان الذي شعر بكثير من الامتنان والعرفان لليل بعد أن أرسل له هذه الرفقة ، مع أن أحد الرجلين منبطح كأنه ميت على الأرضية ، وغير صالح بأي حال من الأحوال لتبادل الأحاديث معه . يشتعل كيارتان غضبًا فجأة ، ثم يستعيد هدوءه ويشعر بالمسؤولية ؛ فالرجلان على الأرجح قد قطعا المرج ومعهما البريد ، وفعلا ذلك في هذه العاصفة . ليكن القدير في عوننا ، يقول القسّ كيارتان بصوت مسموع ، ويفعل ذلك لا شعوريًا ؛ فالأيام قد ولت لسوء الحظ وأصبحت على مسافة بعيدة جدًا عندما صدق بإخلاص وبإيمان صاف أن المرء يمكن أن يتوقع العون من القدير . يحاول ينز أن يطلق لسانه بالسباب ، ولا تسفر محاولته إلا عن غمغمة غير مفهومة ، مع ذلك يفلح في أن يتمتم ، اعتنِ بالرمادية ، بصوت واضح بما يكفي ليسمعه الفتى قبل أن يغرق في الصمت . تضرب العاصفة البيت وقليل منها يتسرب من المدخل . ينظر كيارتان إلى الرجلين . كان النوم قد جفاه ، وهذا ليس شيئًا جديدًا ، النوم يراوغه كثيرًا في أغلب الأحيان ؛ وعندما يحاول الاستلقاء ، لا يبدو أنه من المهم كم هو متعب ، بمجرد أن يغمض عينيه يصبح في منتهى التنبه . يتقلب ويتلوى ، يكرر الصلوات وبيوت الشعر القديمة ، يحاول تهدئة أفكاره واستدراج النوم ليأتي إليه ، غالبًا بلا نتيجة ، ينام الآخرون كلهم بينما يبقى صاحيًا ، محرومًا من نعمة النوم ، محرومًا من رحمة القدير ، وهذا ما يبرر له غمغمته بينه وبين نفسه ، تجواله في البيت ، أو جلوسه في مكتبه ، ينشد الرفقة في الكتب وكتابة الرسائل والترجمة ، يرشف المشروب الكحولي ، وتلك اللحظات يمكن أن تكون بالتأكيد طيبة ، لكن جلوسه على ذلك النحو وحده مضجر ، أمسية بعد أمسية ، ليلة بعد ليلة ، سنة بعد سنة ، بينما المرء يشيخ ويزداد اقترابًا من الموت . ثم يظهر هذا الرجلان على غير المتوقع . بوغت كيارتان لما سمع الطرق العنيف على الباب ، للحظة خطر له أن شيئًا دنيئًا قد جاء في طلبه ؛ لا تتصرف كالأطفال ، قال لنفسه ، وقام

بتردد من أمام مكتبه ، ذهب وفتح الباب ، وفي الخارج وقف رجلان ومعهما بريد من أصقاع الدنيا ، هدية من القدير سرعان ما تبين أنها غير مناسبة لأي شيء آخر ما عدا التكوم على الأرضية مثل وحش خامل . لو تجاسر كيارتان لأطلق لسنانه بشتائم جارفة ، لكن الرب على الرغم من كل شيء أسمى من العواصف والبشر ، يسمع كل شيء ، لا ينسى شيئًا ، وفي الآخرة يجمع مستحقاته منّا على كل فكرة وكل كلمة وكل لمسة وكل شاردة وواردة . وجود مثل هذا الإله المتربص بالمرء يمكن أن يكون مضجرًا ومدعاة كآبة خالصة ، وربما نقايضه بشيء آخر حالما يتوافر لدينا ما هو أفضل .

يبدو أن لا أحد هبّ من النوم ساعة وصولهما ؛ الخبط على الأبواب لا يطرأ كثيرًا في هذا النوع من الجو الذي يهز البيوت والسماء التي تعلوها . تسوط العواصف المحملة بالثلج بيت كيارتان ، وأهل البيت نائمون بعمق بغية نسيان الريح المحتدمة . مات الكلب من الشيخوخة في الخريف . أحتاجُ إلى اقتناء كلب آخر ، فالكلاب لا تهجر الناس ، هي تموت فقط ، يفكر كيارتان بينما هو يرتقي الدرج ليوقظ زوجته . ينام كل منهما في سريره الخاص ؛ ما عادت هناك شرارات بينهما ، أخمدت الحياة شعلة النار ، وكذلك فعلت التفاهة المطردة ، والنأي عن العالم والأطفال الثلاثة الذين ولدوا أمواتًا . أما الرابع فعلى قيد الحياة ، شاب فتي يدرس في كوبنهاغن ، ويزداد بعدًا عن أبيه مع كل رسالة . لا يخطر على بال كيارتان أن يوقظ زوجته بقبلة ، مع أن القبل يمكن أن تعوم مثل براعم الصيف في أعماق النوم ، فتصبح الأشياء كلها ألطف للحظة ، والحياة تصبح أسهل . يكتفي بوضع يده على كتفها بحزم ، يضغط مرة ، يضغط مرتين ويقول ، جاءنا رجلان ، وهما منهاران ومشبعان بالبرد والماء . ولا يتطلب الأمر أكثر من ذلك ؛ تفتح المرأة عينيها ، اسمها آنا وأنا قد استيقظت .

في يوم ما تراءى لها أن الحياة ستكون مختلفة وأفضل بكثير . كان من

الجيد أيضًا أن تكون شابة ومتزوجة من كيارتان ؛ ثقافة وكوبنهاغن ورحلة إلى باريس وبرلين ومحادثات وكلمات وسّعت العالم وجعلت النجوم أكثر توهجًا ، قلائل من هم أفصح منه ، من هم أكثر وسامة ، من هم يضاهونه تألقًا ، كانت لهما لحظاتهما معًا التي ما زالت تشرق ، بما في ذلك الآن ، إنما على نحو خافت تحت وطأة السنين المظلمة . خطّطا أن يستقرا في فيبك مؤقتًا ، عدة سنوات فقط عند حدود آخر الدنيا ، لكن مضت عليهما الآن ثنتان وعشرون سنة ومعظم الشرارات التي تشاركاها انطفأت ، مع ذلك يبدو أن آنا ما زالت تتوقع الأفضل في هذه الحياة ، تفاؤلها الجسور يذهل كيارتان أحيانًا . ما الاختلاف الحقيقي ، يفكر ، بين التفاؤل والبلاهة؟ يراقبها ترفّ جفنيها ويلاحظ فورًا مسحة من ابتسامة تلقائية عند زاويتي فمها . تنظر نحوه حيث يقف عند مدخل الباب وتضيق عينيها .

الدنيا من حولها تزداد ظلمة ، بصرها يتقهقر ، عيناها تذويان . في بادئ الأمر غشي الضباب الجبال الشاهقة والمهيبة ، المواجهة للمزرعة ، ثم قمة جبل مريم الذي يتاخم البيت ، ثم بدأت تختفي الكنيسة وباحة الكنيسة ، أما الجبل الذي باركه الرهبان الإيرلنديون قبل ما يزيد عن ألف سنة ، الجبل المسيحي الوحيد في هذه المنطقة ، فيبدو في بعض الأيام كأنه متشكل من الهواء أكثر من تشكله من الحجارة الصلبة ، كما لو أنه في طريقه إلى السماء ؛ كان جبلاً مقدسًا في الزمن الكاثوليكي ، وما زال صيادو السمك في أوقات الخطر ، في محن نداء الموت ، يلتمسون هذا الجبل الذي ظهر للعديد من الرجال خلال العواصف القاتمة وأنقذهم ، كأنما هو قصد البحر ليسترجع منه البشر الضعفاء الفزعين . اختفى جبل مريم من مجال بصرها قبل أكثر من سنة تقريبًا ، وفي الصيف الماضي بدأت الأرض المعشوشبة حول المزرعة تتلاشى ، وهي ما عادت ترى الطيور إلا لمامًا ، الطيور تحولت إلى زقزقة . لكنّها تعرف بيئتها المحيطة القريبة منها ، ويمكن أن تميز معالم الناس الخارجية

إذا لم يتحركوا، وفي وسعها ملاحظة هيئة كيارتان من على بعد بضعة أمتار. لا بد من أن الوقت ليل الآن، تفكر وهي تنبثق خارجة من قاع سحيق، من حلم عميق. سرير كيارتان في الفسحة الصغيرة خارج غرفة النوم مباشرة، مضت عدة سنوات منذ أن ناما معًا، ولا تكاد تتذكر كيف هو الشعور بدفء الجسد الإنساني. إلا أنها تؤمن، لا تستطيع الامتناع عن الإيمان، بأنه عاجلاً أو آجلاً سيشرق العالم، وسينجلي الضباب من عينيها، والظلام سيتبدد من حول كيارتان، وأنه في ليلة ما سيأتي ويستلقي إلى جانبها، وسيعثر الجسد على الجسد، والشفاه على الشفاه والروح على الروح.

تلبس بسرعة. تنام عارية على الرغم من البرد في البيت الخشبي، يتسلل البرد عبر الحيطان، لكنها امرأة جلود وتنام عارية بينما يرتعد الآخرون في أسرّتهم وهم مطوقون بالثياب والبطانيات. يحدّق كيارتان في جسمها، في النهدين الصغيرين الذين تاق إليهما مرة، وألّف لهما قصيدتين، قصيدة لكل نهد، مؤمنًا في ذلك الوقت بالرحمة وبنفسه وبالعالم، آنذاك كانا مستديرين وقاسيين ودافئين جدًا، الآن هما مجرد كيسين فارغين وجسمها الطري متهالك. يتكئ كيارتان على إطار الباب ويفكر، أين اختفت البهجة، أين الرغبة؟

ما زال الفتى جاثمًا إلى جانب ينز عندما ينزل القسّ وزوجته. الرمادية تقف في الخارج، تنظر كأنما تسأل، وماذا عني؟ ولهذا السبب تجاهل إغلاق الباب على الرغم من اقتحام الثلج والبرد البيت، بدلاً من ذلك ركز على نقل ينز إلى الغرفة القريبة من المدخل، هي من الواضح أنها مكتب كيارتان؛ المنضدة لا تكاد تُرى من تحت أكوام الصحف والكتب، ولسوء الحظ نسي الفتى أمر ينز والرمادية عدة لحظات، نسي تمامًا رفيقي السفر المتداعيين إنهاكًا، وأحدهما أفقده البرد الحسّ على نحو خطير. نسيهما

وانبرى ينظر حوله ؛ الغرفة صغيرة نوعًا ما ، وليست هناك مساحة كبيرة حول المنضدة ، الرفوف خلفها عامرة بكتب ذات أغلفة مختلفة أنيقة ، بعضها شبه بالٍ مثل رجال هرمين متهالكين ، غيرها أفضل حالاً ، والعديد منها جميل ، بل في منتهى الجمال ، ثم هناك رائحة الكتب والغبار الرائعة . يستنشق الرائحة بعمق ؛ الجنة على الأرجح ليست أكبر من هذا بكثير ، لا ريب في أن من يعيش هنا يعيش في هناء .

نعم ، لدينا هنا رجال شلّهم الصقيع ، تقول المرأة وهي تهبط الدرج مع القسّ . ويضيف القسّ وهو يتسلل إلى الردهة : وكذلك أبواب مشرعة . لكن يتردد في إغلاق الباب عندما تصادفه عينا الفرس العريقتان ؛ يمسّه شيء ما ، شيء يصحو في أعماقه ، سأرسل لكِ أحدهم ، يغمغم مخاطبًا الفرس قبل أن يغلق الباب بطريقة معتذرة . هذه زوجة القسّ بلا شك ، يفكر الفتى وهو يراقب آنا تتقدم ببطء نحوه ، يداها العاريتان ممدودتان أمامها كما لو أنها تخشى التعثر والسقوط ، كما لو أنها ، وهي تمشي في الظلام ، تخشى من الجسر عند طرف الدنيا . نعم ، وفرس مقرورة ، يقول الفتى وهو يسمع القسّ يغلق الباب . سنهتم بالفرس ، يقول كيارتان من بيت الدرج وهو في طريقه إلى الأعلى ليستدعي عامل المزرعة الذي لا يلبث أن يقبل نازلاً الدرج . رجل متوسط السن قصير وسمين ، ما زال يضع عليه ثيابه ووجهه منتفخ من النوم ؛ وبدون أي كلمة يخرج ليهتم بالفرس ، يأخذ الرمادية إلى مأوى ، يعطيها ماء وعلفًا ويهدئ من روعها . اسمي آنا ، تقول المرأة للزائرين بينما تتقدم نحو الفتى ، عيناها مفتوحتان على وسعهما كأنها مندهشة من العالم ، وجهها مستدير وأنفها بالغ الصغر . لا تبدو جميلة من النظرة الأولى ، عيناها المحملقتان تمنحانها مظهرًا غبيًا ، لكن هناك شيء عميق فيهما يجعل الفتى يشعر كأنما هي لا تنظر إليه بل تنظر فيه ، متحرية كليتيه وقلبه . يقف الفتى متسمرًا في أرضه بلا حراك ، لا يكاد يجرؤ على التنفس

أو أن يرمش أو ينظر إلى أي من الجانبين ، يعبّ أنفاسها الدافئة اللطيفة ، ويلاحظ في الوقت نفسه القسّ خلف المرأة الذي يستند على الحائط ويراقب ، تعبير وجهه منيع وغير قابل للاختراق . يتناهى إليهم حسّ شخص ينزل الدرج ويقصد قسمًا آخر من البيت . نظري ضعيف ، تقول آنا بنبرة متأسفة ، وعلي أن أقترب كثيرًا من الناس لأميز تفاصيل وجوههم ، وهي تنبئ عن أشياء أكثر بكثير مما يدركون . بالطبع كثير من الناس ينزعجون من وجود امرأة عجوز شبه عمياء قرب وجوههم ، إلا أنني أفضل الحقيقة على المجاملة ، وبالمناسبة ليس عليك أن تشعر بالخجل من وجهك ، تضيف ، ثم تجثم قرب ينز ، تلمسه ، تستكشف كم هو مقرور ، تدسّ يدها تحت قميصه لتتحسس جلده ثم تبدأ في إعطاء الأوامر . تتكلّم بجمل قصيرة ، تقول فقط ما هو ضروري أن يقال ، وهذا يؤدي إلى أن تجري الأمور بسرعة وبلا أخطاء ، بعد ذلك بقليل يجلس الفتى قرب الموقد وقد نزع جميع ملابسه وارتدى ملابس جافة أُعطيت له ، يرشف القهوة الدافئة ، بينما يرقد ينز عاريًا في السرير . استعاد وعيه وهو على الأرضية وأفلح في شق طريقه صعودًا بلا مساعدة إلى غرفة النوم ، إنما لا أكثر من ذلك ؛ يستلقي في السرير غائبًا عن الوعي تقريبًا ، والحجارة سُخّنت ووضعت تحت أغطيته ، وُضعت مثل أفكار دافئة في قلب السرير . ثمّ أُحضر له حساء السمك البحري ، حساء دافئ وفعال ، وفيه إمكانية انتشال الرجال من الموت . أنا لست بائسًا إلى درجة أنني لا أستطيع إطعام نفسي ، يقول ينز وهو يأخذ الوعاء من الخادمة ، وقع صوته يبدو كأنه قادم من قاع المحيط ، وصاعد نحو سطح البحر المتلاطم . تبقى الخادمة جالسة إلى جانب السرير ، تحدق في هذا الرجل الجسيم الذي أحضره إليهم الليل والعاصفة ، تحدق في شعره الأشقر الكثيف ، في لحيته غير المشذبة ، في العينين شبه المظلمتين ، والأنف الضخم . تجلس ويداها في حضنها ، تريحهما . كانت قد نزعت عنه الثياب

الباردة ، باردة ومتجمدة ، فركت في ساقيه الحياة والحرارة ، اضطرت إلى فركهما وقتًا طويلاً تجاوبًا مع غمغمة ينز . مسدت يداها الفتيتان والخشنتان ساقيه إلى ما تحت أربيتيه ، وفي تلك الدقائق الثلاث أو الأربع التي بقيا خلالها وحدهما في الغرفة تسنى لها أن تتجرأ وتلمس ما أرادت لمسه ، كان الرجل فاقد الوعي عمليًا ، ولمس تلك المنطقة لا يكاد يكون خطيئة ، تحسس الحياة لا يكاد يكون خطيئة ، فعلت ذلك من منطلق الفضول الصرف . كان متجمدًا حتى العظام ولم يبد أن لتمسيدها أي تأثير مرئي لبعض الوقت . كثيرة هي الرغبات الإنسانية . ينهي ينز حساءه ، يناولها الوعاء الفارغ ، يشكرها ، تلتقي عيونهما لثانية واحدة فقط . أحتاج إلى الراحة الآن ، يقول لكيارتان الذي جاء ووقف عند الباب يتفقده ، يداعبه أمل الحصول على فرصة ليدردش مع ساعي البريد ، يسمع أخبارًا من العالم ، العالم الذي نسي أو طرح في هامشه قسًا مؤرقًا . لكن ينز ليس متعبًا بل هو متهالك إعياءً ، برد البحر ما زال متغلغلاً فيه ، يمتص منه قوته . يغمض ينز عينيه ، يحاول نسيان فم المرأة نصف المفتوح ، لمسة يديها ، وينجح ، ليس فورًا ولكن بعد فترة وجيزة ، وبعدئذ يهدأ وينام . إنه الليل .

مع الليل يأتي النوم ، تأتي الأحلام ، تأتي السكينة ، إلا أنه لا يخفف الريح التي تواصل هز البيت ، جاعلة إياه يصر ويقعقع ، الثلج يدوّم ويعوم مثل أشباح بيضاء في ليلة نيسان شبه المظلمة . وأهل البيت يذهبون إلى النوم . يعودون إلى أحلامهم ، ينامون مجددًا . الأحلام هي وجه الحياة الآخر ، كل شيء له على الأقل وجهان ، القمر والصخور والسعادة والأسف والخيانة . تغمض آنا عينيها ، تغمض عينيها الذاويتين ، تغرق في أحلامها وهناك تشاهد كل وهد وكل صخرة على جبل مريم . تبتسم في نومها . لماذا ما عدت أسرّ من رؤية هذه الابتسامة؟ يفكر كيارتان أحيانًا بينما يجلس صاحيًا على حافة سرير زوجته يتأملها ؛ إلى أين أخذتني الحياة؟ الخادمة ،

تلك التي اعتنت بينز واسمها ياكوبينا تنام في أحد أسرّة الغرفة الثلاثة ، مقابل السرير الذي يستلقي عليه ينز ، وهذا يتيح لها رؤية رأسه ؛ لا تقدر على تمييزه بوضوح في شبه العتمة طبعًا ، لكن ذلك كافٍ ، وتشرع في ملامسة جسدها وإعمال يديها .

أما الفتى الذي تقرّر أن ينام في غرفة العامل فما يزال جالسًا في الأسفل في مكتب القسّ وهو يعاني من دوار الإعياء ، لكن كيارتان ، القسّ المسؤول عن ثلاثمئة شخص ، في أبرشية معزولة وغير مأهولة كثيرًا ، في عالم يمكن أن يغرق في السبات شهورًا كاملة تحت وطأة الثلج ، كيارتان لا يريد أن يتركه يذهب . نادرًا ما يأتي أحد إليه خلال شهور الشتاء ، ما عدا أناس من مزارع مختلفة المسافات ، يجلبون جثة قريب أو بقايا شخص فقير بالكاد يترك وراءه اسمًا ، ناهيك عن ذكرى ما . إنما الحال سواء : يجب أن يحفر العامل لديه قبورًا لهم ، يخترق الجليد الذي يتغلغل أحيانًا على نحو مزعج في أعماق الأرض ، ويشعر أنه من الصعب ألا يلحف في لعن الموتى بسبب موتهم في هذا الوقت من السنة . وما خلا ذلك لا أحد يأتي إلى هنا سوى نائب ساعي البريد غودومندر ، ومع أنه يأتيهم بالأخبار والصحف والرسائل ، هو بحد ذاته لديه القليل ليحدّث به ، عالق في تذمره التافه ، شعوره فاتر تمامًا تجاه الشعر والتفكير العميق ، قادر في أفضل الأحوال على إلقاء بضعة أشعار وأناشيد شعبية ، وهي نادرًا ما تتجاوز مستوى الطرائف ، وغالبًا ما تكون خالية من العاطفة ، مسببة للكآبة وركيكة . حاول كيارتان مرّة أن يحدثه عن سورين كيركيغارد ، إنما كان يمكنه أن يفعل ذلك بالتثاقل خارجًا إلى زريبة الخراف ليدردش معها ، أو أسوأ ، يقصد الكباش التي لا تعرف سوى كيف تمضغ طعامها المجتر وتترقب إشباع نزواتها . كيركيغارد رجل خطر ، يقول كيارتان للفتى الذي بطبيعة الحال لا يستطيع على الرغم من تعبه كبح جماح نفسه من أن يمد يده إلى كتاب بعد كتاب ، وكان قد حاول تلمس

طريقه خلال مقدمة عمل من أعمال هذا الدانمركي . لماذا هو خطر؟ يسأل الفتى وهو يرفع رأسه عن الكتاب . هو يهدد بتغييرنا ، يجعلنا نشك ، يرغمنا على مراجعة تصورنا للعالم ، وأمثال هؤلاء الرجال اعتُبروا دائمًا خطرين . نحن نفضل الموافقة على التحريض ، نفضل التجريد على المحفِّز ، نفضل الخدر على التنبه . ولهذا يلجأ الناس إلى الأغاني الشعبية بدلاً من الشعر ، لهذا لا يشككون في الأشياء أكثر مما تفعل الخراف ، أما أنت فمختلف جدًا . أنت تمد يدك إلى الكتب ، تنظر فيها . يمكنك دائمًا أن تعرف الشخص عن طريق أين ينظر أو تنظر ، وعلى ماذا ينظر أو تنظر . أعتقد أن ذهنك لا يتوقف عند بيوت الشعر السفيهة والبغيضة . يميل كيارتان إلى الوراء ويرفع رأسه إلى الأعلى متفكرًا ؛ ولو استطاعت عيناه اختراق السقف الخشبي لرأى الخادمة فوقه مباشرة ، بيديها وأفكارها . الفتى يجلس في كرسي عند الزاوية ، يفكر في ماريا في فيترارسترند ، كيف نظرت إليه ، وفي توقها للكتب . يحاول أن يقرأ بين لحظة وأخرى لكنه منهك جدًا ، والحروف تتفكك ، والكلمات تفقد معانيها . يرشف كيارتان الويسكي بعناية ، فهذه زجاجته الأخيرة ، اقتصد في شربها عدة أسابيع ، غير متأكد متى يمكنه أن يقصد المدينة مرة أخرى ، هذا الشتاء يبدو لا نهائيًا ، والناس بالكاد استطاعوا التنقل بين المزارع على امتداد أسابيع ، نصف أعضاء أبرشيته يمكن أن يكونوا في عداد الأموات ولا أحد يعرف ذلك ، ولا رفقة أخرى لديه غير زوجته والخدم ، وهم على ما هم عليه ، ليس ثمة ما يفاجئ في سلوكهم ، أشخاص محترمون وأفضل منه بلا شك ، نعم أفضل منه كثيرًا ، إنما ليس هناك شِعر فيهم ، ولا ثقافة ، في أحسن الأحوال نظرة لا مبالية أو نظرتين في الملاحم الآيسلندية ، وما عدا ذلك فتات أشعار وأناشيد شعبية قاتلة للروح . مرت الأيام ، أقبلت الليالي ، ولا شيء يسمع سوى أنين الريح ، تنهد الجليد ، ومن حين لآخر خوار وقعه ينم كأنه مقبل من مسافة بعيدة ، مظلم ونحس ، ربما هو دب قطبي أو ربما هو

الشيطان يستدعي روح كيارتان . حياتي ليست جميلة ؛ ما الخطأ الذي ارتكبته؟ يفكر وهو ينظر إلى الزجاجة . أشرب كثيرًا ، وأهمل كلمة القدير ، ألعن الحياة وأفكر أكثر مما ينبغي وبطريقة جدّ خسيسة في النساء الأخريات . الآن أسمعه ثانية! يفكر وهو ينتفض . أتسمعه أنت أيضًا؟ يسأل الفتى . ماذا؟ الخوار في الخارج . خوار في الخارج؟ نعم ، قبل لحظة ، جاء من هناك ، يقول كيارتان وهو يشير خلفه . لا أسمع إلا الريح ، يجيب الفتى . الريح فقط ، نعم ، صحيح ، أوه ، إنه لأمر جيد أن يكون المرء شابًا ، يقول كيارتان ، نُخلق أنقياء في أنفاس القدير لكن معظمنا ينأى بعيدًا عنه على مر السنين ؛ روحي حجر أسود ، حجر أسود يا صديقي اليافع ، يقول ويفرغ كأسه سهوًا ، مبتلعًا كمية كان ينبغي أن تدوم لساعتين . ثم يردف ، ها قد أفرغتها ، هذا ما يحدث عندما يفقد المرء تركيزه ، والقنينة فرغت تقريبًا ، لم يبق فيها إلا ما يكفي أن يستقر في قاع القدح . العالم مكان مظلم . ولطالما كنت مجدًا جدًا في هدر حياتي . يعتدل الفتى في جلسته ، يتفحص الكتب كلها التي وراء القسّ ولا يستوعب شيئًا . قال باردور يومًا : ذاك الذي يمتلك ناصية الشعر والمعرفة إنسان سعيد ، وذلك بعد أن قرأ وإياه مقالة غيسلي عن غوته وألم القلب للمرة العاشرة .

تعصف الريح في الليل وكيارتان يتكلم ؛ جيد أن يتكلم المرء بصوت عال على مقربة من شخص آخر ، الكلمات تحتاج إلى آذان ، ولا بأس إذا كان الشخص الآخر يتفهم الحياة قليلاً . لستُ متفهمًا ، أنا لا أستوعب شيئًا ، اعترض الفتى . بلى ، بلى ، العيون لا تكذب ، لا تقدر على الكذب ، وردك يدل ضمنًا على الشك ، ذاك الذي يشكك هو في طريقه إلى مكان ما . أنت شاب ، لديك كل شيء أمامك ، الأخطاء كلها ، الانتصارات كلها ، تأملني جيدًا الآن وستدرك ما الطريق التي لن تختارها . . . فقط لو أنه ما زال عندي القليل من الويسكي . يمرر كيارتان يده

على كومتين من الأوراق المستقرة على مكتبه ؛ إحداهما ترجمات كاتب فرنسي ؛ والأخرى أجزاء من قصة الحياة . أجزاء من الحياة في هذا المكان ، يقول كيارتان قبل أن يحدّث الفتى عن الشعاب السوداء ، عن السعادة والقُبل ، يستغرق ذلك وقتًا ، والعاصفة والليل يجثمان على البيت . ثم يتنهد ويطلب من الفتى أن يناوله حقيبة البريد مع كل البريد الخاص بأتباع أبرشيته . لنلقي نظرة على ما يرسله العالم لنا ، يقول وهو يخرج محتويات الحقيبة ، ويفرغها تمامًا ؛ وهذا يعني حمل حقائب أقل . يشع وجه كيارتان عندما يرى الرزمة من غيسلي ، يلمسها بلطف ، بعشق تقريبًا ، وفي مكان ما في الأعلى تنام آنا ، في أحلامها ترى بوضوح مثالي ، وهي لم تُلمس منذ سنوات عديدة وطويلة . يضع الرزمة جانبًا بعناية ويتفحص المواد الأخرى التي أخرجت من الحقيبة ، هناك صحف ، وبعض الطرود لأناس في الأبرشية ، رسالة من صديق قديم لكيارتان ، قسّ في الشرق . اللقيط المغرور ، يهمس كيارتان وقد نسي حضور الفتى ؛ رسالة من ابنه يضعها جانبًا أيضًا ، إنما ليس بشوق مترقب ، يبتهج عندما يرى إعلانًا عن موقعي قسيس شاغرين ، أحدهما في ستينغرفيردر والآخر في هوفييه ، يعتدل ظهره وكتفاه تلقائيًا ، ثم يتراخى جسمه ثانية فورًا وهو يتابع القراءة ويكتشف أن الموعد النهائي لتقديم الطلبات في الموقعين ينتهي خلال أربع وعشرين ساعة ؛ الرسائل تقطع دروبًا طويلة وصعبة لتصل إلى وجهتها هنا عند آخر الدنيا . ينهض بطريقة خرقاء ، يمضي إلى النافذة ، إنه الليل في الخارج والجو كئيب . اِصعد ونَم الآن ، يقول في وجه الليل . أما أنا فسأناضل أكثر قليلاً مع موباسان وألقي نظرة على رزمة غيسلي . اعذر ما تفوهت به من هراء ، أنا أشيخ وبتُّ أنفث السخافات ، لم يمض كل شيء كما كان ينبغي أن يمضي ربما . ينهض الفتى بحذر ، غير متيقن من أن قدميه المتعبتين ستدعمانه ، بيد أنهما تفعلا ذلك ، التيقن المؤكد من الاستراحة التي تنتظره منحهما

القوة ؛ يلتفت عند الباب ، ينظر إلى الرفوف المكتظة بالكتب ، مكتظة بكلمات يمكن أن تفتح عوالم جديدة ، سماوات جديدة ، لكن كيارتان يحدق بعيدًا في الليل . في وسعك أن ترى كيف يشعر المرء من خلال ما ينظر هو أو هي إليه . يقول من المدخل ، وما فيه من خدر التعب أعظم من أن يجعله يشعر بالحياء ، بدا لي أن المرء لا يمكن أن يكون حزينًا وهو محاط بكمّ هائل من الكتب . يلتفت كيارتان ويلقي على الفتى نظرة طويلة إلا أنه لا يقول شيئًا .

يوقظه ينز في الصباح التالي .

يصعب عليه تخمين الوقت ؛ فالنوافذ مغطاة بستائر صغيرة ، إلى جانب كونها شبه محجوبة تحت أقنعة الجليد . يستغرق وقتًا ليفيق تمامًا ، ينز يقول شيئًا عن الدكتور سيغورد ، فيسأله الفتى ماذا؟ أنا لن أعطي ذلك الرجل فرصة ليشفي غليله بالتأخر أكثر من ذلك ؛ لذا سنلتزم بالخطة . يتكلّم ينز بهدوء لكن صوته قوي ، مجرد من الصقيع كله . جفت ثياب الفتى خلال الليل ويباشر ارتداءها ، لا شيء مسموع من الخارج ، لعل العاصفة هدأت . لعل الريح تخلت أخيرًا عن الإطاحة بالناس خارج هذه الأرض . العامل وخادمة ما في الخارج يعتنيان بالماشية ، يُقدّم للرجلين شيئًا ليأكلاه بينما تصف زوجة القسّ رسالة ابنها للخادمة ياكوبينا ، اسمه سيغفوس . ليس كيارتان في أي مكان يمكن رؤيته . ربما هو نائم ، يفكر الفتى وهو يلتهم اللبنة المخففة ؛ يأكل بشهية لاحتياجه للغذاء ، ويشرب القهوة ، يملأ جسمه بالشراب الساخن ، إذ تنتظرهما رحلة طويلة وزمهرير مرير . لا يقول الرجلان شيئًا ، فالفتى أكثر حياءً من أن يفعل ، وينز لأنه يفضل الصمت على معظم الأشياء الأخرى ، فالصمت ملجأ ، إنه أمان . ثمّ يدخل كيارتان من الخارج ، يخبط الأرض لينفض عنه الثلج ويجلب معه برد

الصباح . يصب لنفسه فنجانًا من القهوة الساخنة . المستوطَنة هنا يمكن أن تصبح مهجورة حتمًا لولا القهوة ، يقول مع ابتسامة كما لو أنه مسرور . على فكرة ، أنتما لن تسلكا طريق البحر اليوم ، يقول ويتوقف عن الابتسام . أهذا صحيح ، يقول ينز بعد أن جعل الآخرين ينتظرون لسماع هذه الكلمات . لا ، لن يفعلا ، نزل كيارتان إلى البقاع السوداء اليوم ، ورأى أن الشعاب الصخرية المتاخمة للميناء ظاهرة بوضوح .

آنا : حسنًا ، ذلك ذاك .

كيارتان : بالضبط ، ذلك ذاك . عندما تظهر هذه الشعاب الصخرية من البحر عليك أن تنسى أمر الإبحار في دمبسفيردر ، هذا يكون حماقة جسيمة .

ينز : حماقة جسيمة؟

كيارتان : حماقة جسيمة . لا أحد يبحر في وقت كهذا ، ما عدا بالطبع الرجال الضجرين من الحياة بشكل يفوق التصور .

ينز : أهكذا الأمر .

كيارتان : ذاك ما عليه الأمر .

ينز : فعلاً .

كيارتان : هكذا نراه وليس بأي طريقة أخرى .

ينز : نمشي إذًا .

كيارتان : لا أعتقد ذلك .

آنا : لا ، لا ، ابقيا هنا واستجمعا طاقتكما اليوم وغدًا إذا استدعى الأمر. الفتيان سيأخذونكما بالعبّارة متى سمح الجو بذلك. ياكوبينا أحضري لهذين الرجلين طعامًا جيدًا ليأكلا . تنظر آنا في اتّجاه الخادمة ، عيناها لؤلؤتان بلا بريق . يتجرع الفتى قهوته ليتخلص من إعيائه ؛ كان يفضل أن ينام مدة أطول ، وينز جالس مطرق الرأس لكن ينظر إلى الأعلى

عندما تعود ياكوبينا بالخبز غير المخمر والزبدة ، هي طويلة وحركاتها خفيفة ورشيقة ، تلتقي عيناها البنيتان بعيني ساعي البريد ، تضع الصينية بينهما ، وتلامس ، كأنما بالصدفة ، يد ينز التي تستقر بثبات على الطاولة . اليد التي تلامس أخرى بهذه الطريقة تقول شيئًا ما ، وينز يعرف بيد أنه لا يتجاسر على الاستجابة . لا ترى آنا ما يجري بينهما ، هي لا ترى إلا القليل جدًا بلؤلؤتيها الخامدتين ، وكيارتان يبدو تائهًا في خضم أفكاره . إنها فكرة سيئة أن تغادرا الآن ، تقول ياكوبينا وهي تجلس إلى الطاولة مقابل ينز ، النهار معتم والمشهد سيئ ، سنعمل على تسليتكما لتمرير الوقت ، يمكننا أن نفعل هذا وذاك ، تبتسم من غير أن تزيح عينيها عن ينز الذي ينظر بعيدًا كأنما يشعر بالتخاذل ، ثم يعتدل في جلسته بسرعة ؛ شكرًا جزيلاً على كل ما قدمتموه لنا ، لكننا راحلان الآن .

يا لهذا الهراء ، يقول كيارتان .

إلا أن ينز عديم التأثر . يداه الكبيرتان تضمان فنجان القهوة ، هذا الرجل بكتفيه العريضتين ، بعينيه الرماديتين الصارمتين اللتين فوق الأنف الهائل . تحدق فيه ياكوبنيا مدة أطول ، مشبعة رغباتها ، يداها المرتاحتان على الطاولة تحملان في راحتيهما ذكرى عريه . حسنًا ، يقول كيارتان وهو يتنهد ، أنتما راحلان إذًا .

آنا : هذا ليس حكيمًا .

ينز : قليل ما أعرفه عن الحكمة .

آنا : أنا أعتقد أنك تعرف ما يكفي .

ينز : المرء ببساطة يفعل ما عليه أن يفعله .

كيارتان : مجادلة هذا صعبة .

آنا : ذاك ليس مؤكدًا ، ياكوبينا أيمكن أن تحضري لهما شيئًا من الزاد؟

لا أخفيكما أنني أرغب كثيرًا في أن تبقيا عندي هنا ، يقول كيارتان ،

الرتابة قتلت أناسًا أفضل مني ، وعليكما أن تعرفا أن السفر في هذه المناطق في الجو السيئ ليس طرفة ، فهي هنا بسكون الموت في عز الشتاء . يفرك عينيه كأنما يمسح عنهما إعياءه ، إعياءه الحاضر أبدًا ، أرقه ؛ استطاع أن يغفو ساعتين قبل الفجر ، وغرق في نوم عميق قبل أن يوقظه شيء فجأة ، مثل جرح سكين بارد في منطقة القلب . لا ريب في أن سوء الحظ ، ولا ريب في أن الشعور بالذنب يبرزان رأسيهما ، كتب في رسالة إلى مدير المدرسة غيسلي ، وهو تقريبًا يومئ برأسه طوال الوقت . روحي مغطاة بأصداف البحر وقريبًا ستغرق في مزيد من الظلام . هكذا هو الأمر . أقرأت لهذا النرويجي كنوت همسون ، الذي يكتب عنه زميلي في الشرق ، بين نوباته من تعظيم الذات؟ أنا لا أكاد أنام جيدًا لأسابيع . لن أتفاجأ إذا كان القدير يعاقبني ، وأنا بالتأكيد أستحق العقاب . لكن من هذا الفتى الذي جاء مع ساعي البريد؟ أهو مرسل من الرب أو من الشيطان الرجيم؟ أنت يجب أن تسمع ما قال : بدا لي أن المرء لا يمكن أن حزينًا وهو محاط بكمّ هائل من الكتب . يا عزيزي غيسلي ، كيف نتصرف بحياتنا؟ وكيف نتعامل مع أنفسنا؟ أنا شنيع مع آنا ؛ مر زمن طويل منذ أن ضممتها ، أحيانًا أجد جسدها قبيحًا وتفاؤلها الغريب ذاك يجعلها إما بلهاء أو قديسة . وأنا كما يبدو لا أستطيع تحمل أي منهما . أوه ، لقد رأيت خدمًا للربّ أفضل مني وأحسن يا صديقي القديم!

يقدّم لهما مزيد من الطعام ، هما ممتلئان ، لكنهما يخزنانه . كُلا الآن ، تقول آنا ، عيناها الغائمتان تجولان في الغرفة . أنا مع ذلك لا أفهم لماذا تريدان الرحيل . يفعل الناس ما عليهم أن يفعلوه ، يقول كيارتان ؛ لطالما فعلوا ذلك ، على الرغم من أن ما فيه من عقلانية محدود طبعًا .

آنا : نعم ، صحيح . لدهورٍ انطلق الرجال قبل الأوان ، استعجلوا ليموتوا ، تاركين نساءهم وأطفالهم معدمين . ينسون أن الحياة جميلة وأن المرء يجب أن يُقبل عليها ، أولاً وقبل كل شيء . أو أن لا يفعل إلا هذا .

كيارتان : الحياة ، بالطبع ، مفعمة بالتنوع .

آنا : من الناحية الأخرى ، أعتقد أن الرجال لا مبالين ولا يشغلهم إلا أنفسهم ، ونحن النساء والأطفال مَن عليه أن يتحمل النتائج المترتبة على ذلك . تناولا مزيدًا من الطعام الآن رجاءً ، القدير يريد الأفضل لنا جميعًا .

يتنحنح ينز ويقول بنبرة معتذرة تقريبًا ، سنكون حذرين ، لكن علينا التمسك بخطتنا ونسلّم البريد ؛ هذا ما عُيّنت لأقوم به .

يتأهبان للرحيل .

لا كلمة ولا حكمة يمكن أن توقفهما ؛ يصافحان أفراد العائلة ويودعونهم . تمرر آنا يديها على رأسيهما قبل أن يعتمرا قبعتيهما ، اضطرت إلى الوقوف على رؤوس أصابعها لتصل إلى رأس ينز . تَقرر أن يرافقهما العامل ، ويقودهما أولا إلى المبنى الذي يضم الرمادية التي تنهض واقفة عندما ترى ينز والفتى ، وهي على ما يبدو مستعدة تمامًا لتمضي مع الرجلين ، فقد وحدتهم معًا العاصفة والمحنة ؛ لكن لا ، لسوء الحظ ، يقول ينز ، يجب أن تبقي هنا ، وسنعود لأخذك ، بعد يومين أو ما إلى ذلك . ينز عمومًا منطلق في الكلام مع الخيول أكثر من الرجال ، الخيول طبعًا ، لا تفهم كلمة واحدة وبالتالي لا تجيب أبدًا ، لكن لديها عيون كبيرة ، وأحيانًا ، تبدو تلك العيون كما لو أنها تحتوي حقيقة العالم . يلفّ الفتى ذراعيه حول رأس الفرس فتطرف بصرها .

الجو هادئ ؛ هناك مطر خفيف فقط ، وندف الثلج تنجرف حولهم ، داعمةً الصمت بينهم ، وليست هناك فائدة في الكلام حقًا . تساقط الثلج ليس ثخينًا ، وفي وسعهم أن يروا الجبال التي تطوق الخليج . جبل مريم إلى اليسار ، لا يكاد يزيد ارتفاعه عن أربعمئة متر ، إنما حاد جدًا ومستدق في بعض الأماكن بحيث يشبه سيفًا عملاقًا . وإلى يمينهم تنتصب أربعة جبال

متجاورة ، متماثلة في مظهرها ، بينها وهاد سوداء ، وهي على هيئة قبة ومشحونة على ما يبدو بالغضب ، كما لو أنه في وقت ما دفع أربعة عمالقة رؤوسهم بعنف خارج الأرض وتحولوا إلى حجارة . يستمع الفتى إلى الصمت بين ندف الثلج ، يتمتّع به ، لكن لسوء الحظ ليس لمدة طويلة ؛ فالعامل يريد أن يتحدث ، هو مهذار . هذه جبال أصيلة يا رفاق ، يقول ملوحًا بذراعه نحو اليمين . ثم يقص عليهما حكاية عمرها أربعمئة سنة تقريبًا عن أحد القساوسة .

هي في سجلات بيت القسيس ، يقول العامل ، كيارتان قرأها لنا هذا الشتاء ، قصة منسية منذ زمن طويل نجح في استخراجها أثناء تنقيبه الذي لا يسبر غوره . حسنًا ، ذاك على الأقل أدى إلى شيء ما . كان ذاك القسّ مغتاظًا إلى حدّ كبير من هذه الجبال الأربعة ، أو الرؤوس كما نسميها أحيانًا ، وفي يوم من أيام الصيف انطلق من مزرعته في الصباح الباكر مع أربعة رجال ليقدس تلك الجبال . تسلّق الجبل الأول ثم نزل مستعينًا بحبل ، ومعه الماء المقدس وكلمة الرب ، رش الماء على وجه المنحدر وبارك ما نسميه الجبهة ، ثم عاد إلى الأعلى وقد ارتسم على وجهه تعبير غريب . مع ذلك ذهب مباشرة إلى الجبل التالي ، بسرعة كبيرة إلى درجة أن رفاقه عانوا في اللحاق به . نزل ، ثم مضت عدة لحظات ثقيلة في جو من الصمت ، أشرقت الشمس وهب نسيم لطيف . أنزلوا لي سكينًا ماضية يارفاق ، ما لبثوا أنه سمعوه ينادي ، بهدوء بالغ ، وهذا ما فعلوه ، ربطوها بوصلة حبل ودلّوها . بعد برهة قصيرة هزّ الحبل فسحبوا السكين التي كانت مضرجة بالدم . يسكت العامل ، ينتظر في الصمت الذي يحمله الثلج المتساقط من السماء إلى الأرض ، ينتظر في صمت سماوي ، وأخيرًا يقول الفتى بتردد ، وهو يعرف أنه لا يستطيع تفادي ذلك : ماذا ، مضرجة بالدم؟ نعم ، يا رفاق ، سكين دامية تصعد إليهم . بطبيعة الحال بوغتوا وانبروا ينادون القسّ ولم

يأتهم أي جواب. لذا يبدأون في السحب، بعزم في البداية، ثم بذعر مسعور، اضطروا إلى بذل جهد عظيم، كما لو أن وزن القسّ قد زاد طنًا، أو أن شيئًا كان يجذبه إلى الأسفل، وأخيرًا يصبح عند الحافة، وهذا يفزعهم كثيرًا جدًا بحيث يتحرر الحبل من قبضتهم ويسقط القسّ ويتمزق أشلاء على الصخور على بعد مئات الأمتار في الأسفل. لا يعلق ينز والفتى بكلمة، يتابعان المشي وسط ندف الثلج والصمت، ولا يلبث العامل أن يضيف، بنبرة صوت أكثر كآبة: جزّ القسّ رقبته من الوريد إلى الوريد، كان عنقه مفتوحًا على سعته، كان مثل ابتسامة جهنمية.

يغدو تساقط الثلج أكثر كثافة، ويرسم ستارة على الجبال التي نحرت القسّ قبل عدة قرون. أفترض أنهم ألقوا الرجل المسكين فورًا، يقول ينز بفظاظة. لا أستبعد أنهم فعلوا، يجيب العامل وهو يضحك، فيتشنج القسم العلوي من جسمه، يضحك أو يصهل مثل حصان، ويسارع إلى كبت ضحكه ليواصل حديثه، نعم يا فتيان، يقول، يعود ويصهل مرتين ثم ينجح في قمع ضحكه، ويشرع في التحدث عن القسّ كيارتان وآنا. توقفا منذ زمن طويل عن النوم معًا، يقضي وقته في حجرة صغيرة خارج غرفة النوم تمامًا، عندما ينام أعني، وهذا نادرًا ما يفعله ذلك المسكين. هي، تلك العزيزة، رقيقة ومرحة، لطيفة مثل يوم صيفي جميل، أقول، ولها تأثير مهم جدًا على كل شيء حولها، يحب المحليون العمل عندهم بسببها، من الناحية الأخرى، ولا كلمة يمكن أن تُستخرج من الرجل على مدى أيام طوال، في الحقيقة، أعتقد أن اهتمامه بتلك الكتب اللعينة أكثر بكثير من اهتمامه بالحياة نفسها، يقول العامل قبل أن يبصق. لا يلامس آنا، ولا يظهر اهتمامًا بالخادمات، ولا حتى ياكوبينا، مع أن الرجل الذي لا ينظر إليها أحيانًا لا بدّ من أن يكون ميتًا، كما تعرفان يا فتيان! يصهل عدة مرات ويقول شيئًا عن ياكوبينا، لكن عند هذا الحد يكاد تقريبًا يفقد أثر رفيقيه.

كان ينز قد جدّ في السير عندما بدأ العامل يتحدث عن ياكوبينا ، والفتى مضى في أعقابه ، واضطر العامل الصاهل أن يهرول ليلحق بهما . ماذا الآن ، ماذا الآن ، يهتف بأنفاس متقطعة إلى جانب الفتى . على الرغم من أننا ضجرون أحيانًا ، يتابع بعد أن يلتقط أنفاسه ، وكيارتان بحدة طباع شيخ مسن ، طباع كبش عاجز ، نعيش إلى جانب باحة الكنيسة مباشرة ، ودائمًا هناك شيء ما . يجلب الناس الجثث أحيانًا . الموت ، يا رفاق ، لا يسمح لشيء أن يردعه ، ولا صلاة تنفع عندما ينشط! هذا صحيح . ومرة في هذا الشتاء جاء ستة رجال من حيث لا أحد يدري ، ستة منهم جاءوا في العراء وانتهى مطافهم في جحيم مطلق . رجل من هذا الكوخ أو ذاك قد مات ، غالبًا ما يموت واحد أو اثنان في كل خليج أو زقاق بحري صغير ، ومن الصعب بمكان نقل الجثث من مزرعة إلى أخرى في الشتاء ، وهذا لا يكون ممكنًا أحيانًا في الصيف أيضًا ، يلازم كثير من الناس مزارعهم ولا يقدرون على الذهاب إلى أي مكان ، لا يعرفون شيئًا ، لا يسمعون الأخبار مطلقًا وهم أنفسهم بالكاد أي شيء ، ومع ذلك يرتئي شخص أو آخر أن يموت في عز الشتاء ، وهذا يجب أن يُحظر بطبيعة الحال . لأن على الآخرين أن يحضروا الرفات إلى باحة الكنيسة ، مع أن بعضهم لا يودون التورط في مثل تلك المهمة المزعجة ويخزنون الجثامين ما دام الجو قارس الصقيع ، لشهور كاملة أحيانًا ، وهذا أعتبره تصرفًا عاقلاً ، فالميت لا يثير هرجًا ومرجًا بخصوص أين يُسجى . لكن هذا الرجل أخذ مواثيق كبيرة ليدفن في أرض مقدسة ، بحيث أن القوم ما تجرأوا إلا على أن يضمنوا له تحقيق رغبته . وهكذا جُمع الرجال لينقلوه إلى هنا . أنا لا أعرف مدى خبرتكما بهذه المنطقة ، لكن هناك في الشمال جمع خمسة أو ستة رجال في سن مناسبة لينقلوا جثمانًا يستغرق بعض الوقت ، ربما ما يزيد عن أسبوع . أخيرًا ، اجتمعوا كلهم في الكوخ ، وبينما هم يهمون بالرحيل هبت عاصفة ثلجية

بطبيعة الحال ودامت ثلاثة أيام، وكانوا قد قطعوا شوطًا كبيرًا في استهلاك زاد عائلة الكوخ، قبل أن تنحسر تلك العاصفة، وحينها باشروا رحلتهم. وخاطروا بأخذ طريق مختصرة على نهر جليدي. يجب أن أقول إنهم رجال جريئون، إذ على الرغم من أن لا شيء هناك أجمل من نهر جليدي تحت سماء ساطعة صافية، هناك في العواصف المظلمة تهديد يماثل ذلك الجمال. وبينما هم على الكتل الجليدية هبت عاصفة ثلجية أخرى، وكانوا قد صعدوا أعلى من أن تتيسر لهم فرصة العودة. لساعات شقوا طريقهم قدمًا مع التابوت، مصممين، وقد سبق لهم أن رأوا كل ذلك من قبل، وفي النهاية اضطروا إلى الاستسلام، ما عادوا يستطيعون التقدم ولا التراجع. إنما بالتأكيد لم يفكروا مطلقًا في ترك الميت هناك عند قمة كتلة الجليد، فقطعوا رأسه، وتابعوا التقدم وخلفوا بقية جسده وراءهم، بما أن الروح في الرأس، وهذا أمر يعرفه الجميع طبعًا. بعد يومين نجحوا في بلوغ فييك، منهكين ومتهالكين. ها هو إينار العتيد، قالوا وهم يسلمون كيارتان الرأس. ذاك كان حدثًا لا يُنسى، صدقاني. وعلى هذا النحو تجري الأمور في هذه المناطق، وأصبحتما الآن تملكان فكرة أفضل عمّا تقحمان نفسيكما فيه يا فتيان، ما عليكما إلا أن تتمسكا بهذا المسار ولا تحيدا عنه. في الأيام الجيدة لا يستغرق عبور المرج أكثر من ساعتين للوصول إلى المستوطنة، لنقل ثلاث ساعات في الصيف، عندما يتوقف المرء ليأكل التوت ويستمع إلى الطيور، لكن يبدو أن الأيام الجيدة تختفي بسرعة في هذا العالم، أنتما تفهمان ما أعني. ليكن القدير معكما يا فتيان!

المرج الممتد إلى الأمام عريض إنما ليس بارتفاع ذاك الذي أفلتا منه يوم أمس، هذا بعيد عن زرقة السماء، وأكثر ارتباطًا بالأرض وليس بخطورة ذاك الآخر على الرجال، فهم لا يدنون كثيرًا من الظلام. مرج رائع في الصيف،

في بعض أنحائه مكتظ بالنباتات ، والخضرة تلتف وتلوي طريقها بين الجبال الكئيبة ؛ وهو إلى جانب ذلك يدعى المرج الأخضر . وقد مضت على الأقل خمسون سنة منذ أن مات أحد هناك ، مزارع وصبي في سن المراهقة . طرقاه مشيًا في جو ينذر بالسوء ، أخبر كيارتان الفتى في الليل ، وعُثر عليهما بعد عدة أيام في كومة ثلج ، كانت ذراعا المزارع تلفان الصبي وتضمانه بقوة ، لا بدّ من أنه كان مثقلاً بالشعور بالذنب ، فقد اصطحب الصبي معه على الرغم من أن الأم التمست زوجها ألا يأخذه ويصعد به المرج في جو غير مأمون . من الناحية الأخرى ، ليس هناك ما يستدعي أن يكون ينز والفتى عرضة لخطر حقيقي ، أو ينز على أي حال مع ما يمتلكه من خبرة عميقة ، وقد اجتاز مروجًا أشد هولاً ، وفي عواصف أقسى ، ونجح في الخروج منها كلها حيًا ، ليس بفضل حسّه بالاتجاهات ربما ، إنما بفضل قوته وجلده وصلابته .

ترتفع الأرض جزئيًا ، ويشتد تساقط الثلج ، تتاح لهما فرصة لمح خطوط الجبال العامة بين حين وآخر ، مثل ظلال داكنة . وفي الوقت نفسه الغطاء الثلجي قابل للخوض فيه ، والتغلب عليه ممكن ، نادرًا ما يغوصان عميقًا ، وبين حين وآخر يعدل الفتى وضعية حقيبة البريد الطافحة تقريبًا بالرسائل والصحف ، مثل إيزافولد و ثيودولفر ، أخبار تزداد قدمًا مع كل خطوة من خطواتهما . لم تتسارع أنفاسه بعد ، ليس بشكل ملحوظ ، ومع ذلك يشعر بالتعب من قلة النوم . يتكوم الثلج حولهما ، ثلج متواصل الامتداد من الأرض إلى السماء ، الثلج يصل الفضاء بالأرض ، ما عاد هناك أي فرق بينهما ، كل شيء يلتحم ، ويمكنهما أن يتوقعا ملاقاة الملائكة وهي تنشط هنا وهناك في عالم الخلود . يمر الوقت عليهما ، ثوان ، دقائق ، ثم ساعات . أقدامهما تتحرك بالغريزة ، لا تعرف شيئًا غير ذلك ، لا شيء آخر يخطر على بالها ، ومع كل خطوة تلتقي القدم بالأخرى برهة ؛ أوه ، هذه أنت ، تقول القدم اليسرى للقدم اليمنى ، سعيدة بحصولها على رفقة .

يقود ينز الطريق .

يحدث ذلك تلقائيًا ، يأخذ الرجل الأقوى زمام القيادة ، ويشق الدرب الذي سرعان ما يحجبه الثلج في بضع دقائق فقط ، كما لو أنهما لم يكونا هناك قطّ . يحمل ينز الحقيبة الأثقل ولا يشعر بوزنها ؛ أراد أن يحمل الحقيبتين إلا أن الفتى صمّ أذنيه . آخذها عندما تتعب ، كان ينز قد قال ، بصراحة وهدوء ، هكذا جرى الأمر وهكذا سيجري . لكن الفتى شتم في سره وغمغم لنفسه ، حذار ألا يسفر الأمر عما هو عكس ذلك . كلمات كبيرة ، كبيرة جدًا ، أكبر منه ، والآن بينما ترتفع الأرض وتزداد الأحوال سوءًا ، سيكون من المحبّذ كثيرًا أن يتخلص من الحقيبة . يطاطئ رأسه ناظرًا إلى الأسفل ويحاول التفكير في شيء مميز ، ينتفع من الوقت بتلك الطريقة وينسى المشقة ، يجعل عقله يسيطر على جسمه ، وليس العكس . أنت مختلف ، سبق أن قال له كيارتان ، قاصدًا بذلك المدح . أذاك صحيح ؛ ألا يجدر به إذًا أن يكون قادرًا على التفكير بشيء مميز ، شيء مهم ، ويركز تفكيره عليه ، ولا يترك افتقاره إلى التركيز يمزقه إربًا بلا توقف؟ يبدأ في التمعن بالشعر ويسير الأمر سيرًا حسنًا كبداية ، ثم لا يلبث أن لا يفكر إلا في راغينهيلد ، راغينهيلد فقط . يفكر في الحرارة التي اجتاحته عندما دنت منه في الفندق ، مزيج الدفء والصلابة الذي لا يوجد إلا في الجسد الإنساني ، الأفضل والأكثر خطورة في هذا العالم :

ضميني بقوة ولن نعود نشعر بالبرد
ضميني بقوة ومن عزلتنا نتخلص
ضميني بقوة وكل شيء يغدو جميلاً
ضميني بقوة وأكف عن الخوف من الموت .
ضميني بقوة وأتخلى عن كل شيء .

لم تعد الأرض ترتفع ، فقد وصلا إلى قمة المرج ، بينهما وبين الأرض الواطئة حوالي خمسة كيلومترات . يحافظان على مسار معتدل الاستقامة ، مع ذلك لا يستوعب الفتى كيف سيتدبر ينز الأمر في هذه العاصفة الثلجية المضللة التي ليست خطرة جدًا ما دامت الريح لا تؤازرها . لا طيور هنا ، ولا ثعالب ، ولا يحتمل وجود فئران حقول ، ليس هناك إلا هما والثلج وربما مزارع ميت مع صبي مراهق بين ذراعيه ، لفهما حول الصبي ، ضغط الجسد الذي ببرودة الثلج إلى جسده وغمغم ، سامحني ، أيمكن أن تسامحني ، وحاول أن يتمسك بالحياة اليانعة بقدر ما يستطيع من قوة ، بيد أنهما معًا ماتا ، بعيدًا عن عشيرتهما . الموت بارد ، يقول المزارع ، وقد دنا فجأة من الصبي ، والمراهق ملتزم بالصمت إلى جانبه ، يمشيان برهة وسط الثلج ، لا يتركان آثار أقدام وراءهما ؛ إنه خطأي ، يقول المزارع بينما هما يذوبان .

ثم تبدأ الريح في الهبوب طبعًا .

كان الهدوء مؤقتًا ، خيّم مدة كافية ليستدرجهما نحو أعلى المرج . في بادئ الأمر مجرد هبات لطيفة من الريح ، معتذرة ومغمغمة : لا ، لا ، لا نقصد أي أذى ، تابعا التقدم ، أنتما في أمان مطلق ، لا تهتما بنا . تدوّم الريح الثلج ، كما لو أنه يمارس رقصًا مرنًا يزداد صلابة شيئًا فشيئًا ، يغدو أسرع ، أكثر وحشية ، إلى أن لا يعودا قادرين على مجرد التمييز بين الثلج المدوم والثلج المتساقط من السماء ؛ وهذا أصبح مألوفًا إلى حدّ بعيد . تبًا ، يشتم الفتى ، في حين يتابع ينز التقدم ، بلا تقاعس ، لا ينظر مطلقًا إلى الوراء ، بينهما مسافة من عشرة إلى خمسة عشر متر ، مسافة متزايدة بالتدريج . هذا ليس لطيفًا جدًا منه ، يهمس الفتى الذي ينتابه الخوف لكن غروره الغبي أعظم من أن يصيح ، بدلاً من ذلك يحاول الإسراع فيتعثر ، تقريبًا كما لو أن أحدًا أسقطه ، يكمن في الثلج ، ينظر عاليًا ويرى ينز يختفي في قلب العاصفة أو خلفها ؛ في المقابل يعود المزارع والصبي الحدَث ، يقفان

أمامه وعيونهما المجللة بالصقيع ترنو إليه ، ثلاثة أفضل بكثير من اثنين ، يقول المزارع . لن أموت هنا ، تبًا ، يهسهس الفتى في وجه الثلج ، ويحاول التحامل ليقف على قدميه من غير أن يلمس الرجل وابنه ، وهذا صعب ، فهما يقفان أمامه تمامًا ، والأموات ينجذبون إلى دفء الحياة . دنا المزارع كثيرًا جدًا من الفتى بحيث ما عاد يمكن أن يدنو أكثر ، ذراعه اليمنى متدلية بلا حول ولا قوة وتبدو كأنما قد فُقد منها شيء في قسمها الأمامي ، أما اليسرى فتمتد نحو الفتى ، تتلمس طريقها مثل أفعى عمياء تبحث عن قلب حيّ ؛ لسنا سيئين جدًا ، يقول المزارع وذراعه تتلمس الطريق ، والمرج جميل في الجو المعتدل . يفترض بي أن أعيش ، يلهث الفتى ويحاول يائسًا التنحي بعيدًا عن اليد الباردة الميتة . ما هذا؟ يهدر ينز وقد دفع كفه خلال صدر المزارع ، أتنوي أخذ يدي أم تريد أن تموت هنا في الثلج؟

ثمّ يحدث أن يشرعا في الانحدار . لو أن الجو كان معتدلاً لاستطاعا أن يرنوا إلى الأرض المنخفضة ، حيث تصطف على طول شاطئ دمبسفيردر ثماني أو عشر مزارع ، تسكنها خمسون أو ستون أو سبعون روحًا ، تأتي وترحل ، وتأتي وترحل ، ولرأيا الأزقة البحرية المتغلغلة في الأرض عند الجانب الآخر ، كأنها جراح عميقة عتيقة ، وإلى جوارهما وديان صغيرة ثم مروج ، ومزيد من المروج فيها عظام خراف بيضاء ، وأناس موتى ، وبحيرات حالمة ، وحزم أعشاب رائعة . ولتسنى لهما أن يلمحا مزارع فردية تقوم على الرقع المعشوشبة المتوافرة هناك ، بعضها تحيط بها مرتفعات شاهقة على الرغم من أن مواقعها جدّ قريبة من طرف الشاطئ . المسافات بين المزارع طويلة والدرب نادرًا ما يكون سالكًا إلا في منتصف الصيف ، والناس عمومًا يكونون مرهقين بالعمل بحيث لا يستطيعون الذهاب إلى أي مكان؛ يكدحون في جمع التبن والعلف للماشية ، يخرجون إلى صيد السمك عندما تسمح الظروف ،

ويغرقون عندما يقطع أحدهم خيط الصنارة . ينفض ينز يده اليمنى قليلاً بين حين وآخر ، كما لو أن شدة تجمّدها من البرد تتفاقم . أنحن عرضة لخطر السقوط؟ يصيح الفتى ، مفترضًا بشكل قابل للتبرير أن أمامهما جرفًا . سنكتشف هذا إذا حدث! يصيح ينز بكلماته الأولى منذ فترة طويلة ، أو منذ أن اقتحم الموت ليساعد الفتى على النهوض . هو تواصلهما الأول ويجري هكذا ، سؤال قلق وجواب مراوغ . إنها الحياة الآيسلندية بإيجاز : نحن عاجزون تمامًا عن التعبير عن مشاعرنا وسط الآخرين ؛ فحذار أن يدنو أحد من قلوبنا .

يتثاقل الرجلان إلى الأمام ، وإلى الأسفل .

يباعدان المسافة بينهما وبين أخطار الجبل ، يقتربان أكثر من الموت في البحر .

تهدأ الريح قليلاً بصرف النظر عن انحدارهم ، بيد أن الثلج يصبح أطرى وأصعب . يبدو ينز واثقًا من المسار الذي ليس على أي حال كثير التعقيد ، وطالما أن الريح تهب بالعرض على ظهريهما فهما يمضيان في الاتجاه الصحيح . إنما أي اتجاه لعين؟ يصيح الفتى ولا يتلقى جوابًا ، يصيح مناديًا ينز الذي على الأرجح فقد أذنيه وبدأ يندفع قدمًا مرة أخرى ، والفتى غير قادر على تقليص المسافة بينهما مهما جاهد في المحاولة ، بينهما على الأقل خمسة عشر مترًا أو عشرين وهي تتزايد بالتدريج . ألا يمكنهما الحصول على قارب من إحدى المزارع ، واستئجار أحدهم ليجدف بهما عبر دمبسفيردر؟ هذه طبعًا لن تكون فكرة مستحبة في هذه العاصفة ، فالبحر خبيث وأعمى تمامًا ، لكن ينز يدفع نقدًا وبعض الناس هنا عاشوا طويلاً من غير أن يروا مثل هذه الأعجوبة ، ناهيك عن الحصول عليها . في أسوأ الأحوال يمكنهما أن يستأجرا مأوى مع أحد ما ، وينتظرا انتهاء أسوأ ما في العاصفة ، أما الآن فهما في الواقع يمضيان بعيدًا عن لونغفيردر مع كل خطوة ، ويجعلان الرحلة

البحرية أطول . كانت فكرة سيئة أن يغادرا فييك ، ومن الحمق أن يتابعا التقدم هنا برًا ، الشيء الوحيد الذي يقتربان منه هو نهر الجليد الذي يتحكم بكل ما في هذه الأنحاء ، ينتظرهما وراء العاصفة ، يرتفع عاليًا ويحجب نصف السماء ، وذاك الذي يقترب منه كثيرًا يفقد صلته بالقدير . ولعل ينز يحاول أن يفعل هذا ، أن يفقد صلته بالقدير ، وإلا لماذا يتقدم هكذا ، يغوص في الحفر ، يشق طريقه خارجها ، يفقد أثر الفتى ، يظهر ثانية ؛ والفتى مشبع بالعرق من بذل الجهد ، ولا يلبث أن يتعثر على وجهه في حفرة . عندما يفلح في الخروج منها ، يكتشف أن ينز قد اختفى .

نعم ، لا بأس .

كان هذا سيحدث حتمًا .

ممتاز .

ثمة أمل في أن يدفن في الثلج وسيلمّ الشيطان بقاياه عند أول فرصة . يتلفت الفتى حواليه ولا يرى شيئًا خلال الثلج المتطاير ، الثلج المتساقط ، غير مدرك لشيء سوى إعيائه ؛ ولذلك يمكن أن يكون واقفًا قرب بيت من غير أن يعرف . سأستمر في التقدم وأحاول العثور على مزرعة قبل حلول الغسق ، يفكر ، والشعور بالجوع الشديد قد بدأ ينهشه ؛ كم هو رائع الآن أن أكون قادرًا على القيام بزيارة إلى مطبخ هيلغا . ثم على نحو مفاجئ تمامًا ، مفاجئ جدًا إلى درجة أنه جاء أقرب إلى الصدمة ، يجتاحه الشعور بالأسف ، بل هو أسف عظيم . يضطر إلى التوقف ، يقف بلا حراك ، ينحني في وجه الريح العدوانية . أكان عليه أن يقطع المسافة كلها إلى هنا ، عبر زقاق بحري كئيب ، على زورق تجديف مع رفيق مذعور ، ثم على مرجين ، ويضل طريقه في عاصفة ثلجية عاتية ، ثم نهر جليدي شرير بعد العاصفة لمجرد أن يكتشف هذا : الشعور بأنه على ما يرام في دار غيرترود؟ على ما يرام بما يكفي على الأقل ليجتاحه الأسف . إنها تجربة جديدة جدًا عليه أن يأسف

على خسارة ما لم يختف في عالم الأبدية . هذا الأسف الجديد أسهل وهناك ضوء فيه . لكن الأسف على ماذا؟ على الناس ، على الثلاثي بحدّ ذاتهم ، على الأمان ، الاحتمالات التي يمكن أن تأتي جراء العيش في تلك الدار؟ طوال عمره ، منذ أن مات أبوه ، ما انفك يغادر ، ما عرف قط إلى أين يذهب ، لكن أحلامه تدور حول هذا : الهروب والنجاة . في هذا يكمن الأمل ، ويكمن السبب ليبقى منتصب القامة . النجاة من السمك ، والمشقة ، والحصاد ، والكدح اليومي الدؤوب المدمر ، السحق المتواصل الذي يمزق الناس إربًا قبل أوانهم ، يأخذ الوميض من عيونهم ، والحرارة من ملامسهم . الإفلات قبل فوات الأوان . لقد عاش الآن ثلاثة أسابيع في دار كل القواعد فيها مقلوبة رأسًا على عقب نوعًا ما ، ومن المفروض أن يبدأ تعليمه عندما يعود ، إذا عاد . يحارب الفتى الريح ليبقى ثابتًا في وقفته بينما هو يحاول استيعاب هذا ، يسترجع في ذهنه الأسابيع الأخيرة ، الكتب التي تسنى له أن يقرأها ، المحادثات ، اللامبالاة الغريبة وشبه الخطرة لبعض مواقفهم ، الربان الأجنبي الذي رآه في أول صباح له هناك ، عشيق غيرترود ، غيرترود نفسها في حوض الاستحمام ، كبيرة في السن قليلاً ومع ذلك مختلفة تمامًا عن كونها مسنّة ، والصباحات مع هيلغا وكولبين ، حياة جديدة أكثر بقليل من ثلاثة أسابيع ، والآن فقط ، مع جبال لا حصر لها ، واقف بينها وتائه في العاصفة الملعونة ، وربما هو أقرب إلى الموت منه الحياة ، يدرك أنه قد شعر أنه بخير . . . أو أنه بخير تقريبًا . يدرك ذلك الآن وربما بعد فوات الأوان لأنه فجأة يلمح من زاوية عينه حركة ، يلمح شيئًا ضخمًا وأبيض يتقدم نحوه بسرعة هائلة ، يقذف كفه نحوه ، يقبض بعنف على كتفه . ما يجعلك تهيم على وجهك هنا ، يقول ينز بقسوة ؛ أحاول استيعاب هذه الحياة اللعينة! يصيح الفتى . عليك أن تموت لتستوعبها ، يجيب ينز ، وينتزع الفتى بعنف ، يأمره أن يتبعه ، ولا يلبثا أن يلوذا بما يحميهما .

٧

عثر ينز على مبنى، مبنى سليم له باب وحيطان وسقف، وهذا ترف يتعذر وصفه. يفتح الباب ببساطة، ويخطوان إلى الداخل أو يتخبطان، يغلق ينز الباب ويصبحان في أمان مثالي. يستحق أولئك الذين شيدوا هذا المبنى هنا وجعلوا له بابا يتصدّى لهذا الجو المتوحش وسامًا. بديع أن يكونوا قادرين على التنفس الطبيعي، لا أن يضطرا إلى ابتلاع الهواء خلسة كيلا يتجمع الثلج في الأفواه، رائع أن يسمع المرء صوت تردد أنفاسه ثانية. يقف ينز منتصبًا أما الفتى فجاثم على ركبتيه. كان هو طبعًا من دخل متخبطًا. المبنى ليس كبيرًا، اتساعه يكفي لإيواء عشرين غنمة وقفت تحدق مذعورة في الرجلين اللذين بادرا إلى كشط الثلج والجليد عن جسديهما من غير أن يعيراها اهتمامًا، كما لو أنهما لا يشعران بالعيون الأربعين المسمرة عليهما. لا تجرؤ الأغنام ولا حتى على الثغاء من شدة ذعرها. لا أحد أبدًا يأتي إلى هنا ما عدا طبعًا قوم من المزرعة، تلك الأرواح المعدودة التي تعرفها كما تعرف خطومها؛ وبالتالي فإن ظهور رجلين جديدين يعتبر أخبارًا هائلة. الخوف والفضول يلمعان في أربعين عين محدقة، وأخيرًا لم تعد إحدى النعاج تستطيع المقاومة، تعجز ببساطة عن ضبط نفسها، فتفتح فمها وتثغو. مرة واحدة وحيدة، ثغاء هتاف في الحقيقة، وسرعان ما تحذو بقية الأغنام حذوها بطبيعة الحال. ولا تمر بضع لحظات إلا وتغدو الضجة مصمّة. عشرون نعجة تثغو وتثغو كأنما هناك كارثة وشيكة، تمدّ أعناقها، تُمأمئ بحزم وتطغى بذلك على هدير الريح نفسه. يتجمع القطيع ويتكوم

بعيدًا بقدر الإمكان عند مؤخرة الحظيرة، وخلفه، منفصل عنه في عزلته، وسخطه الدائم، يقف كبش ضخم صامت كالحجر يتصرف في بادئ الأمر كما لو أن لا اهتمام لديه سواء بالنعاج أو بالزيارة التي جلبتها لهم العاصفة، وفي النهاية، تنتقل إليه عدوى هستيريا النعاج، فيفتح فكيه الكبيرين ويبدأ في الثغاء. في بادئ الأمر يفعل ذلك بهدوء وبينه وبين نفسه، ثم يفلت منه زمام الأمور فيضيف بربرته العميقة المكدرة والفظّة إلى الجوقة المذعورة وثغائها الصاخب. وفي الحال يتقدم ينز نحوها خطوة واحدة، ويقول باقتضاب وخشونة: أغلقوا أفواهكم! ولا يحتاج إلى ما هو أكثر من ذلك. تسكت الأغنام، والكبش أيضًا، يتدلى فكه السفلي، ويبقى فمه نصف منفرج من الذعر، وقرناه الكبيران المنبثقان من رأسه أصبحا ثقيلين بشكل محزن؛ ليس من الجيد أبدًا أن يكون أي مخلوق وحيدًا حتى ولو كان يملك قرونًا. يعمّ الحظيرة هدوء كهدوء الموت، فقط مأمأة خائفة قصيرة ووحيدة، أطلقتها إحدى النعاج عن غير قصد، بالصدفة الخالصة. هكذا يمكن أن يكون مفعول الكلمات المؤثرة، إذا نُطقت بالطريقة الصحيحة. لكن الريح، بالطبع، لا تلقي بالاً لما يقال في الأبنية وتستمر في هياجها. تحدق في ينز عشرون نعجة وكبشًا واحدًا. يتفحص الفتى القطيع، يقول، تبًا، ثم يتهالك فوق كومة قش قديم في الزاوية، حيث ينوي البقاء هناك عقدًا من الزمان أو نحو ذلك.

كان يمكن أن ينام بسرعة، متعبًا بعد البقاء صاحيًا إلى وقت متأخر في الليل مع كيارتان، مرهقًا من السفر مشيًا وجهد اليومين الأخيرين، لولا أن ينز بدأ يذرع الأرض بخطوات معدودة تسمح بها المساحة، بعد أن خلع قبعته وقفازيه ووضعهما على حجر، ووجهه المنذر بالوعيد مكفهر ومقطب. ماذا يعرف الفتى عن هذا الـ ينز؟ يتظاهر بأنه يغفو، ولكنه يترك عينيه منفرجتين قليلاً ويراقب ساعي البريد الجسيم يندفع بعنف ذهابًا وإيابًا،

يشعر بلسعة خوف عندما يراه يكور قبضتيه ، قبضتين كبيرتين كرأس طفل رضيع ، لا تزيح الأغنام عيونها عن ساعي البريد ، أما الكبش فينظر من طرف خفي ويفكر أنه سيكون من الطريف الآن نطح شخص ما . لا يلبث القطيع أن يبدأ في مضغ طعامه المجتر . قليلة هي الأشياء الأخرى التي تشيع في النفس الهدوء أكثر من مراقبة ماشية تجتر طعامها . ينظر الفتى ، ثم يغمض عينيه ويشرع في دندنة لحن ما ، أقرب إلى الهمس ، بضع نغمات سرعان ما تتحول إلى لحن ساحر وحزين في الوقت نفسه ، تصبح إشارة الانطلاق التي نفخها بوق بينيدكت في الليلة الأخيرة في ذلك العالم ، قبل أن يهرعوا إلى المراكب أسفل الشاطئ ، ومنه إلى البحر حيث جدفوا نحو موت باردور . وأندريا واقفة عند الشاطئ تراقبهم ينحسرون ؛ ترى ماذا تفعل الآن وأين باردور؟ أين يذهب أولئك الذين يموتون ؛ أيمكن بلوغ ذلك المكان ، أينتظرنا فجر جديد هناك وراء العواصف كلها ، وراء الحياة ، وراء الموت ، فجر جديد ، أفق ساطع ونغم وديع يسكّن ألمنا بعد الحياة؟ بدأ يغرق في أحضان النوم ، وهذا كالغرق في بحيرة دافئة وعميقة ، بحيرة ساكنة ، ثم تُركل ساقه اليمنى ، ويتمزق عنه كفن النوم ، يعود إلى سقيفة قطيع من الماشية خافت الإضاءة ، الريح تئن في الخارج وينز واقف أمامه بقبضتين مكورتين . ماذا؟ يغمغم الفتى ، لكن ينز ينحني ، ينتزعه من مرقده كأنه قشة ويجذبه نحوه ، يحس الفتى ببرودة لحية ينز المتجمدة ، يميز الشرايين الصغيرة في الأنف الضخم وينظر مباشرة في العينين الرماديتين الغاضبتين . يترك ذراعيه تتدليان رخوتين عند جانبيه ، لا يجرؤ على فعل غير ذلك ، فساعي البريد قد أصابه الجنون على الأرجح ، والقطيع يراقب وقد توقّف عن اجترار طعامه . ماذا أنت فاعل؟ يسأله ينز ، بصوت منخفض لكن متوعد .

الفتى : استسلمت للنوم فقط ، غفوت في الحقيقة . فيجيب ينز وهو يشدد قبضته : لا أعني هذا ؛ هل أنت أحمق؟ أم تراك تعتقد أنني أحمق؟

الفتى : لا أعرف . . . أعني ، ليس أنت ، لا ، لا على الإطلاق . . . لكن أحيانًا يبدو كما لو أنني أنا أحمق ، أعني ذاك يحدث أحيانًا . . .

ينز : هل تريدني أن أضربك؟

الفتى : أُفضّل ألا تفعل .

ينز : أجبني إذًا!

الفتى : كيف ، أعني لا أدري ما يجدر بي قوله . ولماذا أنت غاضب جدًا؟

يرفع ينز الفتى عاليًا بحيث تتدلى قدماه في الهواء ، فتثغو نعجة بصوت خافت ، تمأمئ مرتين ، لعلها تقول ، انظروا إلى هذا . ثم يطلق ينز سراح الفتى ، يفعل ذلك فجأة بحيث يجعله يسقط على كومة القش ويتدحرج جانبًا . عندما ينظر إلى ينز ، يأخذ الأخير عدة خطوات إلى الوراء ؛ يقف هناك مطأطئ الرأس ، يأخذ نفسًا عميقًا ويقول ، كيف تصرفتُ .

كيف تصرفتَ ، يكرر الفتى وهو يعتدل جالسًا .

ينز : في زورق التجديف .

الفتى مدهوشًا : ماذا تعني؟

ينز : أعني ذعري . تخاذلي . لماذا لم تذكر هذا لأحد؟

وما الداعي لأن أفعل بحقّ السماء؟ يسأله الفتى مذهولاً ، وفي الوقت نفسه مرتاحًا لأن الأمر لا يعدو أن يكون ذلك . وماذا كان يفترض بي أن أقول ؛ الأشياء تحدث فقط والناس مختلفون ، فما الداعي إلى ذكره؟ يتبادلان النظر ، يفصل بينهما متران أو ثلاثة ؛ واثنان وأربعون عينًا تراقبهما . لم أشكرك كما ينبغي على ما فعلته ، يعلن ينز ، بصراحة وبهدوء . هذا غير ضروري ، يقول الفتى وهو يشعر أنه من الآمن الآن أن ينهض على قدميه .

الفتى : ومقابل ذلك أنت أيضًا أنقذت حياتي ؛ ثلاث مرات في الواقع .

حياتك؟ يقول ينز ، كما لو أنّه ما سمع هذه الكلمة الغامضة قبل ذلك . نعم ، كان تفادي ذلك مستحيلاً ، كنتَ قابعًا في الثلج ، هذه ليست مسألة إنقاذ حياة ، إنها مسألة إنهاضك فقط . إضافة إلى ذلك ، أنت كنت جاثمًا هناك لأنني لم أنتبه إليك . ما أردت قوله هو شكرًا على ما أشرتُ إليه آنفًا ، وأعتذر على تصرفي ، كان معيبًا . معيب أن أخلفك ورائي مرتين ، أما الآن فعلينا أن نفترق . ماذا؟ يهتف الفتى وقد ظنّ أن عويل الريح ربما حرّف ما قاله ينز . نفترق؟ نعم ، لأن هذا ما يفترض أن يحدث ؛ ينز ذاهب في اتجاه والفتى في اتجاه آخر ، هذا يسمى افتراق ، وقبله يجب أن يتبادل الناس كلمات الوداع . فوداعًا .

ينز : سآخذ حقيبتك ، بالطبع .

الفتى : أنا لا أفهم .

ينز : سأساعدك لتعثر على المزرعة التي يعود إليها هذا المبنى ، ويمكنك أن تعود أدراجك عندما تنحسر العاصفة ، ترجع الرمادية إلى يوناس والقارب إلى أوغست ومارتا ؛ اِصطحب أحدًا معك ، وأنت تقطع المرج على الأقل . وفي وسعك أن تجدف الزورق وحدك ، أليس كذلك؟

لا يجيب الفتى إلا بكلمة نعم ، متنفسًا الصعداء لأن ليس عليه المضي أبعد من ذلك في هذا الجو السخيف ، متنفسًا الصعداء لأن ليس عليه قضاء مزيد من الوقت في صحبة ساعي البريد ، هذا مع أن كلمة صحبة لا تليق بينز مطلقًا ؛ عليه أن يقبل حتى وإن اضطر إلى البقاء يومًا أو يومين في هذه المزرعة ، أيًا ما كانت ، ربما هي مزرعة جدّ مملة وربما لا ، المرء لا يعرف أبدًا ما ينتظره في البيوت الغريبة ، التفاهة أو المغامرة ، وربما عيون لامعة وشِعر ، ومن يبالي حتى لو كان الأمر مملاً وتافهًا ، يستغرق قتل المرء أكثر من

مجرد يومين مضجرين . وضع ينز الحقيبتين على كتفيه ، هناك شيء هادئ يحيط بهذا الرجل الضخم ، يلقي نظرة على الأغنام والكبش الوحيد ، والقطيع بأسره ينظر كأنه مخلوق واحد إلى الرجلين ، كأنما يتوقع حدوث أمر وشيك ، حدوث شيء غير معلن . لكن لماذا؟ يسأل الفتى على الرغم من ذلك ، فيتلاشى هدوء ساعي البريد . أنا أنوي أن أسير ، يجيب باقتضاب وهو ينظر بصرامة إلى الفتى ، كما لو أنه يحذّره سواء من قول شيء أو من الاعتراض .

الفتى : تسير ؛ أتعني تسير طوال الطريق إلى لونغفيردر؟

ينز : نعم .

الفتى : إنها مسافة طويلة .

ينز : ثلاثة أيام ؛ أهذا يعتبر طويلاً؟

الفتى : المركب يمكن أن يقصر المسافة يومين .

ينز : يومين ؛ ما ذاك؟

الفتى : ألا تحتاج إلى الالتزام بمخطط رحلتك؟

ينز : أحتاج إلى البقاء حيًا .

الفتى ، بتردد : رحلة مركب واحدة لا ينبغي أن تكون بالغة السوء ، نحصل على قارب أكبر ، وننتظر إلى أن تنحسر العاصفة . جميع المزارع هنا لديها قوارب .

ينز : البحر غير ضروري . نحن حيوانات برّ .

الفتى : إذًا ننسى أمر البحر .

ينز : من تقصد بـ «ننسى»؟

الفتى : أوه نحن ؛ أنا وأنت .

ينز : أنت وحدك وأنا وحدي . لذا ليس هناك «نحن» في أي من هذا ؛ ستعثر على المزرعة بنفسك ، من المستحيل البقاء مع شخص ثرثار .

تنظر إليهم النعاج والكبش ، يتنفس القطيع بسرعة ، والبخار يتصاعد من الأنفاس . سأتبعك ، يقول الفتى فجأة متجاهلاً التفكير العقلاني وعلى نحو بالغ السخف ، إذ ما الداعي إلى أن يتبع المرء ساعي بريد يخشى البحر ، ويحتمل أنه ساعي بريد مجنون أيضًا ، ويخرج معه إلى هذه العاصفة ، يشقان طريقهما حول الأزقة البحرية ، يعبران المروج والوديان وهما يجتازان عشرات الكيلومترات بين المزارع ، هذا بالضبط تصرّف فيه على وجه التحديد ميزة تعادل الصفر ، وفيه سلبيات عديدة . مع ذلك ، طبيعي أن يتخذ بعض الناس قرارات تتعلق بالحياة أو الموت بدون تفكير ؛ هذا ليس عقلانيًا ، ولكن ربما هم أقل عرضة للاضمحلال . الوعي يمكن أن يكون مؤذيًا للحياة ، يمكن أن يخنقها بسهولة . لا يقول ينز شيئًا ، ولذا يضيف الفتى ، لن أكون عبئًا ، ولكن ليس في وسعي أن أعدك بالتزام الصمت ، هذا إضافة إلى أن الكلام معك ممتع .

ثم يحدث ما يحدث .

يضحك ينز . لا يغرق في الضحك طبعًا ، لا تند عنه ضحكة طويلة ولا بصوت عالٍ أيضًا ، الضحكة التي يطلقها غير متكلفة وصدئة قليلاً من قلة الممارسة ، وفي الحال يتوقف القطيع عن اجترار طعامه ، وحوالي خمسة من الأغنام تباعد بين قوائمها الخلفية وتتبول . يراقبها الرجلان ، ثم يأتي دورهما ليتبولا . هناك فرق بين فعل شيء كهذا في داخل مبنى ، وبين فعله والمرء واقف منحنيًا في جو بائس ، وهو يرتجف من شدة البرد ، مع احتمال أن يتلوث ببوله ، وهذا يجعل الانزلاق في فجوات غير متوقعة يحدث بسرعة كبيرة . رجلان يقفان جنبًا إلى جنب ، يتبولان ، يشعران حينها بالالتحام ، للحظة أو لحظتين لديهما ما هو مشترك ، وربما آنئذ يقولان شيئًا ما كان يمكن أن يقولاه بصوت عالٍ في ظرف مختلف .

ينز : أحتاج إلى التفكير .

الفتى : تحتاج إلى التفكير؟

ينز : ولذلك ، السفر مشيًا هو الخيار الأفضل .

الفتى : بعض الناس يفضلون الجلوس وهم يفكرون .

ينز : أنا لا أؤمن كثيرًا بمثل هذه الأمور ، ثمة شيء غير طبيعي فيها ؛ الفعل الوحيد المعقول هو المشي ، والأفضل المشي عدة أيام .

الفتى : ولماذا تحتاج إلى التفكير؟

ينتهيان من إفراغ مبولتيهما ، وتختفي رائحة البول الطفيفة فورًا تقريبًا ، آخذة معها مشاركتهما الوجدانية . هذا شأني ، يقول ينز وهو ينفض قطرات البول الأخيرة . أنت محق تمامًا ، يقرّ الفتى ، مضيفًا أنه هو أيضًا يحتاج إلى التفكير ؛ لا أعرف لماذا أنا حيّ حقًا . يرنو ينز إلى الفتى ، يهزّ رأسه قليلاً ، يخرج كمية من طعامهما ، يناول الفتى شيئًا منه ، ثم يبدل موضع الحقيبتين على كتفيه ويمشي نحو الباب . مهلاً ، يقول الفتى ، ويقفز داخل سياج الزريبة حيث الأغنام المتكومة فزعًا في زاوية . ماذا تفعل هناك؟ يسأله ينز بنفاد صبر ، ولا يقول الفتى شيئًا ، ينحّي الحاجز الذي يفصل الكبش ، يمسكه من قرنيه ويجره نحو النعاج ، ثم يضع إحدى الأغنام مكانه ، ويعيد الحاجز ، ويمضي بعد ذلك نحو ينز ووجهه يقطر سرورًا ، يضحك خلسة بينه وبين نفسه عندما يرى الكبش واقفًا هناك ، ويبدو مهانًا جدًا وهو بين الإناث . لماذا فعلتَ ذلك؟ يسأله ينز ، وإصبعه على مزلاج الباب . المفاجأة مفيدة للصحة ، يجيب الفتى . يخطوان إلى الخارج وتأخذ العاصفة بتلابيبهما .

*

ليس الأمر بسيطًا أن يسافر رجلان في مثل هذه العاصفة ويفكران ، باعتبار

أن أحدهما يجب أن يستغل جلّ طاقته ليستمر في المضي، ينتقل من مكان إلى آخر من غير أن يموت، ما يعني أن التفكير، على رأس هذا كله، ومحاولة استيعاب الحياة، ينبغي أن يكون مادة ملحمية. يفلحان طريقهما إلى الأمام مخترقين الثلج والريح، رجلان في حالة بحث عن الذات؛ أيعثران على الذهب أو على أحجار كامدة فقط؟ في البداية يمشيان أعلى من شاطىء البحر بعض الشيء، ثم يضطران إلى الانتقال نزولاً، أقرب إلى البحر، وفي بعض الأماكن يحاذيان الشاطئ، وهذا يمكن أن يكون خطرًا، ليس بسبب الأمواج المتسارعة بزرقة صقيعية نحو اليابسة، إنما بسبب أكوام الثلج المتراكمة على طول الضفاف العالية؛ فالمدّ يلتهم طريقه إلى تلك الأكوام ويخلف بقعًا فارغة، أقرب إلى الكهوف، ما يعني أن عدة أطنان من الثلج يمكن أن تعلق مخلخلة في الهواء لأسابيع تقريبًا، وتنهار عند حدوث أدنى اضطراب. سهل بالنسبة إلى الناس المحليين أن يتجنبوا هذه الأكوام التي يدعونها «الفخاخ» في وضح النهار وماشيتهم تتقدمهم، بيد أن ينز والفتى لا يميزان شيئًا الآن وليسا على وعي بفداحة خطر هذه المجازفة. إلا أن ينز مع ذلك يشعر بالخطر عندما يخبو صوت العاصفة، بحيث لا يبقى هناك إلا صمت غريب. يتوقّف، يتلفت ناظرًا حواليه، يستمع، يمسك كتف الفتى، وبصوت هامس يوضح له مكمن الخطر، فهناك عدة أطنان من الثلج تخيم على رأسيهما. لا تفه بكلمة، كلمة واحدة يمكن أن تقضي علينا.

يتنفسان الصعداء بعد نجاحهما في الابتعاد عن الشاطئ، ويقفان جنبًا إلى جنب عدة لحظات، كما لو أنهما يتفكران في الحقيقة الغريبة بأنهما ما زالا على قيد الحياة، ثم يتابعان التقدم، يتجاوزان مزارعًا من غير أن يلاحظاها، مزارع مكسوة بالعشب مدفونة في الثلج، خفية في الضوء، ناهيك عن خفائها في غمار عاصفة مظلمة، الناس والحيوانات يتنفسون

تحت الثلج، مثلهم مثل العشب ينتظرون أغاريد الطيور وشروق الشمس. يمشيان ويفكران. ليس سهلاً بالنسبة إلى شخص عادي أن يتحكم بأفكاره؛ فهي يمكن أن تكون صعبة المراس مثل أي قطيع ماشية وتفر حالما يرخي المرء قبضته عنها، تفر وتختفي في المدى أو تتبدد كالدخان. في الحقيقة، ذهن الفتى مفعم بشكل رئيس بهراء مطلق. صورة صغيرة أو صورتان من ذاكرته، أحداث من محطة صيد السمك، أندريا تضحك بينه وبين باردور، وبيتور صامت، وبيتور يردد أشعارًا بذيئة ليكافح الصقيع، بينما هم عاكفون على خيوط الصيد ينتظرون، وجه آرني الودود، الخطوات الراقصة التي قامت بها غودرون أمام الفتى وباردور، وربما هي لباردور على وجه الخصوص، ومع ذلك شعر الفتى في الأمسيات أنه لن يغمض له جفن أبدًا، بسبب ما تراءى له، في ذلك الوقت، أنه الحبّ. يفكّر في باردور، ومن الجيد حتمًا أن ينسى نفسه فترة طويلة، فالرحلة تصبح أسهل، كما لو أن باردور إلى جانبه تمامًا، هو إلى جانبه، ليس باردًا وميتًا أو عاتبًا بشدة، إنما دافئًا بالحياة، ومنه تتدفق طاقة تجعل الوجود أسهل وتزيل العقبات كلها. يفكّر الفتى في باردور ويفتقده. ذاك الذي يموت لا يعود أبدًا، فقد فقدناه، ولا قوة في الكون قادرة على أن تعيد لنا دفء حياة تلاشت، لا وقع الصوت، ولا حركات اليد وحس الفكاهة. جميع التفاصيل التي تحتوي على الحياة وتمنحها الصلاحية تتلاشى في حنايا الأبدية. تتلاشى من غير أن تخلف وراءها إلا جرحًا مفتوحًا في القلب، يحوله الزمن شيئًا فشيئًا إلى ندبة متورمة. مع ذلك، ذاك الذي يموت لا يتركنا أبدًا بشكل نهائي، وهذا تناقض يريحنا ويعذبنا في الوقت نفسه؛ ذاك الذي يموت هو في آن قريب وبعيد. أنت ميت، وعلى الرغم من ذلك أنت هنا، يهمس الفتى، ويبتسم باردور ويصبح المشي أسهل، تدفعه الريح الباردة، تزعزعه نوعًا ما، بيد أن لا بأس في ذلك. أنا هنا لأسلّمك رسالة منهم، يهمس باردور، إنهم يراقبونك، وهم يأملون فيك ويؤمنون بك، وبالتالي أنت تعرف ما يجب

عليك أن تفعله . لا ، يقول الفتى بصدق ، هذا بالضبط ما لا أعرفه وهذا يؤلم ، أخبرني ما ذاك الذي ينبغي أن أفعله؟ إلا أن باردور يختفي ، والفتى يخاطب الثلج المتساقط ، ونهر الجليد في مكان ما وراء العاصفة ، ضخم بضخامة نهاية كل الأشياء . يتطاير الثلج من الأرض مدومًا ويسوط وجهيهما ، إذا كانا ينويان أن يعيشا إلى ما بعد هذه الليلة ، فعليهما أن يعثرا على ملاذ ، لكن أين هو؟ لا يستسيغ ينز فكرة حفر كهف ثلجي ، وصنع مأوى في عرين العدو نفسه . ذاك ملجأ خطر جدًا ، بل أخطر قليلاً من مصيدة موت . يترنحان قدمًا ، رجلان ، كائنان حيّان ، روحان في عاصفة بالغة السوء . يميل الفتى إلى الاتكاء بثقله على ذراع ينز . عليك أن تعتني به ، كانت هيلغا قد قالت ، وأجاب ينز ، نعم . ما قيمة الكلمات إذا لم يلتزم بها المرء ، وفي هذه الحالة ما قيمة المرء بحدّ ذاته؟ ومن يقرر إن كنا سنعيش أو نموت ، إن كنا سنموت من تعرضنا للثلج في العراء ، نتجمد ونحن في البحر ، نهلك من الوحدة . لسبب ما يغذّ ينز السير متحديًا العاصفة . هو نصف أعمى من القشرة الجليدية التي تغطي وجهه ، بيد أنهما لا يلبثا أن يعثرا على مزرعة ، مزرعة مدفونة تقريبًا في الثلج ، وقد مضى عليها زمن طويل منذ أن تهاوت وأصبحت خرابًا . لكنّها ملجأ ، بل ملجأ جيد ؛ يعثران على مكان ليرتاحا ، يتناولان شيئًا من الطعام ، يغمغم الفتى بكلام ما ، يتلو الشعر ، يفكر في الناس الذين عاشوا هنا ، ثم تسري في جسديهما قشعريرة الاستكانة إلى النوم ؛ النوم في المزرعة الخربة . أو الإغفاء برهة . ترى ، ماذا حدث للحياة التي احترقت هنا ، لماذا تتبخر ساعات الإنسان كلها ، تُفقد برمتها ، أما من أحد هناك ليدوّن ذلك كله ، الأحداث جميعها ، ضحكات الأطفال والقبلات؟ تمرّ الليلة . ويقبل الصباح وهما ما زالا قيد الحياة . إنما في الوقت الراهن فقط ، يغمغم الفتى وهو يحبو ويتحامل على نفسه خارج الملجأ في إثر ينز ، متيبسًا جدًا من البرد كما لو أنه يبلغ من العمر خمسين سنة .

٨

يطرف الرجلان بعيونهما وينظران حواليهما . إنه الصباح الباكر ليوم ربيعي ، لكن الضوء الربيعي ، الضوء القاسي تارة ، والمغمس أحيانًا بنعومة بأشعة الشمس لا يكاد يرى ؛ ينجرف مشتتًا بين ندف الثلج التي تسكبها السماء عليهما . ومرة أخرى يشدان الرحال . لا يبصران نهر الجليد ولكن يشعران به ؛ هو على يمينهما ، يمتد عاليًا وراء الثلج المتساقط . نهر الجليد هو طبعًا لا يعدو كونه كتلة عملاقة من ثلج قديم ، من ندف ثلج يعود عمرها إلى عديد من مئات السنوات ، بيد أنه يغير معالم بيئته بأكملها . كل شيء يغدو أعظم عندما تشرق عليه أشعة الشمس ، ويبدو الأمر نوعًا ما كما لو أن الريف قد بورك ، وعندئذ يفضل الناس الموت على أن يرحلوا من هناك .

أنت متأكّد من الطريق؟ يسأل الفتى في أول ملجأ ، ذاك الذي تفصله ساعات كثيرة عن المكان الذي انطلقا منه . كانا قد استعادا ليونة أوصالهما المتيبسة ، بل أحيانًا كانا قادرين على التغاضي عن الزمهرير . ما زالت شدة هطول المطر نفسها ، ما زالت الريح نفسها ، ما زال الثلج العاصف نفسه . أنت متأكد؟ يسأل ، إنما لمجرد أن يقول شيئًا حقًا . الناس الذين يتبادلون الحديث ليسوا تحت رحمة العالم بالقدر نفسه كأولئك الذين لا يفعلون . يحدق ينز إلى الأمام بصمت ، ينقر الجليد المتراكم على لحيته ليزيله ، نعم نعم ، يقول أخيرًا .

الفتى : جيد أن يعرف المرء الطريق .

ينز : نتجه نحو الشمال الشرقي ، ثم الشمال الغربي .

الفتى : متى ننعطف؟

ينز : في الوقت المناسب .

جيد أن يعرف المرء الطريق ، يقول الفتى ثانية ، لأنه من الجيد أيضًا أن يعبّر المرء عما يدور في خلده بكلمات قليلة مباشرة ، لا هراء ، ولا أي لف ودوران ، حقائق فقط . يجلس هناك إلى جانب ينز وينضج من التعمق في هذه الفكرة . أن يكون المرء رجلاً يعني أنه يعرف إلى أين يتجه ، ولا يهدر الكثير من الكلمات على ذلك . النساء ينجذبن إلى مثل هؤلاء الرجال . هكذا هي الحال . ثم لا يلبث طبعًا أن يشرع في التفكير في راغينهيلد ، وليس هناك ما يمكنه فعله حيال ذلك ، بيد أنها ابنة فريدريك وذاك ليس بأي حال جيّدًا . حسن أنها ستبحر إلى كوبنهاغن وتنسى نفسها بين الأبراج والناس بعينيها الباردتين ، بجسمها الذي يشبه وترًا مشدودًا ، بنهديها المكتنزين . إلا أنه لم يسبق أن قبّله أحد قط . وهي قد قبّلته . قبلته بشفتين ناعمتين ونديتين .

كيف يمكن نسيان ذلك؟

ليته فقط يستطيع لمس نهديها ؛ شيء ما لا بدّ من أن يحدث عندما يلمس الرجل ما لا ينبغي أن يُلمح مطلقًا .

يحملق في اللاشيء بصمت . جيد أن يشعر المرء بعضوه ينتصب في الصقيع اللاسع ، في عاصفة مظلمة . هذا يبعث الدفء في المرء قليلاً ، يجعله ينسى نفسه . ثم ، يكف الأمر عن أن يكون جيدًا ، إذ يصبح في الحقيقة مخزيًا . وليس من الجيد أيضًا عدم قول شيء ؛ فالعالم لا يعود مهمًا عندئذٍ ، وفي الصمت هناك مجازفة في أن المرء سيبدأ في التفكير بما يستحسن أن لا يفكر فيه . أتعرف أي قصائد؟ يسأل . لا ، يجيب ينز من غير أن ينظر . أنغني إذًا؟ لا . لكن لا ريب في أنك تعرف بعض القصائد ، ربما من تأليف

بياريني ، رجل مثلك . . . لا ، يقول ينز . يوناس إذًا؟ لا . في هذه الحالة ألا يجدر بنا أن نتحدث قليلاً؟ لا . لماذا لا؟ ولماذا نعم؟ حسنًا ، نحن رجلان في خضم عاصفة بعيدين عن المناطق المأهولة ، مشينا في ظروف صعبة على امتداد ست وعشرين أو ثمان وعشرين ساعة ، وما زالت أمامنا مسافة طويلة لنقطعها . لا يقول ينز شيئًا . والمرء يشعر بعزلة أقل . لا يقول ينز شيئًا . أأنت مستغرق في التفكير؟ أنا أرتاح . هل فكرتَ كثيرًا؟ فكرتُ ، في ماذا؟ قلتَ إنك تحتاج إلى التفكير ، ألا تتذكر ، وأنا . . . التفكير ، نعم وليس الكلام . هما متلازمان أحيانًا . بالكاد يحدث هذا . يعزّز أحدهما الآخر . لا . ما اسمها؟ مَن؟ المرأة . أيّ امرأة؟ المرأة التي تفكّر فيها . من قال إنها امرأة؟ أنت تفكر في رجل إذًا؟ أنت متعِب . أعني ، تريد أن تمشي لأيام وأيام في العواصف والثلج ليتسنى لك التفكير ؛ لا بدّ من أنها امرأة مهمة! يلتزم ينز بالصمت . حسنًا إذًا ، يقول الفتى ، سأكتفي بترديد بعض القصائد لنفسي ، اعذرني إذا رددتها بصوت عالٍ ، أنا أجد هذا أفضل ، أشعر بالكلمات على نحو أفضل هكذا . ما الهدف من ذلك؟ يسأله ينز بسخط ، لكن الفتى لا يجيب ويبدأ في تلاوة الأشعار ، هناك في قلب العاصفة والثلج ، إلى جانب رجل لا يحب الكلمات . يتلو قصيدتين ليوناس ، وقصيدتين لستينغريمر ثورستينسون ، واثنتين لكريستيان فيالاسكلد ، يردد القصائد بأسلوب حسن ولا يعترض ينز ، يكتفي بالتنحي جانبًا ويمدّ نظره بعيدًا كما لو أنه ينوي الهروب . ثم بعد كلمات لا تحصى عن البراعم والحب والأسف والوضوح والظلمة ، يتلو الفتى شعرًا لأولوف من ديوان «أناشيد متعددة» . تقول الكتب القديمة أن ترديد أشعار امرأة خلال العواصف يعتبر طالعًا سيئًا . أبدًا لا أسأل للحب مقابلاً ، يقول الفتى ، وهو يضع قفازه المتجمد على قلبه الذي لسعه البرد ، و :

أبدًا لا أسأل للحبّ مقابلاً ،
تزخر العقول الفتية بالتساؤل والأمل
وأنا إلى عجوز شمطاء حولتني
المهام المرهقة والكفاح اليومي ،
واعتصرت حياتي .

في السر والعلن يقال لك ،
الرغبة هاوية سحيقة تُبطن .
وأنا ما فتحت يدي مرة لأظهر
الزهور الذابلة ، وما عرضت عليك قطّ
شفاهًا باردة وشاحبة .

حبي لك لن يعرف أبدًا نهاية ،
بدونه حياتي تستحيل موتًا .
قلبي المحروم من ثرائه ، من أنفاسه ،
لن يرممه إله ولا بشر .

٩

تحمّل الشعر ليس سهلاً دائمًا ؛ فهو يمكن أن يأخذ المرء في اتجاهات غير متوقعة . وُهِبتُ الأجنحة ، لكن أين الهواء الذي أحلق فيه؟ ليس لدى ماريا أي أولوف ، يفكر الفتى وهو يردد المقطع الثاني ، ماريا في فيترارسترند ، وثمة احتمال ضئيل في العثور على مجموعة الشعر هذه في سلياتريه . نسي أمر ينز منذ فترة طويلة ؛ قصيدة واحدة ليوناس وذاب هذا الفتى في الشعر ، ما عاد واعيًا بالعاصفة ؛ ردد القصائد بصوت عالٍ لنفسه ، رددها كأنها تعاويذ سحرية وعينه تبصر عالمًا آخر . لا شيء حلوٌ في نظري بدونك . الشعر يقتل ، يعطيك أجنحة ، ترفرف بها وتشعر بالأصفاد . يقودك إلى عالم آخر ، ثم يجتثك ليعيدك ، إلى قلب العاصفة ، إلى كدر الابتذال المألوف . بدونه حياتي تستحيل موتًا ؛ لسبب ما يحتاج الفتى إلى تكرار المقطع الأخير ، وعندئذ ينهض ينز ، بدونه حياتي تصبح موتًا ، ينهض ويسرع مجتاحًا العاصفة ، أو بالأحرى يرتمي في أحضانها ، ويمضي . فيتحرّر الفتى من سطوة الشعر ويهرع وراء ينز لئلا يضلّ طريقه .

يحثّ ينز الخطى ، يهاجم الثلج والريح ، يهاجم العاصفة مباشرة ويحول وجهته ميممًا الشمال الغربي . بدونه حياتي تصبح موتًا . يهاجم العاصفة كما لو أنها شخص ما يتحتم عليه أن يركّعه ، في صراع حتى الموت . يهاجم العاصفة التي تطوقه بضحك مجلجل وهازئ . تضحك هازئة منه ، من ينز غوينسون ، من الرجل ، ومن حياته ، من ضعفه وخياناته . قلبي المحروم من ثرائه ، من أنفاسه ، لن يرممه إله ولا بشر . توقّف هنا في

طريق عودتك ، كانت سالفر قد قالت له قبل أن ينطلق قاصدًا المرج قبل أسبوع . وقفا خارج المزرعة ، وكلاهما يفتقر إلى النوم ؛ الهالات تحت عينيها واضحة جدًا في الضوء الساطع ، سكاكين الزمن ، سكاكين الحياة . نعم ، أجاب ، طبعًا . هل ستفكر فيّ؟ نعم . متى؟ دائمًا . دائمًا هي كلمة جميلة ، وماذا ستفعل عندما تعود؟ سأُقبّلك ، قال ، وانطلق يرتقي المرج . أبدًا لا أسأل للحب مقابلاً . أحببت زوجي ، قالت مرة وهما مستلقيان معًا ، أحببتُ ذلك الوحش . كنتِ شابة ، قال ينز . نعم ، لكن أليس غريبًا أن أحب رجلاً كذاك ؛ ضربني ولم أكفّ عن حبه ، لم أكف عن حبه إلى أن بدأت كراهيتي تتأجج . أتذكّر أنه كان مرة وسيمًا ولطيفًا ، هو في الواقع لم يكن قويًا بما يكفي ليجابه الحياة ، هذا جعله وحشًا وصعلوكًا . ظننت أنني لن أحب ثانية أبدًا ، قالت في ظلمة الغرفة العائلية ، وكانا معًا ممتنين للظلام ، نطق مثل هذه الكلمات أسهل في الظلام ، سماعها أسهل وتقبلها أسهل . طبعًا لم يقل ينز شيئًا ، اكتفى بلفّ ذراعيه حولها ، أفسح المجال لذراعيه لتنوبًا عنه في الكلام . تعرف أنني أحبك ، قالت ، وسارعت إلى إغلاق فمه بقبلة قبل أن يتاح له الرد بأي شيء . ليعرف الجميع أنني باقية على حبك ، أن حياتي بدون هذا الحب ستستحيل موتًا ؛ ماذا ستفعل عندما تعود؟ سأُقبّلكِ . أتراها تمنت سماع جواب مختلف؟ إذ ما معنى قبلة واحدة؟ ألم تكن تسأل عن حياة ، ألم تكن تسأل عن كل ما يستطيع تقديمه لها ، أيامه كلها ، قوته كلها ، ضعفه كله . وهو ، هو لم يعرض إلا مجرد قبلة واحدة! يكافح ينز إلى الأمام والعاصفة تعوي ، وتطلق ضحكًا هازئًا ، إذ على الرغم من رغبته في التفكير في سالفر فقط ولا أحد غيرها ، التفكير في صوتها ، في قبلاتها ، في نقرتها ، في ساقيها الطويلتين ، في دفئها ، فكر أيضًا في ياكوبينا ، الخادمة في فيبك ، وعجز عن طردها من رأسه . لم يكن نائمًا عندما فركت ساقيه الباردتين ، كان مستيقظًا تمامًا آنذاك ومع ذلك لم

يردعها ، على الرغم من أن يدها تسللت إلى الأعلى ولمست ما لا يجب مطلقًا أن تلمسه ؛ عجز عن منعها ، ولم يرغب في منعها .

أولئك الذين يخونون بلادهم وملكهم في الحرب يُردون رميًا بالرصاص ، إنما ماذا علينا أن نفعل بأولئك الذين يخونون أنفسهم ، يخونون الحياة بحدّ ذاتها؟

لماذا لم يطلب من سالفر قط أن تأتي معه ، بجدية وتصميم ، بدلاً من النزوع إلى قول ذلك بلا مبالاة تقريبًا ، في ضوء الصيف ، والقبول بنصف جواب؟ ماذا يخيفه؟ ضعفه؟ أنه ليس أفضل ولا بمثقال ذرة من الوحش ، زوجها؟ وهل هي تخشى من الشيء نفسه ، من أنه ضعيف وبالتالي سينتهي به المطاف مثل زوجها؟ يضربها ويهينها . ربما أنا فاسد كفساد ذاك الشيطان ، يفكر ينز ، وهو يدوس كالمسعور على أكوام الثلج ، يفتح فمه ويصرخ .

يصرخ بقوة ، وبلا شكّ يدوي صراخه فيه ، فيرتعد تحت وطأة هذا الصراخ ، لكن الفتى لا يسمعه ، لا يسمع إلا الريح ، مضى عليه وقت طويل منذ أن فقد أثر ينز ، ذاك الشيطان اختفى في جوف العاصفة ، تركه وحيدًا مرة أخرى . اللقيط المجنون ، ساعي البريد هذا ، لا بدّ من أن هناك شيئًا غير سوي في رأسي لأستمر في اللحاق به بدلاً من الالتفاف والرجوع كما اقترح . يسرع الفتى ، يتعثر مرتين ، يغري نفسه كما يفعل غالبًا ليصيح مناديًا ساعي البريد المجنون لكن لا أحد يجيبه سوى الريح ؛ يغوص ، ينزلق مرة عند منحدر ، ينزلق مسافة طويلة ، لا فكرة لديه أين هو عندما يتوقف أخيرًا عن الانزلاق ، ولا أدنى فكرة لديه عن الاتجاه المنطقي فعلاً الذي عليه أن يسلكه ، ولهذا السبب يتجه إلى لا مكان ، حقًا ، يكتفي بالتسكع على غير هدى ، يلوي رأسه ، يحاول حماية عينيه بينما يحدق في كافة الأنحاء ، يمعن النظر من بين ندف الثلج ، ولا يرى بطبيعة الحال شيئًا ما عدا الثلج .

الوغد الملعون، يفكر، يشتم ينز ثم سرعان ما يعرض عن شتمه، لا يمتلك الطاقة ليفعل ذلك، ويكتفي بمتابعة المشي. حسنًا، هو لا يتابع المشي بالضبط، ما يقوم به لا يدخل في هذا النطاق، هو بالأحرى يهيم على وجهه وحده في هذا العالم، بينما الريح تخضه وتزعزعه. كانا متجهين صعودًا عندما فقد أثر ينز، وما فتئا يفعلان ذلك فترة لا بأس بها، وبالتالي من المحتمل أن يكون الحفاظ على المسار نفسه أكثر أمانًا. لكن، كلما أمعن في الصعود ازدادت صعوبة المتابعة، في بعض الأحيان يعلق، ويغوص في الثلج إلى ذراعيه، بل حتى يستغرق وقتًا طويلاً ليحرر نفسه ويفقد طاقته الثمينة المتضائلة. ثم ينزلق نزولاً مسافة طويلة ولا يجرؤ على الصعود ثانيةً. بل في الواقع يمعن في الانحدار، وفي الوقت نفسه يحاول أن يبقى متجهًا نحو الشمال الغربي، أو ما يتهيأ له أنه الشمال الغربي. ثم يتخلى عن فعل ذلك ولا يفكر إلا في البقاء على قيد الحياة، وهذا أيضًا هدف عظيم. تدفعه الريح بعيدًا عن مساره، ويسعى إلى طرق الدروب الأسهل، يتحاشى الثلوج المنجرفة، يرجع القهقرى عندما يبدأ في الغوص في الثلج، ويحاول المتابعة في مكان آخر، وفي النهاية لا يستطيع التحمل أكثر مما فعل، يتعثر، يغوص إلى ركبتيه، ويعجز عن الوقوف مرة أخرى. بيد أنه يزحف قليلاً، يحاول العثور على ستر يحميه، ويجد واحدًا، ربما ليس سترًا، ليس كذلك بالضبط، إنما هو موضع غير مكشوف تمامًا، وهناك يستلقي، وهذا رائع.

تهتاج الريح فوقه، لكن الفتى لم يعد يبالي.

مع ذلك، المكان هنا موحش للغاية، كما لو أنه وحده في الدنيا والجميع ماتوا مرة ثانية، كل ما هو جيد ميت، والآمال برمتها اعتراها الذبول. يشعر أيضًا بشيء يمتد من وسط قلبه صعودًا إلى عنقه، هو عمود من الدموع، يرتفع إلى ذلك المستوى العالي الآن، ويسعى إلى الصعود أكثر، يريد الخروج، يرتفع ويملأ تجويف صدره، يملأ عنقه. وليخفف عن

نفسه يشرع في دندنة تهويدة من أعماق طفولته ، أغنية شعبية قديمة ، لحن بسيط وهشّ للغاية من أربعة أبيات تحتوي أحلام وسلوى ألف سنة . غالبًا ما دندن والداه هذه الأبيات له ، بما يشبه الهمس ، والأنغام الحزينة واكبته في النوم وتسللت هابطة لتتغلغل في أحلامه . يهمهم لنفسه ، يهمهم ويطلق النغم الهشّ نحو العاصفة ، يهمهم إلى أن يُحمل النغم إلى أمه التي تتلقاه بيديها ، تتتبعه على طول الطريق نحو الفتى . أنت هنا إذًا يا حبيبي ، تقول ، ترفعه برفق وتأخذه معها ، ولا يعرف إلى أين ، إنما يأمل أن ذلك سيكون بعيدًا عن العاصفة . وبعيدًا عن هذه الوحشة التي تدعى الحياة .

١٠

قد يخطر على بال المرء أنه كان هناك من يرعاك ، يقول ينز ، الذي انبثق فجأة من وسط العاصفة وأوقف الفتى على قدميه ، أيقظه ، هزّه ، لا تنم . نعم ؛ إنما هذا رائع جدًا . صحيح ، لولا أنك بعده لن تصحو ثانية . ولماذا أفعل ذلك؟ يسأل الفتى ، ولا يجيب ينز . لا يحتاج إلى أن يجيب ، فالفتى صحا ويمكنه أن يشعر بالعاصفة ثانية ، ويشعر بالبرد ، أما أمه فاختفت .

يقف ينز قبالته ، وجهه بالغ التجمد بحيث بدا للفتى أنه أقرب بكثير إلى رسول من الجحيم منه إلى رجل . ظننت أن المكان هناك حارّ ، يقول ينز . لا ، الجحيم باردة ، هي متاهة من الجليد . من أين أتيت بهذا؟ لا أدري ؛ من أين جئت أنت بفكرة أن الجحيم حارة؟ أليس هذا مكتوبًا في الكتاب المقدس؟ الكتاب المقدس على أي حال لم يكتب هنا في آيسلندا ، يقول الفتى . لا ، هذا صحيح ، يجيب ينز ، قبل أن يضيف ، هناك شخص ما يرعاك . ماذا تعني؟ يسأل الفتى ، غاضبًا قليلاً إزاء عودته إلى البرد والحياة ، السكينة كانت في منتهى الروعة وأمه كانت معه .

نعم ، خلّف ينز الفتى وراءه ، مضى قدمًا غير مبالٍ ولا مثقال ذرة بأي شيء ، بيد أنه عاد إلى صوابه عند رأس السفح حيث وجد نفسه وحده . مضيتَ بسرعة كبيرة ؛ حاولت أن أصيح مناديًا عليك . فيقول ينز مباشرة ؛ خذلتكَ . أفعلتَ؟ كان يجدر بي أن أعتني بك ، وعدتُ أن أفعل ؛ وحتى لو لم أعد بشيء ؛ لا أحد يتخلى عن أحد في مثل هذا الجو . لم تفعل سوى

أنك مضيت بسرعة تفوق سرعتي ، هذا لا يعتبر خذلاً . خلفتك ورائي ، مرة أخرى ، هذه هي الحقيقة . حسنًا ، لماذا فعلتَ ذلك إذًا؟ لا يجيب ينز ، كان غضبه قد فارقه وهو عند سفح الجبل ، والفتى قد اختفى . اكتشاف هذا لم يكن أمرًا جيدًا ؛ استدعى فيه ازدراء النفس . العثور على شخص في مثل هذه العاصفة لا يكاد يكون ممكنًا ، هو بالأحرى مستحيل . لكن العيش في هذه البلاد مستحيل أيضًا ، مع ذلك ها نحن قد مكثنا هنا على مدى ألف سنة . أخرج ينز بوق البريد ونفخ ، بدأ يعود أدراجه ونفخ عدة مرات . خمن أن الفتى استسلم للريح ووعورة الدرب ، بحث عنه وهذه الفكرة في ذهنه ، وبلغ تقريبًا حافة الاستسلام ، كان ذلك كله بلا جدوى مطلقًا ، بدأ يشعر بالتعب ، ويفقد حس الاتجاهات ، طاقته تضاءلت بسرعة ، ثم فجأة لمح في مكان ما أمامه طيفًا . بدا له أنه الفتى ، صاح وتوجه نحوه ، أطلق لسانه بالشتائم عندما أخذ الشكل يضمحل ، وسرعان ما شعر نتيجة ذلك أنه ما عاد في وسعه أن يواصل البحث لولا أنه تقريبًا وقع فوق الفتى النائم في حضن الثلج .

أكنتُ نائمًا؟

مثل طفل رضيع .

اللعنة .

نعم .

طيف؟ يسأل الفتى وهو يأخذ الفطيرة المتجمدة التي ناوله إياها ينز ، كيف بدا؟

ينز : لم أتبينه .

الفتى : ماذا يفعل هنا؟

ينز : كان مجرد سراب ؛ إنه الجو فقط لا غير .

الفتى : أتعتقد أنه كان طيف شخص؟

ينز : سراب ، قلت .

الفتى : ذاك الذي قادك إلي؟

ينز : ما كان يجب أن أذكره لك .

الفتى : لا بدّ من أنه كان شخصًا ؛ أتساءل إن كان كذلك ، أعني ، شخصًا حيًا؟

ينز : ألم تفرغ من تناول فطيرتك؟

الفتى : ينز ، أليست هناك ولو إمكانية ضئيلة لعينة في أنه كان شخصًا حيًا؟

ينز : الأموات لا يتسكعون هنا وهناك . ليس هناك أي احتمال في حدوث ذلك مطلقًا .

الفتى : أنا لا أعرف أين نحن ، لا أعرف سوى أنّنا بعيدان عن أي شيء حي ، في مكان ما على الجبال ، في هذا الجو الفظيع ، ولأيام والدنيا مظلمة وعاصفة ، ما يعني أن لا أحد غيرنا في الأرجاء ، ومع ذلك يظهر طيف أمامك ويقودك ، يريك أين أنا ويختفي . وهذا غريب ، سواء كان شخصًا حيًا أو ميتًا . الأموات نادرًا ما يريدون إنقاذ حياة الناس ، بل على العكس من ذلك ، يستدعون الأحياء إليهم ، إذًا ماذا يفعل هذا الشكل الذي اختفى فجأة ، أتراه الآن ، كيف يبدو؟ يتلفت الفتى ناظرًا حواليه ، يقضم الفطيرة ، يقبع ينز على وركيه ، فأي شيء آخر لا يكاد يكون ممكنًا في هذا الملجأ الصغير الذي هو تقريبًا لا ملجأ . تؤرجحه الريح مثل حصاة على الشاطئ ، يهزّ رأسه .

الفتى : أيعني هذا لا؟

ينز : إذا شئت .

الفتى : وإلى ماذا تشير لا ، بالضبط؟

ينز : أتحتاج إلى مناقشة كل شيء؟

الفتى : لا .

ينز : هذا ليس ما أسمعه .

الفتى : أنا لا أتكلّم كثيرًا . لكن ألا يحتاج المرء أحيانًا إلى التدبّر في الأمور؟

ينز : لماذا؟

الفتى : أوه ، للتوصل إلى نتيجة ، كما أفترض . شخصان معًا ، تائهان تمامًا في قلب عاصفة عاتية ، يظهر لهما شبح يبدو أنه يريد إنقاذ الأرواح ، أليس ذاك سببًا كافيًا ليتبادلا الحديث؟

ينز : حان وقت متابعة التقدم ، وأنت لا تفعل هذا بوساطة الكلمات .

الكلمات لا غبار عليها ، يقول الفتى وهو يشعر بالإهانة ، الكلمات تساعدنا لنعيش .

ينز : غاب هذا عن ذهني ؛ أكمل فطيرتك ، فنحن سننطلق .

الفتى : بعض الكلمات تجلب لنا السعادة .

ينز : من بين الناس جميعهم ، كان لا بدّ لي من أن أنتهي معك .

الفتى : وبعضها تجلب لنا الحزن . أصدقك القول ، أعتقد أن الكلمات هي سابع عجائب الدنيا .

ينز : أعتقد أنك في مرحلة ما من حياتك تعرضت للضرب .

الفتى : ذاك الذي يضرب شخصًا آخر يفعل ذلك عادة لتغطية تفاهته وافتقاره إلى الكفاءة .

ينز : سننطلق الآن ، إلا إذا صممت على أن ندردش حتى الموت .

لا ، لم يرغب الفتى في أن يفعل ذلك . إنما هو يحتاج إلى التحرّر من عبء بعض الأشياء قبل أن يتابعا طريقهما نحو المجهول ، نحو العاصفة . ماذا تعني؟ أعني أنني أحتاج إلى قضاء حاجتي . قضاء حاجتك؟ تحتاج إلى التغوط ، التغوط هو التغوط والكلمات المزخرفة لا تغير هذا . لكنها

تغيرك ، يقول الفتى ، ويبدأ في فعل ما يطلقون عليه العديد من التسميات المختلفة ، بيد أنه مهما اختلفت الكلمات التي تشير إلى ذلك الفعل ، فالأمر ليس مريحًا مطلقًا في هذا البرد القارس اللعين والثلج العاصف والريح . يحاول الفتى ألا يعري إلا أقل ما يمكن تعريته من لحمه ، ويسير الأمر بشكل سيئ ، ثيابه متجمدة من الصقيع ، أصابعه متخدرة من البرد ، تلتوي فاقدة الحس حالما ينزع قفازه ، يشهق عندما يكشف مؤخرته ويحس بلسع الريح . تسقطه أرضًا هبة ريح مفاجئة ، فيقبع هناك ولباسه الداخلي حول كاحليه ، فيضحك ينز . يبذل الفتى جهده ليتحامل على قدميه ، يدعم جسمه على نحو أفضل ، يميل مع مهب الريح ، يحاول الإسراع في إنهاء ما يفعله ، ولو حدث أن همدت الريح فجأة ، كعادتها ، لسقط الفتى إلى الخلف ، حتى والغائط في منتصف طريقه إلى الخارج ، وعندئذ ، سيسخر منه ينز على طول الدرب إلى الجحيم . لكن لحسن الحظ لم يحدث ذلك ، يفكر الفتى بامتعاض . وأخيرًا ينجح في اعتصار الغائط كله ، الذي خرج ضخمًا وقاسيًا كالحجارة ، ثم يرفع لباسه الداخلي بأسرع ما يمكنه .

الريح شفَّافة ، هي هواء في حالة حركة فقط ، هواء على عجلة من أمره من غير أن يكون لديه مكان يقصده . يهبّ بدون سبب ظاهر . وهو بالتالي يجعل من الصعب جدًا على المرء أن يحافظ على مساره ، ويُرغم في النهاية على الاستسلام لهذه الظاهرة الشفافة ، يكون لديه هدف وفي الوقت نفسه يرغم على الخضوع إلى اللاهدف . تهب الريح الآن نوعًا ما نحو الغرب ، وتدفعهما ببطء ولكن بثبات تجاه الشمال ، تدفعهما بعيدًا في أعماق الجبال ، وعلى الفور يفكر الفتى ، نحن نتجه شمالاً وليس الشمال الغربي ، بيد أنه يفضل نبذ الفكرة ، لا يملك الطاقة على تمحيصها ، ولا اهتمام لديه بوجهتهما ، فإرهاقه أعظم من أن يكون له رأي في ذلك ، يكتفي بتعقب ينز ،

يضع ثقته في هذا الرجل الذي لا يحب الكلمات. وينز بدوره يحاول الاستمرار في المشي مع الريح، يبحث عن دروب أسهل ليجتازاها، على الرغم من أن لا شيء سهل هنا، وليس أمامهما إلا خياران، إما الدرب الصعب أو الذي لا يقهر. ويفضل اختيار الأول، لأن ثقته بقدرة الفتى على أي شيء آخر غير كافية، وهو بنفسه أصبح لا مباليًا، غير مهتم بالدرب الذي يسلك، فمسابقة الزمن لتوزيع البريد في وقت محدد أمر سخيف. من السخف الاهتمام بالالتزام بالمواعيد وإضمار الضغينة لرجل واحد أكثر من الاهتمام بالحياة. ما يهم هو الاستمرار في التقدم، وبالتحديد حيث لا علاقة للاستمرار بأي شيء آخر، بل فقط الخروج من هذا على قيد الحياة، والعثور على مأوى، وانتظار انحسار غضب العاصفة، ثم تسليم البريد من غير تعريض حياته وحياة الفتى للخطر. ويعود بعد ذلك إلى البيت حيث هالا قد بدأت تتوقع حضوره ولا تكف عن سؤال والدهما عنه ثلاثين مرة في اليوم، ألن يأتي ينز؟ إنما أولاً عليه التوقف عند سالفر ليتخذ خطوة، يقول ما ينبغي قوله، ففي مرحلة ما يجب على الأرجح أن يقول المرء شيئًا، يطلق عنان نفسه، يفتح قلبه، وإلا يمكن أن يفقد حياته، يصادر السعادة ويحكم على نفسه بالعزلة. لكن، ماذا عساه يقول، وهل يستطيع؟ لماذا يجب أن يكون كل شيء معقدًا بين الناس؟ يفكر وهو يتقدم على غير هدى، والبرد ينقض عليهما، وهما تائهان تمامًا بلا شك، بيد أن هذا لا يهم. يتهيأ له عدة مرات أنه يلمح طيفًا يظهر ويتبعه، على الرغم من أن ذلك يعني الانحراف قليلاً عن اتجاهه، يفعل ذلك تلقائيًا تقريبًا. ما يهم إن كان ذلك الطيف شخصًا ميتًا، فالأحياء لم يثبتوا أنهم كانوا طيبين معه بشكل خاص، الوجود كئيب جدًا، فلماذا لا يولي الأموات ثقته، إذ ماذا يكسبون من خيانة الحياة؟ وهكذا يقودهما الطيف إلى ملجأ، ملجأ جيد، أفضل ملجأ في هذه الرحلة، والتخلص من الرياح والزمهرير والثلج المدوم في منتهى

الروعة ، إلى درجة أنهما يصبحان عاطفيين ، وعلى نحو مربك يتأمل كل منهما الآخر ، مجلللان بالبياض ومسفوعان . ما عاد ينز يملك القدرة على تحريك رأسه ، لحيته متجمدة وملتصقة بثيابه ، ملتصقة بفمه ، يتبادلان النظر ولسان حال كل منهما يقول ، يا للزميل الممتاز!

هذه حزمة هراء ، يفكر ينز بينه وبين نفسه قبل أن يحاول تحرير نفسه من درعه الصقيعي .

يجلسان متلاصقين ، يشعر كل منهما بحضور الآخر شعورًا قويًا ، شعورًا قويًا جدًا إلى درجة أن الوضع ينبغي أن يكون غير مريح ولا يطاق مطلقًا بالنسبة إلى ينز ، الشعور بأنه قريب جدًا من رجل آخر . مع ذلك لا يحرك ساكنًا . ويرى الفتى أن ذلك لطيف ، فقد سبق أن لف ذراعيه حول الرجل الضخم في سرير في فيترارسترند ، والحياة تنشد الحياة ، هذا طبيعي ولذلك السبب يزداد التصاقًا بينز ، مثل جرو . ينظر ينز إليه ؛ هل تشعر بالبرد؟ يسأل ، ليس بقسوة مفرطة ، إنما قليلاً فقط ، فيبتعد الفتى . أخطأت بتجاوزك ، يقول ينز ، بعدما ابتعد الفتى بقدر كاف عنه . لكنك رجعت . عذر تافه لو متّ . ومن جديد يصمتان . لا يجرؤ الفتى على قول شيء خوفًا من أن يفسد اللحظة الطيبة التي يتشاركانها على نحو غير متوقع ، ثم لا يلبث ينز أن يقول ، أنا لم أخبر أحدًا من قبل قطّ . ماذا؟ يقول الفتى ، شبه خائف من هذا التقارب المفاجئ وغير متأكد من أنه يريد أن يسمع المزيد .

ينز : رأيت وسمعت أشياءً ، وقد سببت لي قلقًا معيّنًا . سبق أن كنت على المروج ورأيت أشياءً . وسمعت أشياءً ايضًا . رأيت الجبال في ليالي شهر تموز وكانت مثل طيور نائمة . وقد سمعتها تغرد . بيد أن الجبال لا تغرد ؛ هذا سخيف .

لا يتجاسر الفتى على النظر إلى ينز ، ولا يقول شيئًا إلى أن يتأكد من أن لا شيء آخر سيأتي من ساعي البريد في هذه اللحظة ، ثم يقول بتردد ،

أنا أيضًا سمعتها تغرد ، أعني الجبال . فيقول ينز ؛ أخافني ذلك . ثم يصمت مرة أخرى . وأخيرًا : ولماذا أخافك ذلك؟ ليس من السليم أن تسمع الجبال تغرد ؛ هي ليست طيورًا ، الطيور صغيرة ، والطيور تطير ، الجبال ضخمة ولا تطير . صمتَ مرة أخرى . ثمّ : وأنت لم تخبر أحدًا قط عن هذا؟ أأنت مجنون؟ ولا مرة واحدة ، امم ، ولا حتى هي؟ لا ، ثم إن هذا لا يعنيك . مرة أخرى صمتَ ، وأخيرًا : عليها أن تكتشف من أنت . كما لو أنها لا تعرف من أنا . لكنك لم تخبرها عن تغريد الجبال . حينها ستعتقد أنني مخبول ؛ عرفت أنه سيكون من الخطأ أن أخبرك . هذا لم يكن خطأ . حسنًا لنأكل الآن ، يقول ينز ويخرج بقية زادهم . يأكلان بصمت ، يقتاتان ولا يغرد لهما أي جبل في هذه الأثناء . ثمّ ينهض ينز . هل نواصل اقتفاء أثر ذلك الطيف؟ يسأل الفتى . أي طيف تعني؟ ذاك الذي لمحتَ ، الطيف الذي كنا نقتفي أثره . أرأيتَ أنتَ شيئًا؟ أنا لم أكن أمضي في إثر أي شيء . لكننا انعطفنا خلفه مرتين ، واختفى حالما غيرنا وجهتنا . نحن لا نتتبع أي طيف ؛ ثق بنفسك فقط ولا أحد آخر ، ناهيك عن طيف لعين ، سنمضي في طريقنا الآن . أنا لا أملك عينين في مؤخرة رأسي ، ينبغي عليك أن تجاريني . ليس ثمة ما يؤكد أننا سننجح في الوصول إلى المنطقة المأهولة ، عليك أن تضع هذا نصب عينيك ، لكن الرجل يقاوم ، حتى عندما لا يملك أي مخرج ، هذا ما هو عليه الأمر أن تكون رجلاً .

هي نعمة عظيمة أن يكون لدى المرء هدف واضح . عديد من الناس يمرون في الحياة من غير أن يستوعبوها كثيرًا بأي حال من الأحوال . هم بطريقة ما يمضون قدمًا ، يعيشون من صدفة إلى صدفة أخرى ، قبلة هنا ، دمعة هناك ، لمسة يد ، وعزلة ، وخيانة ، لكن أبدًا لا فكرة لديهم تتعلق بـ لماذا ، أو ما الداعي ، أو إلى أين . ذاك الذي يعيش الحياة بلا هدف في وسعه حتمًا أن

يحظى بلحظاته السعيدة، بيد أنها عشوائية على نحو خطر؛ هي مجرد حظّ لا نتيجة، والآن لدى الفتى أخيرًا هدف بسيط وفي منتهى الوضوح: ألا يفقد أثر ينز. يستحسن، وهو يُقذف هنا وهناك في هذه العاصفة العاتية المجمدة للعظام، يعاني من البرد والظمأ والجوع، ألا يغيب عن نظره هذا الرجل الضخم الذي يبدو أنه لا يتعب ولا يكل، الرجل الذي سمع الجبال تغني مثل الطيور، والذي سمح للفتى أن يجلس ملتصقًا به وتفوه بهذه الأشياء الجميلة، أشياء بدا وقعها غريبًا جدًا وهي تخرج من فمه، ثم بعد فترة قصيرة تحول إلى متوحش بعض الشيء، والآن لا ينظر أبدًا إلى الوراء ليرى إن كان الفتى ما زال هناك، يكتفي فقط بالمضي قدمًا، لا يلتفت يمينًا ولا يسارًا، ربما يعرف إلى أين هما متجهان، وربما لا يعرف، لكن، طالما أنهما يتقدمان هما على قيد الحياة، وهذا شيء يحتسب حقًا في هذا الجحيم. إنما ما الساعة الآن؟

هل سيأتي المساء، والليل، وربما الصباح مرة أخرى؟

أم هل يتقدم الزمن بسرعة في مثل هذا الجو السيئ، أيوغل مسافة أبعد من هذين الرجلين؟ ألا يجوب الآفاق تائهًا هو أيضًا، وفي هذه الحالة أين سينتهي بهما المطاف؟ وراء حدود الدنيا، بلا شكّ، يفكر الفتى، حيث العواصف لا تنحسر أبدًا، حيث الدنيا لا تصبح دافئة مطلقًا، والثلج لا يتوقف مطلقًا. يحاول مرتين أن يقضم الثلج ليروي ظمأه ولكنه يغدو أشد عطشًا، بل حتى يُغوى للتحدث مع نفسه وتلاوة أبيات من الشعر، لأنه تأتي لحظات في حياة المرء يكون خلالها غير قادر على التكيف إلا بوساطة أبيات معينة من الشعر، فبعضها، وعلى نحو غامض يحتوي الجوهر في أعماقه، الاستيعاب بحد ذاته، النهج بحد ذاته، القناعة بحد ذاتها، حتى على الرغم من أن الشاعر نفسه لربما كان قد تاه وأصبح لقمة سائغة في أيدي

المتصيدين طوال حياته البائسة . لكن الأبيات تتقوض إلى قطع على شفتيه اللتين عضهما الصقيع ، تتقوض إلى قطع في ذهنه أيضًا ، يعجز عن إبقاء أفكاره سوية ، يفكر في أندريا وهي تتحول إلى أبيات من الفردوس المفقود وبدورها تتحول إلى فم كولبين يمضغ الطعام عند طاولة الفطور ، والربان يتحول إلى غراب أسحم يتهادى حول المزرعة حيث عاش الفتى على نحو أكثر أو أقل مثل غريب بعد أن غرق والده ، والأسحم يتحول إلى شَعر غيرترود الذي بدوره يتحول إلى استحلام يتعلق براغينهيلد التي تتحول إلى فئران ميتة .

وينز يختفي من جديد .

ابتلعته العاصفة والفتى وحده . من جديد ينسى نفسه ، يشرد في قصيدة وفي هذه الأثناء يختفي ينز .

يقف حيث هو ، يكف عن المجاهدة إلى الأمام ويتسمر بلا حراك ، يرغم نفسه على الوقوف ، مع أن سحر التهاوي بكل بساطة مغر جدًا ؛ يقف بلا حراك ويغمض عينيه . أغمض الآن عيني ، وإذا كُتب لي أن أحيا ، يفكر بتفاؤل ، سيكون ينز واقفًا أمامي عندما أفتحهما . يقف مباعدًا بين ساقيه حتى لا تدفعه الريح ، وثمة شعور رائع جدًا في أن يبقي عينيه مطبقتين ، كما لو أنه نجح في الوصول إلى ملجأ ليس في الحسبان . ما زالت الريح بالتأكيد تهب قارسة عليه ، بيد أنها ما عادت تثير قلقه . أصبحت بعيدة ، وما عادت تهدده . سيكون من السهل كثيرًا ، سهل على نحو خطر أن ينام هكذا ؛ اِفتح عينيك ، يأمر نفسه ، وهذا ما يفعله . يفتح عينيه ليرى امرأة تقف أمامه ، بينهما مسافة ذراع فقط . طويلة نوعًا ما ، منتصبة القامة ، رأسها عارٍ وشعرها الأسود الطويل يتطاير مع الريح ، ومن وجهها الصارم تخترق عيناها الميتتان جمجمته وتحفران طريقهما إلى مركز دماغه . ثمّ تستدير وتنصرف ، عكس الريح ، وهو يتبعها . يتبعها بلا تفكير . يعجز عن

المقاومة ، لا يجرؤ على فعل شيء آخر . يتبع امرأة ميتة ذات عينين باردتين كالجليد ، لا يزحزح عينيه الحيتين عنها بينما هي تتحرك بلا جهد خلال العاصفة . لا يتجاسر على أن يطبق جفنيه خشية أن تختفي ، أو خشية ما هو أسوأ ، أن تستدير وتنظر إليه كما فعلت ، تحفر متغلغلة في جمجمته بعينيها الباردتين كالجليد ، فهو ما زال يرتعد بردًا من نظرتها الأولى . لكن ، مستحيل أن يبقي عينيه مفتوحتين من غير أن يطرف له جفن ، مستحيل أن يحدق في هذه العاصفة من غير أن يشيح بوجهه من حين لآخر ، وبالتالي يفعل ذلك ، مرة . يطرف ، يلتفت بسرعة بعيدًا عنها ، ثم يعود وينظر وعندئذ تمتزج المرأة بينز الذي يندفع قدمًا أمامه .

مضى وقت طويل منذ أن تكوما تحت سقف يحميهما ، أنهيا الأكل وتسنى لهما أن يتنفسا كما ينبغي ، غير متأثرين بالعاصفة ؛ كم مضى على ذلك بالساعات ، الفتى لا يعرف ، لكن في جسمه ، في كل خلية من خلاياه يشعر أن ذلك حدث منذ وقت مغرق في البعد . ولذلك يسري فيه ارتياح عظيم وامتنان بالغ عندما يتوقف ينز أخيرًا في بقعة محمية إلى درجة أنه تخيّل نفسه يعانق ساعي البريد ، وهذا طبعًا ما لا يُقدم على فعله ؛ المرء لا يعانق رجلاً مثل ينز ، ليس فقط أنه لا يفعل ، بل ولا يفعل ذلك أبدًا . إلا أن المساحة ضيقة جدًا بحيث يضطران إلى الوقوف متلاصقين وجهًا لوجه ، مثل صديقين حميمين ، يضطران إلى فعل ذلك إذا أرادا أن يتجنبا هبوب الثلج على وجهيهما . إذا كان الشيطان قد ابتدع أي شيء في هذا العالم ، إلى جانب المال ، فهو الثلج المدوّم في الجبال . أنتَ حي ، يهتف ينز ، أو بالأحرى ، يغمغم بكلام مماثل ، فلحيته المتجمدة تمامًا تجعله يجد صعوبة في الكلام . أفترض ، يجيب الفتى ، بالطريقة المبهمة نفسها ، بسبب عضلات وجهه المتخدرة من البرد والشعور العاطفي المربك ، يجيب قبل أن يسأل ،

أتعتقد أنها تقودنا إلى الجحيم ونهاية العالم؟ والمغزى من سؤاله رغبته في أن يهدئ من روع نفسه قليلاً ، وليمنعها من معاناة الشعور بالخزي لرغبته في معانقة ينز . ماذا؟ مَن؟ يسأل ينز بعد عراكه مع الجليد على لحيته فترة من الوقت .

الفتى : المرأة التي كنا نتتبع .

ينز : عن أي شيء تتحدث بالضبط؟

يراقب الفتى ساعي البريد يكشط رقاقات الثلج من لحيته ؛ ووجهه خال من أي تعبير على الإطلاق إلى درجة أنه يثير اشمئزازه . عيناه الرماديتان صارمتان وباردتان كالثلج . أنا أفضّل أن أقطع ذراعي على أن أعانق هذا اللقيط ، يفكر الفتى وهو يشعر فجأة بالنفور يغلي فيه بعنف ، نفور مطلق العنان كليًا ، عنيف ولكن أيضًا منعش ، ومحرّر من كل قيد بكل ما في الكلمة من معنى . أيها اللعين المزعج ، يهتف . بيد أن ينز يتابع الكشط بالسكين الحادة التي سبق أن أخرجها .

الفتى : أسمعت ما قلت؟!

ينز وهو يكشط : ماذا؟

يحاول الفتى رفع صوته مع أن ذلك صعب وهو متخدر ، إضافة إلى أن وقع كل شيء يأتي ضعيفًا في هذه الريح : أنت لعين مزعج ، قلت! قضيب ملعون ، قضيب نازف .

نعم ، نعم ، كل ما يجيب به ساعي البريد ، كما لو أن الفتى كان يؤكد شيئًا في غاية الوضوح بحيث أن التفاعل معه لا يستحق العناء . لعدة لحظات استعرّ الاشمئزاز والبغض في الفتى ، اختلجت ذراعاه كما لو أنهما تستعدان للهجوم ، ثم تلاشى كل شيء ، أن يكره المرء في مثل هذا الجو ، في هذا المكان ، هو أمر عديم الفائدة . عنيتُ المرأة ، يقول بعد ذلك ، بهدوء تقريبًا . أي امرأة؟ يسأله ساعي البريد ، من غير أن ينحي السكين جانبًا .

الفتى : أوه ، تلك التي نتتبع بطبيعة الحال ، هل رأيت أحدًا آخر ، لا يوجد في الواقع الكثير من الأشخاص هنا .

امرأة ، يقول ينز ، وهو يترك السكين تهبط ، امرأة يكرر ، كأنما هو يحاول أن يتذكر شيئًا .

الفتى : هل تنوي أن تصرّ بأنك لم تلمحها ، ما عنيته هو ذلك الطيف والذي هو في الحقيقة امرأة؟

يعود ينز إلى كشط الجليد ثانية : الطيف ، نعم ، من الصعب في هذه الظروف أن يميز المرء بين ما يراه وما يظن أنه يراه .

الفتى : المرء يرى ما يراه .

ينز : أنت لست على دراية بالكثير .

الفتى : لا ، لكنني أملك عينين ثاقبتين ، وامرأة رثة الثياب وعارية الرأس هنا في حفرة الجحيم هذه لا يمكن تجاهلها بسهولة .

ينز : يرى الرجال المتعبون والجياع والمقرورون والمكدودون أشياء كثيرة . وقد سبق أن تهت مع آخرين واضطررت إلى السيطرة عليهم بالقوة لئلا يندفعوا في قلب العاصفة ليلحقوا بشخص يظنون أنهم يرونه .

الفتى : نعم الأموات ، أعني الأشباح ، يحاولون أحيانًا استدراج الأحياء . لقد قرأت قصصًا وحكايات عن هذا .

ينز : الأشباح الوحيدة التي رأيتها هي الناس الأحياء .

الفتى : أنت لم ترها إذًا؟

ينز : أنا لست واثقًا دائمًا مما أراه .

الفتى : لكنّنا لم نكف عن اللحاق بها منذ فترة طويلة .

ينز : لا أعرف شيئًا عن ذلك . رأيت طيفًا من قبل ، هذا صحيح ، رأيته مرتين ، ثلاث مرات ، وربما كان صخرة . أعتبر هذا محتملاً جدًا . أترى شيئًا الآن؟

الفتى وهو ينظر مستشفًا العاصفة : لا ، ليس الآن .

ينز : ها أنت ذا إذًا .

الفتى : لكن لا أكف عن رؤيتها ما بين حين وآخر! بشكل غير واضح طبعًا ؛ مستحيل أن ترى شيئًا بوضوح في هذه العاصفة .

ينز : ماذا قلت لك؟

الفتى : بيد أنني رأيتها بوضوح كبير عندما تهت عنك .

ينز : أتهتَ عني من جديد؟

الفتى : أغمضت عيني ، فتحتهما ورأيتها تقف أمامي مباشرة ، ليس بالقرب الذي تقفه أنت الآن ، وفي الوقت نفسه أقرب بكثير من مسافة ذراع .

ينز : أتهتَ عني؟

الفتى : ماذا ، نعم ، لبرهة . ثم فجأة وجدتها تقف أمامي ، تشير لي ، أو أظنها فعلت ، ثم انطلقت . تبعتها وهكذا عثرت عليك . ألم ترها؟

ينز : أنت لا تستطيع إئتمان أيّ شيء في هذا الجو . هو يشوشك .

الفتى : رأيتها ؛ ذاك لم يكن مجرد هراء .

ينز : إذا كان هذا رأيك .

الفتى : وهي لا بدّ من أنها ميتة .

ينز : إذا كان هذا رأيك .

الفتى : ماذا تفعل امرأة ميتة هنا في أعالي الجبال ، وماذا تريد منا؟ أعني ، منذ متى يرغب الموتى في مساعدة الأحياء ، في مساعدتهم ليبقوا أحياء ، أعني؟ رأيتها ، بمنتهى الوضوح كما أراك الآن . ما سبق لي في يوم أن رأيت عينين مغرقتين في الصقيع أكثر من عينيها . لقد نظرت في عدة عيون ميتة ، وعيناها أبرد بكثير من أي منها . ربما هي الموت بنفسه!

ينز : رباه! كم يمكن أن تتكلّم .

يتكئان على ملجأهما المكون من صخرة يغطيها الجليد . يحاولان تلقائيًا أن يتباعدا ، لكن في هذه الحالة يلطم الثلج وجهيهما مثل أيدٍ باردة تتلمس طريقها . إذا أرادا الوقوف هنا ، تحت ستار الصخرة اللعينة ، يحتاجان إلى الالتصاق ببعضهما أكثر مما يمكنهما أن يطيقا . يشعر كل منهما بأنفاس الآخر ؛ يستشف الفتى كل شريان من شرايين ساعي البريد فوق لحيته ، شرايين صغيرة حمراء ، دقيقة جدًا ، مثل جداول حمراء تحت غشاء جليدي . من المؤلم أن يقف رجل على مسافة جدّ قريبة من رجل آخر . مؤلم جدًا ، مؤلم جسديًا . كما لو أنّ الرجلين في هذه الحالة يحتاجان إلى التضحية بشيء ما ليفعلا ذلك ، وهذا يلسع ويغضب . رجلان ربطهما مصيرهما الخبيث معًا وألقى بهما في غياهب رحلة حمقاء . تجتازان مرجان وعران ، كانت هيلغا قد قالت ، وإلا رحلات بحرية ، وتلك تكون مسؤوليتك . من ناحية أخرى ثق بينز وأنتما على اليابسة . صحيح . يأتمن هذا الرجل الذي حاول أن يخلّفه وراءه ، والآن يحملق فيه مثل ثور هائج . الفتى يعرف أمثال هؤلاء الرجال معرفة جيدة ؛ هم قساة ، متعنتون ، قساة جدًا إلى درجة أنهم يصدون الليونة كلّها ، اللهو كلّه ، الطيش كلّه ، قساة جدًا ومتعنتون إلى درجة أنهم يحاولون بالغريزة أن يقهروا بيئتهم . قساة جدًا إلى درجة أنهم يفسدون الحياة . قساة جدًا إلى درجة أنهم يقتلون .

الفتى : أنا لا أكترث قيد أنملة برجولتك . كانت غيرترود محقة .

ينز : أتظن أننا في آخر الدنيا؟

الفتى : كائنًا من كان في صحبتك يصل إلى آخر الدنيا .

ينز : ماذا تعني؟

الفتى : أين نحن بحق الجحيم؟

ينز : اِستمع .

الفتى : أستمع إلى ماذا ، الريح ولهاثك؟

ينز : استمع . وأخبرني ماذا تسمع؟

الفتى : العاصفة الملعونة ، وأي شيء غيرها؟!

لا ، يقول ينز ، استمع من هذا الاتجاه ، ويشير إلى ما يتراءى للفتى أنه الشمال . الجحيم ونهاية العالم ، يغمغم بينه وبين نفسه ، يدفع قبعته بعيدًا عن أذنه ويستمع ، يميل رأسه أكثر ويستمع . في بادئ الأمر لا يسمع إلا الأنين ، الريح المسوسة ، صفير الثلج ، لكن حالما بدأ ينزل قبعته ليغطي أذنه الباردة ، يميز صوتًا بعيدًا ، خلف كل تلك الأصوات . في البداية يسمع بشكل مبهم ، مثل نوع من الشك ، بيد أن الصوت يزداد وضوحًا كلما أمعن في التقاطه : هدير ثقيل واطئ . يسارع إلى إنزال قبعته على أذنه .

ينز : إنه البحر القطبي .

الفتى : البحر القطبي؟

ينز : لكن في وسعك أن تدعوه آخر الدنيا والموت . الكلمات ليس لها تأثير على البحر .

الفتى : نحن خارج المسار ؛ كم انحرفنا بعيدًا عن مسارنا اللعين!

يميل كل منهما برأسه بعيدًا عن الآخر . في مكان ما هناك يرجع البحر صداه عند وجوه الهاوية الممعنة في الانحدار . ألا يجب أن نستدير؟ يلغو الفتى ، وعقدة خوف متنامية تنتفض في أحشائه . طبعًا ، إذا كنت سئمًا جدًّا من الحياة ، يقول ينز .

الفتى : اللعنة .

ينز : أأنت خائف؟

الفتى : فليبتلع الجحيم كل شي!

ينز : إنه البحر فقط لا غير . وقد سبق لك أن كنت في البحر .

الفتى وهو يهز قبضته في وجه ساعي البريد : لا أكترث مطلقًا برجولتك! من لا يهاب هذا الصوت هو قطعًا غبي . من لا يخشى السقوط

من حافة جرف في مثل هذا الجو هو غبي مغفل. رجل بمخيلة أقل من مخيلة دودة الأرض. إنني أتغوط على رجولتك، أتغوط عليها. الآن أعرف ماذا عنت زوجة القسّ عندما قالت إن الرجال كانوا مستهترين، عندما قالت إن النساء والأطفال هم من كان لزامًا عليهم أن يتحملوا العواقب باستمرار. عنت أنّ الرجولة لم تكن سخيفة فقط بل أيضًا خطرة، لأنها لا تقيم وزنًا إلا لنفسها، وأنت لا يهمك إلا أن يبدو ظاهرك في حالة جيدة؛ الظهور بمظهر القوي والشجاع والمقدام. تستعرض نفسك. أن يبدو مظهرك جيدًا في النهاية يهمك أكثر من الحياة بحدّ ذاتها!

يعتدل ينز في وقفته، وينظر إلى الفتى من عليائه: الرجولة تعني الجسارة. تعني عدم الاستسلام أبدًا. وعدم الانحناء مطلقًا!

الفتى: أحيانًا الرجال أمثالك ليسوا سوى جبناء، هم لا يجرؤون على التوقف. غرق أبي في جو رهيب؛ أبحروا على الرغم من التوقعات المنذرة بالسوء، بينما بقي معظم الآخرين في بيوتهم. وبيتور كان يعرف رئيس العمال. رجل عظيم، كان يقول، ما خاف من شيء مطلقًا. ليتك رأيت عيني بيتور عندما تحدث عن رئيس العمال ذاك، كان ينبغي أن ترى كيف لمعتا عندما وصف شجاعة الرجل الذي تجاسر على مجابهة العاصفة، تجاسر على عدم الخضوع للخطر. مات الرجال الستة كلهم. وهل تعرف كم عدد الأطفال الذين فقدوا آباءهم؟ كم عدد العائلات التي تشتت شملها بسبب رجولة رئيس العمال؟ كم عدد الذين اضطروا إلى النشوء في مزارع متفرقة هنا وهناك، ولم يحظوا قط ثانية بأي أحد يكترث لأمرهم لأن من يكترثوا لأمرهم ماتوا كلهم؟ مسقمٌ مجرد التفكير في أنك تُركت وحيدًا في هذا العالم الرهيب لأن رئيس العمال كان يتمتع بالرجولة اللعينة. رجولتك السفيهة هذه تخنق كل ما هو جميل ولطيف وخيّر، تقتل الحياة، وأنا أتغوط على رجولتك اللعينة هذه، أتغوط عليها بكتلة كاملة من برازي. والآن أنا

عائد أدراجي ؛ لن أمضي قدمًا أكثر من هذا!

يصيح الفتى بهذه الكلمات الأخيرة . يتطاير البصاق من فمه نحو ينز ، ويحط على أنفه ويتجمد فورًا . لا يستطيع ينز أن يتزحزح ، يكتفي فقط بامتصاص تلك الكلمات كلها ؛ وهذا البصاق ، قبل أن يقول بنبرة هادئة : أنت بالتأكيد لن تعود أدراجك . أنا بالتأكيد سأفعل ، يقول الفتى بصوت عالٍ ، وهو يستعر غضبًا إلى درجة أنه يستميت ليضرب ساعي البريد . هناك ، يردف ، مشيرًا نحو العاصفة ، في اتجاه الهدير الواطئ ، لا شيء سوى الموت ، وأنا أخطط لأحيا فترة أطول قليلاً ، لدي بعض الأعمال غير المكتملة ، وداعًا ، عليك أن تخلي سبيلي ، وعسى أن يأخذك الشيطان ويلتهمك!

أمسك ينز الفتى من ذراعه : سيأخذني عاجلاً أو آجلاً ، ولكنك ستلقى حتفك إذا عدت أدراجك .

الفتى : الحياة أو الموت ، ما يهمك في هذا؟

ينز : أنت لا تفعل شيئًا سوى طرح الأسئلة . أأنت دائمًا هكذا ، متسائل أبدي ؛ أتظن أن هناك أجوبة ما؟

الفتى : أفلتني وإلا أضربك .

لا يمكنك ، يقول ينز ، ونحن ذاهبان شمالاً ، نحو حدود آخر الدنيا ، إذا شئت أن تدعوها كذلك . اِعلم فقط أنه ليس في نيتي أن أموت . هذا ، على الرغم من أن ذلك ليس من شأنك . أبي شيخ طاعن في السن ولا يمكن أن يستمرّ بدوني . ولا هالا كذلك . يحتاجان لي وإذا لم أعد سيصبحان عالة على الأبرشية . وبالتالي ينتهي بهما الأمر مع الغرباء ، وكل منهما في مكان مختلف . أنت لا تعرف كيف هي هالا . لا تملك أدنى فكرة عن حالها . كل شيء يصبح أفضل في حضورها ، مع أنها ليست إلا بائسة مسكينة تتبول وتتغوط على نفسها إذا لم يكن هناك من يعتني بها . في

بعض الأماكن يُقيّد أمثالها كالكلاب في الخارج أمام البيوت الريفية أو يُحبسون في صناديق مقفلة ويرمى لهم الطعام رميًا ، يزودون ببعض فضلات الطعام ليس إلا . عندئذ ستتسخ ، ولا أحد سيمشط لها شعرها . أبي يسرح لها شعرها كل صباح وهي تغمض عينيها ، أنت لم تر هذا قط . متى يعود ينز؟ ستنبري تسأل في الشهور الأولى القليلة ، عدة مرات في اليوم ، ستفعل ذلك كثيرًا إلى درجة أن الناس سيسأمون منها ويسيئون لها . في حين أن المرء لا يستطيع أن يتخذ منها موقفًا عدائيًا حتى قبل أن تستسلم للبكاء . ثم ستتوقف عن السؤال عني ، لمجرد أنها نسيتني ونسيت أبانا ، ونسيت كل شيء ، وستعتقد أن حياتها يفترض أن تكون كذلك ، وأنها لطالما كانت كذلك ، مقيدة في الخارج أمام البيت ، محبوسة في صندوق صغير ، قذرة ومبرحة ضربًا . في وسعك أن تفعل ما تريد وما تشعر أنه الصواب . أنا سأتجه مع الريح نحو الشمال . إذا أردت أن تعيش اتبعني ؛ وأنا أنصحك بشدة أن تفعل . الأمر الوحيد الذي أعرف القيام به بشكل صحيح هو النجاة من العواصف بعيدًا عن البشر . فأي درب تختار؟

١١

الحياة جدّ متنوعة ، هي عبثية ومتناقضة أكثر من معظم الكلمات التي تصفها ؛ من المعقول أكثر بكثير أن يصفها المرء بترديد بعض النغمات العشوائية الظريفة بدلاً من محاولة وصفها بالكلمات .

أولاً ، يبوح ينز بكل شيء ، مفصحًا عما هو عزيز على قلبه ، مفصحًا عن مخاوفه ، وعما يحفزه ، فيرشح غضب الفتى كله . ثم يقول ينز : لعلّنا ندنو من خليج ما ، حيث يمكن أن نعثر على كوخ . فيسأل الفتى بنبرة شك : تعني بيت يؤوينا؟ وهكذا يغادران الصخرة التي يحتميان بها ، يتوجهان نحو العاصفة ، نحو الريح الخبيثة ، والثلج المدوّم ، ويُجرف الفتى مترين أو ثلاثة أمتار قبل أن يستعيد توازنه ، ويكاد يفقد أثر ينز ثانية .

يتجهان شمالاً . يتعثران في طريقهما ولا يميزان شيئًا ، خصوصًا المرأة التي ربما ليست امرأة إنما مجرد هلوسة استدعاها الإعياء والجوع والعطش . ينز محقّ ؛ عقل الإنسان غامض ، أكثر غموضًا من أعماق البحر ، ومن المستحيل أن يخمن المرء ما هو قادر على اختراعه . طبعًا لم ير الفتى أي امرأة ميتة! الأموات لا يتسكعون في أنحاء الجبال ، لا في أشعة شمس الصيف ولا في الشتاء القاسي ، مع أنهم في الربيع الآن طبعًا ، ما عدا أننا هنا في آيسلندا ، على وجه التحديد ، ليس لدينا أبدًا ربيع ؛ نحن لا نعرف تلك المسرة ، لدينا شتاء ثم يأتي الصيف المتمنع ؛ وليس هناك شيء بينهما . الموتى لا يذهبون إلى أيّ مكان ، هم فقط يستلقون في الأرض بلا حراك ، يتعفّن لحمهم ، وعظامهم تتحول إلى تراب وغبار ، وعلى مرّ الزمن تصبح

سمادًا طبيعيًا للنباتات التي تروي عطشها من أشعة الشمس والمطر وتشحن الوجود بالحياة . وبالتالي لكل شيء سببه ، أو نحاول أحيانًا أن نقنع أنفسنا بهذا . تبدأ الأرض في الانخفاض ، تنحدر . يصبح هدير البحر القطبي البعيد صراخًا قريبًا من الرجلين . اللعنة ، يصيح الفتى . إلا أن ينز يواصل التقدم نحو الصوت الذي يزداد تضخمًا . يتحتم على الأرواح المُدانة أن تصدر مثل هذا الصوت ، يفكر الفتى ، ومن يدري ، ربما يختفي معظم الأموات في أعماق البحر ويزعقون هناك على مدى ألف سنة طلبًا للعزاء أو السلوى . يشعران برطوبة البحر الصقيعي ، وتعتري ينز قشعريرة كما لو أن البرد والخوف قد تغلغلا للحظة في عظامه . يتوقّف على حين غرة بحيث يكاد الفتى يصطدم به ، ولفترة من الوقت يقفان عند المنحدر ، وقد استولى عليهما الارتياب مما هو تالٍ ، فزعين من الهدير ، ثم يتابع ينز التقدم ، وبعد وقت قصير يلمحان معالم بيت .

مزرعة! يصيح الفتى ، وهو يمسك ساعي البريد المتجمد بردًا ؛ مزرعة ، اللعنة ، ينعق ، وينفجر في الضحك وهو يبسط يديه . مزرعة مدفونة تحت الثلج طبعًا ، إنما ليست مثل المزرعة التي يخشى فيها مزارع الكلمات ، وامرأة تطلب الكتب ، وطفلة تكحّ بشدة بالغة تجعل حياتها معلقة بخيط رفيع ؛ ما حالها الآن تلك الصغيرة ، أتراهم دججوا الورقة بالرسوم والأشعار والكلمات ، وأخرجوها عدة مرات في اليوم ليملوا عيونهم منها ؛ أسيحتفظ أحدهم بالورقة ، ويتفحصها على مدى فترة زمنية طويلة ، على مدى عقود ، عندما يكون الجميع قد ماتوا تقريبًا ، تتفحصها عينان بلغتا من العمر عتيًا ، تبكيان عليها ، تضحكان ، تفتقدان وتتذكران؟

هذه المزرعة ، المنبثقة من الثلج ، نصف محجوبة ومهلهلة من العوامل الجوية ، مزرعة كهذه نادرًا ما تدفن كليًا ؛ فالريح تهب هنا بقوة رهيبة بحيث أن أعظم أكوام ثلج الشتاء لا تستطيع أن تغمر البيت بالكامل . لكن أين

الباب المنحوس؟! يصيح الفتى بعد أن فتشا بلا فائدة عن شيء يشبه الباب، وهذا جعل من الصعب عليهما دخول المزرعة. لا أدري! يصيح ينز مجيبًا، ثم يسمعا نباحًا ملحاحًا لكلب، يتبعه صوت بشري عالي النبرة يصيح مرحبًا، من القادم هناك؟ يزعق ينز بكلام ما في المقابل وهما يكافحان ليتقدما نحو الصوت والنباح؛ والصوت الذي في الداخل ينادي مرة أخرى، بنبرة أعلى أو أقرب نوعًا ما، وأخف حدة، أجئتم من عالم الأحياء أو الأموات؟ اسكت يا نيلمان! يتوقف النباح ويصيح ينز وهو نصف عالق في كتلة ثلج، وليونة الثلج لا تطاق ومن الصعب بمكان التقدم أكثر من البيت؛ اللعنة، إذا لم نجد الباب المنحوس نحن في عداد الأموات!

ثمة رجل ينتظرهما في المدخل، ملتحٍ، وشعره بدأ يصبح خفيفًا. يتراجع نحو الممر عندما يقبلان نحوه، عندما يتهاويان في الممر تقريبًا؛ اِصمت، ينهر الكلب بكلمة واحدة، الكلب الذي علا صوته بالنباح ثانية؛ فيصمت ثم يزمجر بصوت منخفض، حيوان ضخم بفراء داكن. من أنتما؟ يسأل الرجل، متفحصًا القادمين اللذين يحاولان الوقوف مستقيمين في الممر المظلم الضيق، يعتريهما الدوار بعد نجاحهما في الإفلات من العاصفة على نحو غير متوقع، مجللين بالثلج الأبيض بحيث أنهما بالكاد يبدوان من البشر. ينفض ينز جسمه وتتلف الكلمات منه بينما يلتقط أنفاسه، ينز... ساعي البريد، أنا... ساعي البريد. يتراجع الفتى مستندًا على الحائط الطيني، منهكًا جدًا بحيث أنه يرى النجوم. يمكن أن أتوقّع أي شيء ما عدا زيارة من ساعي البريد، يقول الرجل، أنا بيارني، يضيف، مزارع هنا في نيس، ثم يمسك خطم الكلب برقة ولكن بحزم، فيتوقف عن الزمجرة ويتراجع في الممر.

يقودهما بيارني إلى الغرفة العائلية، حيث العائلة تنتظر هناك، وعيون فضولية عديدة تحدق فيهما، ويتوسط الغرفة موقد صغير. تحتاجان إلى نزع

هذه الثياب ، يقول بيارني ، فيبدأ الفتى في التخلص من ثيابه المتجمدة ، بوهن . يتردد ينز ، ربما آملاً بالمساعدة من أحد . خلع ثياب المرء هو من عمل النساء ، لأن الحال كانت دائمًا هكذا ؛ يرجع الرجال إلى البيت مهدودين يقطرون ماء ، مقرورين من البحر أو الحقول ، يتهاوون على أسرّتهم والنساء ينزعن عنهم ثيابهم ويعتنين بهم بينما يرتاحون ، يجففن الثياب ويتركن الرجال ليناموا . يذهبن إلى أسِرّتهن في وقت متأخر وينهضن قبل أي شخص آخر ، يجهزن الطعام ويخدمن بينما يواصل الرجال النوم ، بينما يقرأون ، يتعلمون الكتابة ، يثقفون أنفسهم ويعززون سيطرتهم ، القوة تولّد الظلم دائمًا ، وعلى الرغم من أن الحياة قد تكون جميلة ، البشر قاصرون عن الكمال . ستمرض إذا لم تخلع ثيابك ، يقول بيارني ، صوته عميق وليس واهيًا كما بدا في الخارج حيث العاصفة تعوي على البيت . يقفان هناك وهما يرتعشان في ثيابهما الصوفية البسيطة إلى جانب الموقد ، ولأول مرة يتسنى لهما أن يلقيا نظرة جيدة حولهما . الكلب يراقبهما من زاوية معتمة وقد تلاشت شراسته ، يبصبص ذيله قليلاً عندما ينظر الفتى نحوه . أربعة أطفال يحدقون في الزائرين ؛ صبيان وبنتان ، أصغرهم لم يكمل بعد السنتين ، والأكبر هي بنت في الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، وهذه البنت تخرج من الغرفة وتيمم المطبخ بسرعة . رجل ضخم كالثور يجلس والصبي الأصغر على ركبتيه ، شفتاه سميكتان ، وجهه عريض وعيناه صغيرتان . يضع الطفل على الأرض وينهض فورًا ، ويكاد رأسه يبلغ السقف ، يتقدم نحو الزائرين ، يخطو خطوتين فقط ويصبح قبالتهما ، يمد يده الكبيرة ، أنا هيالتي يقول ، عامل المزرعة هنا . يتصافح هو وينز ، رجلان طويلان وفي منتهى الضخامة إلى درجة أن الغرفة تبدو أصغر من أن تتسع لهما . والموقد لا يشيع الكثير من الحرارة ، إنما القليل منها ، وفي بعض الأحيان يكون هذا القليل رائعًا بلا شكّ ، لأنه يحدث الفرق بين ما يمكن تحمله وما لا يمكن تحمله . يفرك

الزائران أيديهما ، يبقيان قرب مصدر الدفء ، يحاولان طرد قشعريرة البرد الأعمق من جسديهما قبل أن يُخرجا ثيابًا إضافية من الحقائب ، ثياب باردة ورطبة إلا أنها أفضل من لا شيء . يدب الطفل الأصغر على الأرضية الطينية ، مبقيًا نفسه بعيدًا عن الغريبين ، يزحف بسرعة نحو الكلب ويحتضنه . يقف الكلب ليعدّل وضعيته ، يلعق وجه الطفل ثم يلف نفسه حوله . لن تبلثا أن تحصلا على لحم طيور بحرية وقهوة ، يقول بيارني ، مضطرًا إلى رفع صوته قليلاً ليتسنى لهما سماعه في خضم عويل الريح . وفي الحال تتحرك كومة خرق على أحد الأسِرّة وتكشف عن عجوز متكئة على مرفقها ، رأسها ضامر من الهرم ، والشعر الأبيض الذي يغطي وجهها بكثافة جعله يبدو كأنه متعفن . قهوة ، تقول بصوت ثاقب . نعم ، ستحصلين على القهوة يا أمي ، يصيح بيارني قبل أن تعود إلى الاستلقاء ، متحولة من جديد إلى كومة خرق شعثاء .

يُقدم لهما لحم طيور البحر المملح الذي يسارعان إلى التهامه ، ويبتلعان قهوتهما الخفيفة معه ، يحاولان بقدر ما يستطيعان أن يضبطا نفسيهما ، أن يحافظا على بعض مظاهر آداب السلوك ، وفي هذه الأثناء تقوم البنت الكبرى بجولة تلو جولة إلى الخارج طلبًا للثلج لتحوله إلى ماء . يجلسان جنبًا إلى جنب نصف منحنيين على طعامهما ويرتعشان من البرد ، وفي الوقت نفسه يشعران بالارتياح لأن زئير الريح يسد ثغرة الصمت ، لا يزيح أفراد العائلة عيونهم عنهما ، يتابعونهما مع كل قضمة ، وكل رشفة ، ما عدا العجوز التي تستلقي ثانية بعد أن ساعد بيارني ابنته لتصب بضع جرعات من القهوة في فمها ، بضع جرعات ما سال منها على ذقنها يماثل ما دخل جوفها ، وقبل أن تعود وتستلقي ، لهجت على نحو ما بشكر النعمة ثم غرقت في غمار الصمت وضباب الشيخوخة . لم يأتنا زوار منذ خمسة عشر أسبوعًا ، يقول بيارني أخيرًا بعد أن قطعا شوطًا كبيرًا في تناول لحم الطير المالح جدًا ألي

درجة أن زنخه لا يكاد يظهر له مذاق، ستة عشر، ينخر هيالتي. نعم، يقول بيارني، خمسة عشر أو ستة عشر، ما أهمية أسبوع واحد؟ لكن ساعي البريد ما سبق أن جاءنا، يضيف بعد صمت طويل. ولأكون صادقًا أنا لا أستوعب كيف نجحتما في الوصول إلى هنا، وبدرجة أقل، لماذا أتيتما. ركلهما الشيطان نحونا، يقول هيالتي ثم يضحك فاتحًا فمه على وسعه، وكاشفًا عن لثته المحسورة وأسنانه البنية. تزقزق العجوز، ينظر بيارني بالتناوب إلى أمه وهيالتي وعلى وجهه تعبير مبهم. علقنا في العاصفة، يقول ينز، أضاع أحدنا الآخر. أنا تهت، يوضح الفتى، وخرجت بعيدًا عن مسارنا، عثر علي ينز في الوقت المناسب، في الوقت المناسب تمامًا. ويتابع ينز: لم تتوافر لنا خيارات كثيرة في ظل تلك الظروف. السفر مسافات طويلة في العاصفة سفر منهك والمرء غير متأكد من الطريق. نعم، يوافق الفتى على كلام ينز، وبعد ذلك... إلا أنه يغلق فمه عندما يلمح تعبير وجه ساعي البريد.

بيارني: نعم؟

يحدق الأطفال جميعًا وعامل المزرعة فيهما، باستثناء الطفل الأصغر الذي ينام بين أحضان الكلب. يتبادل الفتى وينز نظرة قصيرة، ثم يتلفتان كما لو أنهما ولأول مرة يلاحظان معًا وفي اللحظة نفسها غياب الأم الذي لا يخفى على العيان.

بيارني: ثم ماذا؟

يعدّل ينز وضعية جلوسه، يصبح فجأة أضخم مرتين من الفتى. هذا الفتى هنا يظن أن امرأة جاءتنا في أعماق الجبال وقادتنا إلى هنا.

الفتى، بعناد: أنا لا أظن هذا، بل هي أنقذتني. الأمر ليس أكثر تعقيدًا من ذلك. وقادتنا إليكم.

يتنحنح بيارني؛ امرأة، يقول، هذا غريب، كيف بدا شكلها؟ حسنًا،

يجيب الفتى ؛ يمكن أن أقول طويلة ، نعم ، طويلة حقًا بعينين داكنتين لامعتين ، عينين داكنتين وشعر أسود طويل وهفهاف ، نعم . . . ثم يحكّ جلدة رأسه من خلال شعره المزيت والوسخ ، يلهيه الإمعان في تذكر ملامح المرأة عن استشفاف الجو الغريب الذي خيم على غرفة الجلوس ، هذا إن لم تكن غرابته تفوق طاقة الاحتمال . تهبط كتفا ينز كما لو أن حجمه آخذ بالتضاؤل .

هيالتي : اللعنة على الجحيم .

يرتمي الصبي الأكبر سنًا على الفراش بتثاقل ، الصبي ذو الشعر الأحمر ، بعمر سبع سنوات أو ثمان ، كأنه متعب ، ويستلقي بلا حراك عدة لحظات قبل أن يبدأ جسمه الهزيل والضعيف في الارتعاش قليلاً . يعاين بيارني ابنه بنظرة طويلة ، يمد يديه الاثنتين نحوه ، ثم يتسمر ، يرجع يديه ويضعهما في حضنه الفارغ .

تهتزّ المزرعة تحت وطأة هبة ريح عاتية ، جاعلة الكلام مستحيلاً . ثمّ تنحسر ، كل شيء ينحسر في النهاية ، السعادة والشقاء ، الألم والمسرة ، ولا يلبث أن ينبعث صوت نحيب مكتوم ، صوت جدّ خافت بحيث قد لا يسمعه المرء . تنهض البنت الأكبر سنًا خلسة ، تذهب إلى أخيها وتضع ذراعها على جسمه المرتجف . لا تقول شيئًا ، وبدا الأمر كأنها حطت ذراعها عليه بمحض الصدفة ؛ فنحن لا بدّ من أن نريح أطرافنا المتعبة في مكان ما . بل حتى توجه نظرها نحو مكان آخر ، نحو أخيها الأصغر النائم بارتياح في حضن الكلب الدافئ ، إلا أن يدها تبقى مستريحة على الجسم المرتعش وتقول ، لست وحدك يا أخي ، أنا هنا معك ، وأنا لن أتركك . في مناطق أخرى من العالم يمكن أن تضيف الذراع أيضًا ، أحبك ، بيد أن كلمات كهذه لا تقال في آخر الدنيا ، وحتى الأذرع تعجز عن نطق هذه الكلمات الثمينة . بضعة مصابيح نفط تشتعل ، باعثة ضوءًا مناسبًا ولكن مخلفة أيضًا ظلالاً

هنا وهناك ، كأنما العالم قد مزقه الظلام في بعض المواضع . هناك هالات سوداء تحت عيني بيارني ، وكذلك تحت عيني البنت التي تحاول توفير العزاء لأخيها بذراعها الصامتة ، براحة يدها الدافئة ؛ وهي في منتهى الهزال بحيث يبدو أن عينيها تحتلان وجهها كله . رؤوس الآخرين الذين في غرفة الجلوس متشنجة ، كما يفعل المرء عندما يريد تجنب سماع الكلمات ، عندما يكون هناك شيء مهدد ومؤلم يلوح في الأفق ، ومن يتكلم أولاً لا يمكنه إلا أن يضمّن ذلك الشعور في كلماته .

يكور بيارني يديه ، يحولهما إلى قبضتين ، يفتح فمه ليقول شيئًا ، لكن يضطر أولاً إلى أن يجلي حنجرته ، ويفعل ذلك بشدة بالغة إلى درجة أن الجميع يجفل منه ما عدا العجوز . ينظر الكلب إلى الأعلى بسرعة ، يرفع أذنيه ، يبدأ الطفل في الغمغمة ، ينشج ، فيلعق لسان الكلب شعره إلى أن يعود ثانية إلى النوم . امرأة ، تقول ، يهتف بيارني ، في هذه العاصفة ، هناك في الأعلى ، أرى ذلك مريبًا . وأي عمل قد يكون لأي شخص هناك؟ دامت هذه العاصفة عشرة أيام ولا أحد هناك يجول في الأنحاء ؛ وأولئك الذين يجازفون وينطلقون بعيدًا جدًا عن ديارهم هم في عداد الأموات . . . تقول ، كانت طويلة؟ هذه الكلمات الأخيرة ، السؤال ، بصقها بيارني بصقًا تقريبًا ، كما لو أن السؤال يؤلمه ، كما لو أنه يخشى الجواب ، وأفراد العائلة كلهم باستثناء أصغرهم وأكبرهم همدوا يحدقون في الزائرين . ينظر الفتى إلى الكلب والطفل ، كل منهما يحافظ على صحبة الآخر وعلى الدفء ، يحظيان بلحظاتهما السعيدة غير واعيين بالعالم .

بيارني ، بنبرة هادئة : أعني طويلة بالنسبة إلى امرأة؟

الفتى وهو يرتعش قليلاً من برد متجذر في أعماقه : نعم كانت طويلة .

بيارني : شعرها الأسود كثيف؟

الفتى : نعم .

بيارني : وهل تسنى لك أن تلقي نظرة على وجهها؟ أم . . .

ينز : المرء لا يعرف أبدًا في مثل هذا الجو ، هناك في الخلاء . غالبًا ما يرى الناس مثل هذه الأشياء التي لا وجود لها ، ذاك محض خيال ، سراب .

الفتى ، بسرعة : رأيتها بوضوح . ورأيت وجهها . عندما أنقذتني .

بيارني : أنقذتك؟

هيالتي : كيف ذلك؟

الفتى : تهت عن ينز ، كنت صريع الإعياء ، وإذا بها تقف إلى جانبي .

بيارني : أرأيت عينيها؟ وأنفها ، أكان محنيًا قليلاً ، محدبًا؟

الفتى : رأيتها بوضوح لكن لم أفكر كثيرًا في مظهرها ؛ كان هذا أيضًا ، حسنًا ، غير واقعي . إلا أن أنفها كان محدبًا ، نعم ، صحيح .

بيارني ، متصنعًا اللا مبالاة تقريبًا : وماذا عن عينيها؟

هيالتي ، بإيجاز : كما لو أنهما تخترقانك؟

للحظة يسترجع الفتى في ذهنه عيني المرأة ، عينين جامدتين بصقيع الموت . نعم ، يقول ، كما لو أنهما اخترقتاني مباشرة .

هيالتي : اللعنة على الشيطان .

بيارني بوجه شاحب : هذه ليست الكلمة الصحيحة بالتأكيد .

بابا ، تقول البنت الأصغر وهي تحدق في أبيها . بابا ، تقول مرة أخرى ، بحزن ، بتوسل . ثمّ لا أكثر . ينهض بيارني ، ثم يعود ويجلس ، يحاول أن يبتسم لها ، ثم ينظر إلى الطفلين اللذين تكوما الآن معًا في السرير ، الصبي والبنت ، ستبللان الملاءة بدموعكما ، يا ولدي المسكينين ، يقول أخيرًا ، صوته رقيق كصوته ذاك الذي حملته العاصفة في الخارج ، ثم يطلب من البنت أن تضع ساكارياس في السرير مع ستينولفر ، وأنتِ نامي مع بيتا ، من الأفضل النوم الآن . لا شيء هناك يمكننا فعله ، يضيف ، ربما للتفسير أو

للعزاء، عزاء عديم الفائدة، فتقف البنت وتفرك يداها اللتان تبلغان من العمر ثنتا عشرة سنة عينيها المجهدتين. اسمها سورا وهي التي تحمل ساكارياس الصغير من حضن الكلب الذي يئن برقة وحزن عندما يؤخذ منه الصغير. هذا نيلمان، يقول بيارني، مشيرًا إلى الكلب. كاسم وزير الشؤون الأيسلندية؟ يستفسر ينز، فيضحك هيالتي بينما يبتسم بيارني ابتسامة طفيفة، ليس سيئًا أن يكون المرء قادرًا على تربية مثل هؤلاء الرجال الرائعين والأقوياء. ينظر الرجال الأربعة إلى الكلب، مستظرفين حصوله على هذا الاسم. لكن أذهان الأطفال ليست بسرعة أذهان البالغين في الازورار عن الألم، وإذ تضطجع سورا إلى جانب بيتا، تنهض هذه الأخيرة وتنظر بعينين محتقنتين إلى أبيها. أمي هي التي أحضرت هذين الرجلين إلينا، أليس كذلك؟ يعاين بيارني ابنته بنظرة فزعة تقريبًا، ويتحول حسّ الفكاهة الذي أشاعه اسم الكلب إلى هباء. نامي يا صغيرتي، يقول هيالتي بهدوء وحنان، هذا أفضل. تستلقي بيتا بإذعان إلى جانب شقيقتها، ثم تعود وتنهض ثانية فورًا وتقول: أتظن أنها ما زالت هناك، ألا يجدر بنا أن نفتح لها الباب، لا ريب في أنها تشعر بالبرد. هي ميتة، تقاطع سورا أختها وتجرها نحو الفراش وتردف: ما يعني أنها لا تشعر بالبرد، هي ميتة فقط لا غير. لكن، ما دامت في الخارج مع هذين الرجلين لماذا لا تأتي وتنضم إلينا؟ تسأل بيتا، فتلتفت سورا نحو أبيها؛ بابا، تهتف، بابا، تستفسر. ليس في وسعنا فعل شيء حيال هذا، يقول بيارني. لعلها ليست ميتة! تصرخ بيتا فجأة، وقد نهضت من جديد، تصرخ بصوت عال جدًا بحيث توقظ الطفل الأصغر الذي يبدأ في البكاء، يئن الكلب بصوت رقيق بينما يلف ستينولفر ذراعيه حول شقيقه الصغير فيعود إلى النوم. أنا خائفة بابا، تهتف سورا. لا بأس، أنا هنا يا ابنتي. أعرف، تجيب.

لا شكّ في أنهما يحبذان شرب مزيد من القهوة، يقول هيالتي بعد

فترة صمت طويلة بينما الريح تهز البيت . لا مشكلة لدى بيارني في أن يسمح لهيالتي بإعداد إبريق آخر من القهوة في هذا البيت خلال هذه المدة الزمنية القصيرة ، بل حتى إعداد ضعفي الكمية المعهودة ؛ يبدو أنه متآلف جيدًا مع الفكرة ، مع أن البنّ يكاد ينفد ، عندما ظهر الرجلان لم يكن لديهم إلا ما يكفي عشرة أيام . هو طبعًا على حافة أن يقول لهيالتي ، اجعلها خفيفة ، بيد أنه معتدّ بنفسه أكثر من أن يفعل . يتثاءب الفتى ، لا يستطيع الحؤول دون ذلك ، يتوق إلى النوم ويعرف أن عليه تجاهل الأمر فترة من الوقت . يتنحنح بيارني ، يبصق ، ينهض ليتفقد الأطفال ؛ ينام الأطفال الباكون خلال وقت أقصر من المعهود . وبالتالي يمكن دائمًا أن نعثر على عزاء في هذا العالم . يجلب هيالتي القهوة ؛ يمشي بخطى غير متزنة . يشربون قهوتهم ، يشربون القهوة الخفيفة ، يقولون حسنًا حسنًا ، يتأرجح بيارني بتؤدة في مقعده ، يسأل ينز عن رحلاته البريدية ولكن لا يظهر عليه أنه مهتم بما يقوله ، حتى على الرغم من أن كل ما يقوله ينز يعتبر أخبارًا أساسية في هذه المنطقة . يقاطع ساعي البريد في منتصف حديثه فيصمت ينز ، كأنما هو يتوقع ذلك . ماتت قبل عشرة أيام ، يقول بيارني . يوم هبوب العاصفة بالضبط . لذلك لم نقدر على الذهاب إلى أي مكان . يحتاج نقل تابوت عبر المرج الجبلي هنا أذرعًا كثيرة لحمله . كيف؟ يسأل ينز بهدوء . كانت معتلة الصحة طوال الشتاء ، يجيب بيارني وعيناه على إبريق القهوة .

هيالتي : وبعد ذلك بدأت تضع الحفاضات تحت قميصها .

بيارني وهو يلقي عليه نظرة خاطفة : هراؤك هذا يكفي .

هيالتي : هذا ليس هراء .

بيارني : لم يكن ذلك السبب . كانت معتلة الصحة طوال الشتاء ، قلت .

أيّ حفاضات؟ يسأل الفتى . حفاضات الصغير ، يجيب هيالتي ،

كانت بالغة الرطوبة ، وكان البرد يقض مضجع الصغير المسكين ، ودرجت آستا على وضعها تحت قميصها لتجففها جيدًا . بعد ذلك ازدادت صحتها سوءًا .

بيارني : لقد منعتك من الإشارة إلى هذا .

هيالتي : هم نائمون . ثم أنا فقط أخبر هذين الرجلين كيف كانت . تلك اللؤلؤة الأنقى ، يردف وهو ينظر إلى الفتى وينز .

تتحرك كومة الخرق ، تنهض العجوز متكئة على مرفقها ، أوه أوه أوه ، تئن . يطلق بيارني اللعنات بصوت منخفض ، يقف متثاقلاً ، يمضي إلى السرير ، يسحب البطانية عن أمه فيفعم زخم البول الغرفة . أوه أوه أوه ، تئن .

ليس هناك ما هو أسوأ من التقدم في السن ، يقول هيالتي ؛ عسى القدير يحميني منه!

ينسكب الإعياء على الفتى بينما يهتم بيارني بأمه التي تئن ، يعتم العالم أمام عينيه ، يمكن أن أنام الآن ، يقول ينز وهو إلى جانبه ، وفي الوقت نفسه يبدو صوته بطريقة ما آتيًا من مسافة عظيمة . ينامان معًا في سرير واحد ، وهو ضيق . اللعنة أنت ضخم ، يهمس الفتى محاولاً تثبيت نفسه ، ألا يمكنك أن تقتطع شيئًا من جسمك ، أتحتاج حقًا إلى كل هذا؟ اسكت ، يغمغم ينز بينما يخمد هيالتي نار الموقد . لماذا جاءت تبحث عنك؟ يسأل بيارني من وسط الغرفة ، ظلّ مبهم في العتمة يحمل ملابسهم الرطبة النتنة ، يشم الفتى الرائحة الكريهة وهو مستلق على جانبه وقد فقد أي خيار آخر بسبب ضيق المساحة ، وينظر إلى الأرضية . ربّما لتنقذنا ، يقول ينز من وراء الفتى ، غريب كيف يتغير صوت المرء إذا تعذرت رؤية مصدره على الرغم من الوعي بحضور صاحبه أو صاحبته . لا شيء يجعلني أنكر هذا عنها ، يغمغم هيالتي وهو يجلس على حافة السرير ؛ ينزع ثيابه ، جسمه

الضخم الأبيض يومض في الظلام ؛ يجلس عاريًا وساكنًا على الرغم من البرد الذي ينخر فيهم الآن ، بعد أن أُخمدت نار الموقد .

بيارني : الأموات لا يتسلقون الجبال ، ولم يفعلوا قط .

هيالتي : واجهت هذا وذاك على مرّ السنين ، أعرف أناسًا رأوا واختبروا أمورًا معينة . وماذا عن كل تلك القصص ؛ أما من قيمة لأي منها؟

بيارني : القصص ليست حقيقية .

هيالتي : أوه ، ما هي إذًا بحق الجحيم؟

بيارني : لا أدري .

هيالتي : لكنّك شهدت شيئًا أو شيئين عندما عشت في بيرغ . ولم تكن مثالاً لرباطة الجأش عندما سمعنا حسّ هذين الرجلين في الخارج .

بيارني : هذا ليس الأمر نفسه . ومن يتوقع زوارًا في مثل هذه العاصفة؟ أحقًا رأيتما شيئًا؟ أما كنتما منهكين ومشوشين؟

ينز : كان ما رأيناه شيئًا ما على الأرجح .

الفتى : رأيت امرأة . رأيتها بوضوح .

بيارني : أنا لا أفهم هذا .

هيالتي : اللعنة على كلّ شيء . القدير وحده من يفهم ما يجري .

ولا يلبث أن يخيم الليل .

يضطجع هيالتي بكل ثقله ، بكل كيلوغراماته المئة أو ما يزيد ، وفي الحال يتصاعد شخيره ؛ أولئك الذين ليس لديهم إلا القليل مما يثقل ضمائرهم ولا يسمحون للوجود أن يربكهم ينامون في الحال ، كما لو أنهم مباركون . نام ينز أيضًا ، وكذلك بيارني بعد أن تقلب واستدار وغمغم قليلاً وتنهد ، وها هو الآن نائم ، وشخير الرجال الثلاثة يخترق هواء الغرفة الصقيعي . تئن العجوز

بوهن في حلم ما ، الفتى يستلقي محشورًا عند طرف السرير ، يشعر كيف يدفعه ينز كلما أخذ نفسًا . لن أذوق النوم إذًا ، يفكر ، يستلقي هناك على حافة اليأس ، تواقًا للنوم ، تواقًا للاسترخاء ، تواقًا للفرار . أنا لن أنام أبدًا ، يغمغم ، ومع ذلك ينام . ثم يصحو على صوت ، الغرفة ما زالت مغمورة بالظلال والجميع نيام ؛ إنه الجو فقط ، يفكر بتراخٍ ، ثم يسمع الصوت ثانية . يبدو أنه ينبعث من الممر . الكلب؟ يفتح عينيه ثم يغمضهما بسرعة عندما يميز نيلمان قابعًا في مكانه . اللعنة ، يفكر مذعورًا ، مقتنعًا بأنها قادمة عبر الممر ، بعينيها الميتتين . يستمع ولا يسمع المزيد ، يفتح عينيه قليلاً ويلمح من زاوية عينه ساكارياس الصغير الذي يجلس ويتطلع حواليه بحذر ، كأنما يريد أن يحدد هل العالم صالح أو طالح . يئنّ الكلب برقة فينزل ساكارياس ويزحف بقدر ما تسعفه السرعة نحو الكلب الذي يقف ليلف جسمه حول الطفل ، يلعق شعره ثم ينام الاثنان ، طفل صغير وكلب ضخم ، ربما هناك رحمة ما في العالم . ثم ، ألا يبدو أن العاصفة تنحسر؟ إنها لا تعصف بقسوة بالغة على البيت . يبتسم الفتى ، مسحوقًا بحافة السرير ؛ كان قد بدأ يعتقد أن الجو لن يهدأ ثانية أبدًا ، أنه هو وينز سيُقتادان هكذا من مزرعة إلى مزرعة في عواصف قائمة ما دام العالم يدور . لعل الربيع قد أقبل ، يفكر وهو يشعر بالنوم يعود إلى الاقتراب منه بحقيبته العامرة بالأحلام . يسمع تعتعة مبهمة مكتومة آتية من جهة بيارني ، يفتح عينيه قليلاً ، يرى المزارع يتلوى . إنه يعاني من كابوس ، يفكر الفتى ، ويغمض عينيه بعجالة ثانية حتى لا يفر منه النوم .

هو وينز وحدهما في الغرفة العائلية بمعزل عن العجوز . يستيقظ الفتى فجأة ، يقعد فورًا وهو بعد مشوش الذهن من النوم ؛ ينز يقف إلى جانب الموقد عاري الصدر يحاول أن يتدفأ . انحسرت العاصفة ، يقول العملاق . وهذا صحيح ، الريح لا تهب على السطح ، والثلج انجلى من على النوافذ

المصنوعة من الأغشية الحيوانية ، ضوء الصباح يتقطر نحو الداخل وهدير البحر القطبي الصاخب مسموع بوضوح في السكون ، طاغيًا تقريبًا على أصوات الأطفال المنبعثة من الخارج . حسنًا لا بأس ، يقول الفتى ويشرع في البحث عن ثيابه . يفعل ينز الشيء نفسه . رجلان نصف عاريين يبحثان عن ثياب ، يعثران عليها على الموقد الحجري في المطبخ ، حيث البنت الكبرى سورا جالسة تراقب . الفتى أبيض البشرة ونحيل ، ينز مشعر وممتلئ الجسم . ثيابهما جافة تقريبًا ، وقد أعدت لهما نوعًا من عصيدة الأعشاب ، بيد أنها تهرع إلى الخارج قبل أن يستطيعا مخاطبتها كأنها خائفة منهما . هذا لأنك قبيح جدًا ، يقول الفتى لينز . يأكلان العصيدة في غرفة الجلوس . وبعد الانتهاء من الأكل يكتفيان بالجلوس والاستماع إلى أصوات الحياة في الخارج ، وإلى السكون حولهما . اللعنة ، أريد قهوة ، يقول ينز ، فتبدأ العجوز في الضحك . تستدير وتستلقي على جانبها ، يظهر وجهها لهما ، فيريان ما يمكن أن يفعله الزمن بالمرء . فمها الخالي من الأسنان مفتوح على وسعه ، وهناك ظلام في الداخل . إنها تضحك ، يقول الفتى برفق متفاجئًا . لا ، هي تبكي ، يقول ينز ، وهذا صحيح ، لأنها تشرع في البكاء ، جسمها المهزول ، تلك الجثة ، ترتعد ، بصمت تقريبًا ، ولكن لا دموع تنهمر ، فالجداول كلها قد جفت . هيا الآن يا أمي ، يقول بيارني الذي دخل من غير أن يلاحظا ؛ لا فائدة من البكاء ، إلا أن العجوز لا تتوقف ، ربما لأن هذا بالضبط عديم الجدوى . ستحصلان على القهوة ، يقول بيارني بصوت عالٍ وهو يغادر ليغلي كمية منها ، يتركهما وحدهما مع عصيدتهما .

القهوة سلواها الوحيدة ، يقول بيارني عندما يعود . أما هما فلم يتحركا ، جلسا برأسين منكسين ، يشلهما النحيب المؤلم الرتيب . بل هي الشيء الوحيد الذي يبقيها على قيد الحياة ، يضيف المزارع ، ويداه متدليتان بلا حول ولا قوة على جانبيه . مع أنني أحيانًا لست متأكدًا من أن المرء

يمكن أن يدعو هذه حياة . أيمكن استيعاب مثل هذا الأمر؟ امرأة في أفضل سنوات عمرها تموت ، بينما هذه الجثة تحيا . ربما هي القهوة فقط ما تبقي فيها نفس الحياة ، وهذا قد تثبت صحته أو بطلانه عما قريب ؛ فالقهوة لدينا لن تدوم أكثر من أربعة أو خمسة أيام أخرى . في هذه الأثناء عندنا ما يكفي منها ، يضيف بسرعة ، قبل أن يدخل المطبخ ليجلب الشراب الأسود . أعلينا أن نأتي على ما تبقى من قهوتهم؟ يسأل الفتى بصوت منخفض . لا خيار آخر ، يجيب ينز . كما أنه لن يتبقى لديهم طعام كافٍ ، يردف الفتى ، ويضيف عندما لا يقول ينز شيئًا ، أرأيت الهالات تحت عيونهم ، أنت تعرف ما يعني هذا! يتنهد ينز . تمامًا ، يقول الفتى ، هم يتضورون جوعًا . لقد سمعت عن الأحوال هنا في المناطق الشمالية وكيف هي ، لا يتبقى لديهم بحلول الربيع إلا القليل إلى جانب لحم طيور البحر المملح . يطرح داء الأسقربوط الناس في الفراش ، أناس في أفضل سنين عمرهم ، وبعضهم يحتاج إلى أن ينقل إلى مزارع أخرى ، إلى مناطق أخرى ، ليستعيدوا قدرتهم على الوقوف على أقدامهم . يعطون غذاءً مناسبًا على مدى بضعة أيام ، حتى يستطيعوا العودة إلى بيوتهم . لا بد من أن هذه آخر حدود الدنيا ، يختتم الفتى بينما يأتي بيارني بالقهوة .

يتجنّبون الكلام مدة من الوقت ليستمتعوا بالقهوة كما ينبغي . يتنهد بيارني برفق . مضى وقت طويل ، عدة أسابيع ، منذ أن سمح لنفسه أن يغلي قهوة قوية كهذه ، وهي لا تضاهى ؛ المذاق والتلذذ به يأتيان فورًا ، ولا يحتاج إلى أن يتلمظ ليشعر بهما .

تشعر بأننا نعيش في آخر الدنيا ، يقول بيارني من غير أن ينظر نحو اتجاه معين ، مع أنه لا يخفى إلى من يوجه حديثه . يشعر الفتى بحرارة تلفح وجهه . سمعتك ، يردف بيارني مباشرة ، عندما لا يقول الفتى شيئًا . تضحك العجوز بصوت خفيض ، خفيض جدًا ، من مسافة شاسعة البعد ،

غارقة في أرض الطفولة، في الأسفل، في حقل الحياة الأخضر، حيث الجميع أحياء، ولهذا السبب لا حاجة هناك إلى البكاء. إذ حتى من هم أكثر بؤسًا لديهم أحلامهم الخاصة.

الفتى: نعم، هذا لا يمكن إنكاره... مكان ناء نوعًا ما عن كل شيء. وراء الجبال، خليج صغير خلفها، ثم البحر القطبي.

بيارني: لاضرر هناك في البحر القطبي.

الفتى: لكن عندما تقف عند أعلى الجبل وتسمع هدير البحر، تبدأ في التفكير في آخر الدنيا، المكان الذي ينتهي عنده كل شيء ويبدأ القفر. الطرق كلها تأخذك بعيدًا عن هنا.

بيارني: ولا دروب هناك تقودك إلى هنا؟

يبتسم الفتى ابتسامة مضمخة بالاعتذار والخجل: هذا على الأرجح ليس صحيحًا.

بيارني: لا بأس. لكن من الجيد أن يكون المرء هنا، لدينا سمك وافر في البحر، وطيور على المنحدرات، ولدينا خمسون نعجة. الحياة هنا هادئة، لا أحد يضايقك. من يعيش هنا حرّ. وهذا شيء يُحتسب. آخر الدنيا، ما ذاك؟ ما هو بالنسبة إليك آخر الدنيا هو البيت بالنسبة إلي.

الفتى: هل تذهبان وحدكما فقط إلى البحر؟

بيارني: شخص ثالث سيقف في طريقنا فقط. يعادل هيالتي أكثر من رجلين، بل هو يعادل ثلاثة رجال بالتمام والكمال. في السابق لم يكن هناك غيري. أنت لا تحتاج إلى التوغل بعيدًا.

ينز: لا أبقار لديك؟

بيارني: لا، امتلكنا واحدة فترة طويلة، لكن الملل أسقمها هنا وتوقفت عن درّ الحليب. الأبقار مخلوقات اجتماعية. أحيانًا وقفت هامدة اليوم بأكمله وخارت على الجبال. كنت بصدد نحرها لكنني امتنعت عن

ذلك بسبب الأطفال . أخذتها إلى ستوروفيك وبعتها . هناك لديها رفقة .

الفتى : لطف منك ألا تذبح البقرة ، أعني مراعاة لأطفالك .

يهز بيارني كتفيه : كان يمكنني على الأرجح أن أستفيد منها وهي ميتة أكثر منها حية .

الفتى : لم تشأ أن تحضر أخرى ، ليكون لديك بقرتين؟

بيارني : من يستطيع تحمّل كلفة بقرتين؟ ومن أين أحصل على العلف لمثل هذه الماشية؟ حليب الماعز يفي بالطلب . بطبيعة الحال لن يتوافر لدينا طعام كثير إذا تأخر الربيع في المجيء ، لكن أحدًا لن يجوع ، وتشكيل صغير في نوعية طعام المرء لأسبوعين أو ثلاثة لن يقتل أحدًا .

لكن ، يقول الفتى غير قادر على ضبط نفسه ، نادرًا ما تستقبل الكثير من الزائرين هنا!

بيارني : نعم ، نعم ، آخر مرّة في تشرين الأول ، والآن أنتما .

ينز : ندرة في الزائرين ، هذا ممتاز .

في الخارج ينبح الكلب ، يضحك طفل ، يلتفت بيارني وللحظة يبدو أنه لا يدري ما ينبغي عليه أن يفعله بذراعيه ، ثم تمرّ اللحظة . لم أتوقع ، يقول ، أن أرى أحدًا قبل شهر أيار عندما ترسو السفن هنا ، يشترون منا البيض والماء ، هناك أجانب أيضًا ، ويحصل منهم المرء في المقابل على أشياء مختلفة مفيدة ، يحصل الأطفال على شوكولاتة ، وآستا . . . نعم . يصمت ، يحملق في الفراغ ، ثم يعرض على ينز مضغة تبغ . بديع ، يقول ينز . نعم بديع ، يقول بيارني . لكن ، يبادر الفتى إلى القول ، فيكيل له ينز الشتائم بصوت خفيض ، لا ريب في أن الوضع صعب أحيانًا ، أن لا تصلك أي أخبار على مدى عشرة شهور ، ولا تكون قادرًا على معرفة ما يجري!

بيارني : ولماذا يجب أن نعرف ماذا يجري؟ ومع من؟ كيف يمكن أن تساعد أخبار بعيدة كتلك أي شخص؟

ينبح الكلب ثانية . فيقول بيارني : نيلمان أنثى في الحقيقة . ويضيف عندما يعاينانه بنظرات فضولية : لا أهمية في ذلك طبعًا . ثم يقول مخاطبًا ينز : تبدو أنك بقوة رجلين ، مثل هيالتي . يهز ينز كتفيه .

بيارني : وأنا لطالما اعتُبرت شيئًا . يمكن أن يعتبَر ثلاثتنا مثل ستة رجال بلا صعوبة ، وهذا ينبغي أن يكون كافيًا .

ينز : يكون كافيًا؟ لأي غرض؟

بيارني : لنقل آستا إلى سلياتريه .

ما يعني أنها هنا؟ يسأل الفتى ، وهو يتلفت حواليه غريزيًا ، كما لو أنه يتوقعها أن تظهر .

بيارني : فكرت في الانتظار مدة أطول قليلاً إلى أن يأتي الربيع ثم أنقلها بزورق . أحتاج إلى جو معتدل لأفعل ذلك ؛ المسافة بالبحر طويلة نوعًا ما إلى سلياتريه . لكن الآن لا أستطيع الانتظار أكثر مما فعلت .

لماذا؟ يسأل الفتى الذي لا يستطيع ضبط نفسه ؛ حاول الامتناع عن السؤال لكن السؤال خرج قبل أن يتدارك الأمر . وعلى أي حال بدا أن بيارني يرحب بالسؤال . راودني حلم سيئ ليلة أمس ، يقول ، يتكلم بسرعة ، كأنما يستعجل البوح بشيء مزعج ؛ حلمت بآستا ، جاءتني في المنام . ليس من الحكمة الاستهزاء ببعض الأحلام . وليس من الجيد أن يحلم المرء بالأموات حتى لو كان الميت آستا . . . كانت امرأة طيبة ، وسيكون صعبًا أن أعيش هنا بدونها . الرجل نصف رجل بدون زوجته ، وماذا يمكن أن يفعل نصف رجل؟ ما كانت سعيدة جدًا بخصوص انتقالنا إلى هنا في الماضي ، بيد أنها قبلت بالأمر الواقع . وبمرور الزمن أنجبنا هؤلاء الأطفال ، وواحد مات . الأطفال يفتقدونها . وقد أبقت نفسها مشغولة دائمًا .

يمكن سماع صوت هيالتي في الخارج ؛ صوته العميق يخترق ضحك

الأطفال ونباح نيلمان . يبدو أنه يلهو مع الأطفال ، ويظهر أنهم يحظون بكثير من المرح . ما أهمية آخر الدنيا؟ يفكر الفتى .

جاءت إليك في الليل ، يقول ينز بروية ، مدركًا بالضبط متى يتكلم ، ومتى يلتزم الصمت ، ماذا يقول وماذا يسكت عنه . نعم ، يقول بيارني . تريد أن تدفن في أرض مقدسة . ولهذا سعت إليكما .

ينز : ألديك زلاجة؟

إطار زلاجة ، يقول بيارني ، من الفترة التي أحضرت فيها أبي إلى هنا قبل بضع سنوات . يلقي نظرة طويلة على الفتى ؛ عيناه بلون أزرق فاتح يشع منهما وميض حازم ، شعره الأسود ولحيته بدأ يتخللهما الشيب . أودّ أن أطلب منك البقاء هنا في هذه الأثناء ، تعتني بالماشية وأمي ، في وسع الأطفال الاهتمام بأنفسهم أو يمكن أن ترعاهم سورا . ليس أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام ، حسب حالة الجو . وسأدفع لك لقاء هذا . تحاشى الفتى نظرته ؛ يدفع لي بماذا؟ يفكر . يمكن أن أحدد لك مبلغًا على حسابي في المتجر في سلياتريه ، يقول بيارني ، كما لو أنّه قرأ ما يجول في ذهن الفتى الذي تسمرت عيناه على الأرضية .

من اللطيف بالتأكيد الحصول على فترة راحة هنا .

لقد نال كفايته من الرحلة المجهدة ، من العواصف ، من الجبال اللعينة . يشعر تقريبًا بالإعياء من مجرد التفكير في الانطلاق مجدّدًا ، بمعزل عن سحب جثة على طول الطريق . لا مشكلة في تدبر أمر خمسين خروفًا ، والبنت التي اسمها سورا سترعى أشقائها ، لا يحتاج الفتى إلا إلى تسليتهم ، إلى مساعدتهم على نسيان أنفسهم أحيانًا ، إنما ماذا عن العجوز؟ طبعًا يمكنه تدبر أمر تغيير أغطية فراشها وثيابها ، على الرغم من الرائحة التي تنبعث منها ، سبق له أن شم روائح نتنة من قبل ، والروائح لم تقتل أحدًا قط . مع ذلك هناك شيء يخشاه : أصابعها المعقوفة كأنها المخالب .

التعامل مع أمي العجوز سهل ، يقول بيارني ، وفي مكان ما هنا لدي مادة قراءة .

الفتى متفاجئًا : مادة قراءة؟

بضع مجلات ، يقول بيارني بنبرة معتذرة ، سكيرنر و إيدن . وأفترض أنه ربما يكون لدي شيء آخر في حقيبة البريد . ثم هناك نشرة المجتمع الأيسلندي الجديدة في كوبنهاغن ، وتلك كانت تخص أبي . أظن أنك تستسيغ القراءة ، والمجلات ستبقيك مشغولاً خلال أيام وجودك هنا . لدينا أيضًا كتب تراتيل ، إنما أخمن أنكم أنتم الشباب لا تعنيكم مثل هذه الأشياء . أوه ، وكذلك بعض مجلدات الشعر ، وملحمة نيال وملحمة غريتر أيضًا ، وهما تعودان إلى أبي ، أراد أن يدفن معه الكتاب الأخير ، لكن طبعًا لم أحقق له أمنيته . أنا لا أصدق حقًا أن المرء يقرأ في القبر ، والكتب خلقت لتُقرأ ، وإلا فهي عديمة الفائدة ، ومن السيئ أن يكون شيء ما عديم الفائدة . هل قرأ كثيرًا؟ يسأل الفتى . لم يسأم قطّ من ذلك ، حتى في عزّ شيخوخته . مرة كان لديه حوالي ثلاثين كتابًا وعددًا كبيرًا من المخطوطات التي نسخها ؛ صرف وقتًا طويلاً وهو يفعل ذلك بدلاً من أن يخلد إلى الراحة ، زد على ذلك هدر زيت المصابيح ، كما اعتادت أمي أن تضيف . هذا كلّه أصبح لا شيء عندما احترق الكوخ . ثم انتقلا إلى هنا . الكتب احترقت؟ يسأل الفتى . نعم ، إلى جانب معدات المزرعة وكلب وثياب . اقتحم أبي النيران ، ليس من أجل الكلب المسكين الذي كان صالحًا بما يكفي ، إنما من أجل الكتب . مع أنه لم ينجح إلا في إنقاذ ملحمتي نيال وغريتر . فيسارع الفتى إلى القول ، كان يمكن أن يكون من المناسب حقًا لو أن ملحمة نيال احترقت .

بيارني : لم يتماثل للشفاء جيدًا من الدخان ، ومات بعد سنوات قليلة . قتلته الكتب اللعينة ، هذا ما قالته أمي دائمًا .

الفتى : وهل تقرأ أنت؟

بيارني : إنها عادة سيئة .

الفتى : لكن ، أتقرأ على أي حال .

بيارني : علينا أن ننطلق . نوبة هدوء العاصفة هذه لن تستمر طويلاً ؛ الهجوم التالي في طريقه إلى القدوم .

لكنه الربيع ، يقول الفتى بنبرة شبه اتهامية .

ينز : أين هي؟

بيارني : في كوخ التدخين

في كوخ التدخين؟ يهتف الفتى ، فينظر إليه ينز وعلى وجهه تعبير يأمره بالسكوت .

بيارني : أنا لم أستسغ فكرة إبقائها في الخارج . إلى جانب أنها قد تطمر تحت الثلج . تلك كانت الطريقة الوحيدة .

ينز : لنبادر إلى الذهاب إذًا . نحتاج إلى تسلق الجبل قبل العاصفة . سأصطحب هيالتي والفتى .

يهز بيارني رأسه : لن يفيدك الفتى كثيرًا . هذه مهمة للرجال .

ينز : هو ليس بائسًا تمامًا كما يبدو عليه . هو شاب صلب العود عندما يتعرض للاختبار ؛ إنه فقط كثير الكلام . أما أنت فمكانك هنا ؛ الأطفال بلا أم .

جلس بيارني ، وبقي جالسًا عندما نهضا . يجلس ويبدو أنه كبر حوالي عشر سنوات ، وإعياء الفتى تلاشى في طرفة عين ؛ هو جاهز لمحاربة الجبال . وإن كانت عشرة جبال ووعرة .

الهواء أبيض تقريبًا بالنور الذي يتخلله ؛ هناك أثر سماء حيث الشمس تشع من وراء الغيوم . البحر القطبي يمتد مترامي الأطراف مثل الخلود بذاته ،

يتنفس بعمق، وأمواجه تتكسر على الصخور في مكان ما في الأسفل. يتجنب ينز التطلع إلى الأسفل، لكن الفتى يسترق النظر قرب حافة المنحدر، وهذا يعني أن الناس هنا عليهم أن يُنزلوا المركب ثم يسحبوه عندما يلوح لهم خطر تحطمه من الأمواج المتلاطمة. لا بد من أنه كدح لعين، يفكر، متلفتًا حواليه بحثًا عن المركب، ولكن لا يلمح إلا الثلج. يعدّل ينز وضعية حقائب البريد، ربما تزن الواحدة منها عشرة كيلوغرامات، أو خمسة عشر. كانت هناك مجلات لبيارني: سكيرنر وإيدن. تأتي الكلبة نيلمان عدوًا، تقف إلى جانب بيارني، تتطلع إليه بحماسة متدلية اللسان، نعم نعم، يقول بصوت ودود فتجثم الكلبة على الثلج، وتبدو كأنها قد منحت وسامًا. يبعد عنهم الأطفال وهيالتي مسافة جيدة؛ كانوا قد صنعوا رجال ثلج، عائلة بأكملها، كل عضو فيها حي. يكور هيالتي كرة ثلج كبيرة ومتزايدة الحجم أمامه وهو يحمل الطفل الأصغر مثل كيس تحت ذراعه الأخرى.

لا يتجاسر الأطفال على الاقتراب من الزائرين، يبقون أنفسهم على مسافة ويكتفون بالتحديق فيهما. يمضغ ستينولفر قفازه الصوفي، ويسلم هيالتي ساكارياس إلى سورا ويقول نحن مغادرون، بينما يقول بيارني لابنته: اذهبوا إلى الداخل. لكن بابا، يعترض ستينولفر، الجو هنا لطيف ووضاء! أحقًا؟ يهتف بيارني وهو ينظر حواليه كما لو أنه لم يلاحظ ذلك إلا توًا. أريد أن أبقى في الخارج مع هيالتي، تعلن بيتا من غير أن تزيح عينيها عن ينز والفتى؛ فالزوار لا يتوقفون هنا إلا فترة قصيرة ونادرًا ما يعودون، ولعلها لن تحظى بفرصة أخرى لترى هذين الرجلين. سيأخذون جثمان أمك، يقول بيارني بحدّة، شبه موبخ تقريبًا. تحول بيتا نظرها عن الرجلين وتتطلع نحو أبيها، يأخذونه إلى أين؟ إلى باحة كنيسة طبعًا، تجيب أختها. فتعترض

بيتا : لا ينبغي أن تذهب إلى أي مكان ، يجب ألا تذهب وإلا فلن تعود أبدًا! لقد رحلت ، يقول بيارني قبل أن يضيف مترددًا ، يا طفلتي . أريد رؤية ماما ، يقول ستينولفر وهو يخرج قفازه من فمه ، ثم يبدأ الطفل الأصغر في البكاء ، ربما بسبب البرد وربما لا . ادخلوا البيت ، يأمرهم بيارني بصرامة ، فتمضي البنت مع الطفل الباكي ويتبعها الآخران بتردد . انتبه إلى ما تشربه ، يقول بيارني لهيالتي بينما هم يقصدون كوخ التدخين . أفترض أنك ستبقي عينك علي ، يجيب هيالتي وهما يمشيان جنبًا إلى جنب ، ويبدو المزارع كبير السن وهشًا إلى جانب عامل المزرعة الجسيم .

بيارني : أنا باق هنا .

هيالتي : ماذا؟

بيارني : هكذا سيجري الأمر . أنا باق مع الأطفال . إنهم يعانون بما فيه الكفاية .

هيالتي : اللعنة .

الكوخ شبه مدفون تحت الثلج ، لكن من الواضح أنهما داوما على جرف الثلج عنه بانتظام ، آخر مرّة في ذلك الصباح . حالما يفتح بيارني الباب تستقبلهم رائحة الدخان ، يدخل ويخرج وهو يسحب زلاجة بسيطة ، والتابوت عليها . تابوت مصنوع من الخشب الطافي المتين ، ليس قطعة جميلة ولكن الموت ليس كذلك . سأرافقكم إلى الجبل ، يقول بيارني ؛ تحتاجون إلى المساعدة . يرنو الفتى إلى الأعلى . تنتصب الجبال في نصف دائرة حول الخليج ؛ في بعض المواضع تتفرس صخور رأسية ومنحدرات قاتمة السواد في البحر بعناد . ينطلقون بالزلاجة التي تنزلق بيسر على الثلج . ألا تريد أن تخبر الأطفال؟ يقول هيالتي . سبق أن فعلت . أعني أن تخبرهم أنك لست ذاهبًا طوال الرحلة . يتوقف بيارني ، ينظر إلى المزرعة في الأسفل ، لم يدخل

الأطفال البيت بل هم يقفون خارج الباب تمامًا والكلبة معهم، يراقبون. اذهب أنت، يقول بيارني، ليتسنى لك أن تودعهم. فعلت هذا في الحقيقة قبل أن تخرج؛ قلت لهم أنني أحتاج إلى القيام برحلة قصيرة مع الزائرين، لكن يمكن أن أفعل هذا مرة أخرى. يهرع الرجل الضخم، بخطوات واضحة الخفة. إلى الأمام الآن، يعلن المزارع وهو وينز يسحبان والفتى يرفع مؤخرة الزلاجة ويدفع، ينظر مرتين من وراء كتفه، يرى هيالتي يحمل بيتا ويحك رأسه الكبير ببطنها.

يسارع هيالتي في العودة إليهم، يُحمل التابوت أثناء تسلق المنحدر بصعوبة، يحتاج الأمر إلى أربعة رجال أحياء على الأقل لجر الموت بعيدًا عن المكان. ينضح الفتى بعرق غزير؛ أحيانًا يضطر إلى النزول على ركبتيه ليدفع عندما يصبح المنحدر حادًا. يشقون طريقهم صعودًا، ببطء لا يطاق، يعبرون من الأماكن التي تخف فيها درجة الانحدار، مع أن ذلك ليس سهلاً أبدًا، وعندما يجثو الفتى على ركبتيه ينفخ ويلهث على التابوت، وينزلق نفسه الدافئ عبر فلوع الخشب. لكنها ليست أكثر من ثلاثمئة متر، يقول بيارني عندما يتوقفون ليرتاحوا؛ ونحن لم نتجاوز سوى نصف المسافة إلى الأعلى. المزرعة في الأسفل مجرد نقطة صغيرة والأطفال لا أثر لهم، كما لو أنهم لم يكونوا قط؛ لن أراهم ثانية أبدًا، يفكر الفتى بحزن. ليس بالأمر الحسن دائمًا الصعود إلى مستوى عال ومعاينة منظر ما. يرون البحر؛ يرونه لا نهائيًا. كلما بالغ المرء في الصعود إلى مستوى أعلى، يغدو أصغر حجمًا ويغدو البحر أعظم.

يودعهم بيارني عند قمة منحدر، أمامهم مرج عال متموج. إنها فقط ما يقارب اليوم والليلة إذا بقي الجو هادئًا، يوضح بيارني، متحاشيًا النظر تجاه الأفق، حيث الدنيا تميل إلى الإعتام. وأنا سأنتبه إلى ما أشربه، يهتف

هيالتي . ينظر بيارني إلى التابوت فيستدير الآخرون ، يُشغلون فجأة بالنظر حواليهم . وبعدئذٍ يقول بيارني وهو ينظر غربًا نحو المروج والجبال : هيالتي ، اِدفع ثمن إقامتك بالزلاجة ، ثم يتنحنح ويضيف : ليرعاكم القدير . ثم يصافحهم كلهم ويبدأ في النزول . يمضون في الناحية المعاكسة تجاه الغرب الذي يبدو بطريقة غامضة أنه الاتجاه نحو الشمال . كأنما هو الاتجاه الوحيد هنا . يدفع الفتى الزلاجة ، ويسحبها رفيقاه ، يسير الأمر سيرًا حسنًا ، بل بشكل رائع في الحقيقة . بعد ساعتين يبدأ الثلج في التساقط . برفق في البداية ، ثم طبعًا يعتم كل شيء . وبالضبط عندما تصحو الرياح يكيل هيالتي اللعنات .

١٢

أربعة أفراد في حالة حركة . ثلاثة رجال أحياء ، ورابعهم امرأة ميتة .

الفتى في بعض الأحيان أمام التابوت ، برفقة من يشبها العمالقة ، عود هزيل بين جذعي شجرتين ، لكنه لسوء الحظ غالبًا ما يبقى في المؤخرة ، يدفع ، باذلاً الجهد ، مستعينًا بكل قوته ، وعلى مسافة عدة سنتمترات تحت راحتيه وجهها ، أزرق من الموت ، وأبيض من البرد . السحب صعب ، فالمرء يغوص في أغلب الوقت ، ويحتاج باستمرار إلى تمهيد موطئ قدم ، بيد أن التمركز هناك أفضل ، هناك يشعر أنه أقرب إلى الحياة أكثر من قربه إليها هنا خلف التابوت . هذا طبعًا يؤمّن له شيئًا من الحماية من العاصفة ، خصوصًا عندما ينحني ، إلا أنه حينها يشعر بنفَس الموت الصقيعي على جلده . يحاول أن يبقي ذراعيه ممدودتين أمامه ، ليكون رأسه بعيدًا عن التابوت وليس فوقه ، لكنه يعجز عن تجنب ذلك عندما يتسلقون المنحدرات ، والتلال ، ويجاهدون صعودًا خارج المنخفضات ؛ يسحب ينز وهيالتي ويكون عليه أن يمط جسمه فوق التابوت ليكتسب قوة دافعة ، وجهه فوق وجهها مباشرة ، عيناها الميتتان تخترقان غطاء التابوت وتقابلان عينيه الحيتين ؛ وعندما يطبق جفنيه يسمع صوتها في رأسه . ليس من الجيد أن أكون ميتة ، تقول ؛ الموت بارد ، والبرد يجعلني شرسة ؛ فلا تخذلني .

يفتح عينيه عنوة غير آبه على الرغم من أن الثلج العاصف يؤذي بؤبؤيه ، لأن الصوت يصمت فورًا . يلتزم بإبقائهما مفتوحتين! إلا أن حدة المنحدر تتفاقم كثيرًا إلى درجة أن التابوت يصبح بين ذراعيه من جديد ؛

يواصل دفع طريقه صعودًا، يغمض عينيه تلقائيًا أثناء جهاده وفي هذه الأثناء يسمع الصوت؛ أتحاول معانقتي، وأنا هكذا موغلة في الموت؟

أتعرف الطريق؟ يسأل ينز وهم يتوقفون ليستعيدوا أنفاسهم بعد مسيرة طويلة. الجبال التي انتصبت أمامهم عند بداية الرحلة اختفت؛ غدت ضبابية في ظل الثلج المتساقط ثم اختفت كليًا، ومعها اختفت الاتجاهات والأفق وكل شيء يحتاجه المرء ليسافر عبر الجبال في الجو الصقيعي وريح الشمال القارسة. أتعرف الطريق؟ يسأل ينز، ربما قلق قليلاً ولكن أيضًا متنفسًا الصعداء منذ أن أخذت المسافة بينهم وبين البحر القطبي تطول مع كل خطوة يخطونها؛ البحر الذي وجد سبيله إلى أحلامه في الليلة الفائتة ولامس صدره، فاستيقظ بقلب متجمد. هناك معرفة وهناك معرفة أخرى، يجيب هيالتي؛ يتوقف الأمر على ما يعرفه المرء، وقد قمت بهذه الرحلة من قبل. يجثون تحت حافة التابوت المحجوبة عن الرياح، تحت ستار الموت، الفتى مثل جرو بين الرجلين اللذين يكسران رقاقات الجليد المتشكلة على لحيتيهما. إنه عمل متطلّب، السفر مع جثة ميت. الزلاجة جيدة طبعًا وأحيانًا تواجههم طبقة صلبة من الجليد، وأحيانًا أخرى يصبح التقدم صعبًا على الثلج الطري وأكوامه، وعلى حفر ومنخفضات يغمرها الثلج اللين؛ يسحب العملاقان ويدفع الفتى، يغوصون في الثلج، تارة يعرقون وتارة يتجمدون بردًا. في مكان ما خلفهم، بعيدًا عنهم، كوخ فيه أطفال ومزارع وكلبة وعجوز؛ وهو شبه بائس الآن بما أن هيالتي قد ذهب. غيابه يستحضر في أذهانهم أيضًا موت آستا، وهذا تقريبًا كما لو أنها ماتت مرة أخرى. يجلس بيارني بلا حراك يحدق في الفراغ؛ ساكارياس يكتسب الأمان والسلوى من الكلبة ذات العينين الوديعتين واللسان العريض المرن، بيد أن الثلاثة الآخرين عليهم أن يعتنوا بأنفسهم وهم غير محصنين.

يحرز الرجال الثلاثة تقدمًا ملحوظًا، لا يتوقفون إلا مدة قصيرة ليلتقطوا أنفاسهم بعد صعود أشد المنحدرات صعوبة ؛ تبادل الفتى وهيالتي الكلام، تحادثا، بينما لزم ينز الصمت. لم يقل شيئًا. وهم الآن يرتاحون. مزيد من الأذرع ما كانت ستضر، يقول هيالتي. لا ليشتكي ؛ هو فقط يعبر عن الوضع كما هو. كيف تشعر عندما تنحني فوقها تقريبًا؟ يسأل الفتى. أشعر بالبرد، يجيب الفتى. أصدقك، لكن أتتكلم معك؟ نعم، عندما أغمض عيني، يقرّ الفتى. مستحيل قول أي شيء ما عدا الحقيقة هنا في الأعلى بين الجبال، الكذب ونصف الحقيقة لا يصلان إلى أي مكان، بما أنه ليس هناك أحد ليستثمرهما. الأموات لا يتكلمون، يقول ينز.

هيالتي : أوه بلى يفعلون، وهناك احتمال كبير في أنهم يتكلمون أكثر منك.

الفتى : هي تتكلّم معي . . . أو تخاطبني.

تنقصكما الأدلة، يقول ينز بصراحة، كما لو أنه يعلل لهما ذلك ؛ هم يجلسون وظهورهم تواجه التابوت، يبدو أن الجلوس هكذا أسهل لأخذ قسط من الراحة والدردشة. يجيب هيالتي متفكّرًا : قد يكون ما قلتَه ممكنًا. وتعاين عيناه الزرقاوان الفتى من تحت حاجبيه المحجوبين بالجليد. إنما هذا لا يغير حقيقة أن الأموات يتكلمون ؛ أنا أعرف، وهناك بضعة أشياء تنقصني ما عدا الأدلة. الكلام يتطلب أن تكون حيًا، يعترض ينز وهو ينفض جسمه، فالصقيع الجليدي يشتد، هذا الصقيع الفظيع الذي يأتي من الداخل.

هيالتي : هناك موت وبعد ذلك هناك موت آخر. نوعان مختلفان جدًا، الخِراف الميتة ميتة، وكذلك الحال بالنسبة إلى السمك، أما الإنسان فلا يتاح له أن يموت بالسهولة نفسها.

الفتى : أتمنى أن تكون محقًا.

هيالتي : تتمنى؟ أنا أتحدث عن حقائق . يمكنك أن تعرفها مني ، أنا أعرف عن أي شيء أتحدث . أما الآن فسيكون من الجيد أن نأكل شيئًا .

ينظر إلى ينز الذي يقول هذا الحديث سيودي بكما إلى الجحيم مباشرة ، ثم يناولهما قطعًا من اللحم . تهبّ الريح الباردة ، وسرعان ما يهبط المساء .

يهبط المساء ويدفع الفتى التابوت . وصلوا إلى مكان شاهق يحول بينهم وبين الانتماء إلى العالم المسكون ، إلى البشرية . هم جزء من الفلاة والسماء ؛ نعمة في فصول الصيف ، قسوة وموت في فصول الشتاء . يجاهدون إلى الأمام ، يعييهم الإنهاك ولكن لا مجال للتوقف ؛ لا ملجأ هناك في أي مكان ، جهادهم يبقيهم دافئين بيد أن أصابعهم تتجمد وأقدامهم تتجمد وأصابع أقدامهم يتعاظم خدرها وتئن كأنها حيوانات صغيرة . هناك قرّ دائمًا عندما يقترب المرء من السماء . يسوط الثلج الفتى من كافة الأنحاء ، يدفع طريقه خلال كل فرجة فيه ويدوّم حول وجهه الذي جمده الصقيع منذ فترة طويلة ؛ لا يكاد يقدر على قول شيء حتى لو حاول ، وجهه متصلب كتصلب وجهها تقريبًا ، تلك المستلقية هانئةً في تابوتها ، تاركة أمر تلبية حاجاتها لهم . الموتى أنانيون ، يكرسون الأحياء لخدمتهم ، إضافة إلى شحنهم بالشعور بالذنب لعدم إجادتهم القيام بذلك كما ينبغي . يلعن الفتى المرأة لأنها ماتت ، لأنها جاءت تبحث عنه وعن ينز ، اختارتهما لهذه المهمة الشاقة ، جاءتهما لينقلا الموت عبر الجبال ، عبر القفار ، يلعنها لأنها مسترخية هناك في التابوت ، بدلاً من أن تنهض وتساعدهم في الدفع والجر . يراقب الرجلين أمام التابوت ، لكن يصبح تمييزهما من بين ندف الثلج أشد صعوبة ، اختفى الناس في هذه المناطق ، تحولوا إلى ثلج ، ومن غير الممكن أن يراهم أحد ثانية ، ذابوا صيفًا في الأرض مع ذوبان البياض ، ربما لا موت

هناك أجمل من هذا ، مع أنه ليس من الجميل مطلقًا أن يموت المرء ، الحياة فقط هي الجميلة ، والرجلان في المقدمة يسحبان التابوت خلفهما .

بين حين وآخر يلعن ينز ذراعه اليمنى التي يشلّها الخدر . اللعنة ، يفكر ، اللعنة ؛ يلقي نظرة من وراء كتفه ، التابوت والزلاجة والفتى بيض بالثلج ، لكن الفتى ما زال هناك . يغوص ينز في الثلج إلى ركبتيه ويفكر في سالفر . خذني ، أليس هذا ما تريدونه أنتم الرجال . نسيان هذه الكلمات صعب ، إنها تفوح منه دائمًا ، تنقض عليه ، تتهمه ؛ أفي وسعك أن تعيش من غير أن تخونني؟ همست مرة . كانت أمسية صيفية قبل ما يقل عن سنة مضت ، وهما مستلقيان بين الحشائش ، متواريان عن العالم ، وفي الأعلى فوقهما يتأفف طائر الطيطوى بلا انقطاع ، وهو صامت عادة ؛ الغيوم مائلة إلى الزرقة الرمادية ، تتخذ لنفسها أشكالاً ، والريح قد غفت في العشب ، وأنصاله لا تكاد تهتز ، فراشة أو أكثر طارت في الأجواء وتشربت اللحظات القصيرة التي مُنحت لها . رفرفت بأجنحتها الغامضة والناعمة كالحرير . رفعت سالفر ذراعها العارية بحذر ، ومدت إصبعًا فحطت عليه فراشة وجناحاها يرتعشان ، كما لو أن ذلك حدث بالسحر . قرّبت إصبعها من وجهه ، ببطء شديد حتى لا تخيف هذه المخلوقة الحية بجناحيها اللذين يشبهان الحلم . أهي جميلة؟ سألته . نعم ، تمتم وهو يحبس أنفاسه حتى لا تطير . لماذا تقول ذلك؟ لأنها جميلة كما أفترض . كيف ذلك؟ جناحاها ، قال وهو يدنو أقرب بعد أن استقرت الفراشة وكفت عن الارتعاش . ألا تشبه الحياة قليلاً؟ قالت سالفر بنبرة تأملية ؛ جميلة من بعيد ولكن عندما تقترب منها ترى أنها ليست إلا حشرة مجنّحة؟ نفخت على الفراشة وطيرتها بلطف من إصبعها وسألت ، بل همست ، كأنها لم تتجاسر على السؤال ، ربما لأنها خشيت الجواب ، أفي وسعك أن تعيش من غير أن تخونني؟ أخذ يديها بين يده ، نحّى الشّعر بعيدًا عن وجهها ، هذا الوجه الذي يعني له أكثر مما تعني

له السماء ، نحّى الشعر بعيدًا عن وجهها وقال : أفضل أن أموت على أن أخونك ، فبكت ، من السعادة ، أو لأنه من الأسهل كثيرًا على المرء أن يتكلم بدلاً من أن يحيا . رأت الخيانة داخلي ، يفكر ينز وهو يدفع نفسه خارج الثلج الذي طمره أعلى من حدود الركبة ؛ بكت لأنني صعلوك ، كما كان زوجها ، الخيانة بعد أول قطرة كحول ، ولست حتى بحاجة إلى مشروب كحولي لأفعل . يسحب الزلاجة بعنف ، بقوة كبيرة بحيث ترتج ويخر الفتى بوجهه على الثلج . ينخر هيالتي عندما يسرع ينز ، لكن يجاريه ، لا يريد أن يكون رجلاً أقل مستوى ؛ الذكور بدائيون ، وأفعالهم يمكن التنبؤ بها . لا يملك الفتى حيلة إلا مجاراتهما ، مع أنه لم يبلغ بعد مبلغ الرجال ، يجاهد خلفهما فترة طويلة من غير أن يدفع . لكن لماذا ، يفكر ينز ، لماذا أقصد مقهى سدوم؟ أذلك لأنني أستلطف القائمين عليه؟ أذلك لأنني أجد مارتا مسلية ، تعليقاتها وأفكارها؟ أذلك بسبب المشروب؟ في وسعي دائمًا أن أعاقر الكحول في مقهى غيرترود بل حتى يمكن أن أفعل ذلك في آخر الدنيا . أليس الأمر أولاً وأخيرًا النظر إلى مارتا ، لأشعر بالإثارة ، بالرغبة اللعينة ، كي أستطيع التفكير في حركاتها بينما أنا هنا على الجبال ، كي أستطيع التفكير فيها بينما أنا أقطع المروج؟ أنت تنظر إلي كثيرًا ، قالت مرة ، في ليلة من ليالي الصيف عندما تدلت الشمس صامتة ومؤرقة فوق سطح البحر . لم يجب ينز بشيء ، اكتفى بمعاقرة مزيد من المشروب ، أما هي فابتسمت ؛ انظر إذًا ، قالت ، ما دام هذا يسرّك ، أنا أيضًا سأكتفي بمبادلتك النظر ، أنت كبير بما يكفي .

ثم سمح للخادمة في فيبك أن تدلكه ، أن تستمر في التدليك والتمسيد مع أن معظم الصقيع انجلى عنه ، سمح لها أن تمسد جسمه وأن تحرك يدها صعودًا ، سمح لها أن تشاهد أي تأثير بدأ تمسيدها يفعله فيه . ألا يمكن أن أعيش من غير أن أخون ما هو الأهم بالنسبة لي؟ لا ، لا أستطيع ؛

وماذا يقول هذا عني إذًا؟ وكيف أنظر في عيني هالا عندما أعود إلى البيت، عينيها اللتين تنظران إلي كما لو أنني أفضل وأجمل شيء في العالم؟ لو أن في جسدي عصب واحد شريف، لقطعت خصيتي ورميتهما للكلاب!

إيه! إيه! ينجح هيالتي في إطلاق صوته بالصياح، هل الشيطان في أعقابك؟ يتباطأ ينز قليلاً، كان قد بدأ يهرول، مع أن هذا مستحيل هنا على وجه التحديد، بعد كل ذلك الخوض في الثلج، والفتى متشبث بالتابوت حتى لا يفقدهما، وعينان ميتتان تنظران إليه من خلال غطاء التابوت. إنه الليل! يصيح هيالتي. وماذا عنه؟ يعوي ينز في المقابل. لا شيء، ما عدا أننا يجب أن نستتر ونرتاح فترة. نستتر من أي شيء؟ من الجو اللعين، ماذا غيره؟ ليس هناك شيء من هذا القبيل، يجيب ينز بصوت خفيض جدًا إلى درجة أن الريح تمزق كلماته إربًا. وبعد مدة قصيرة، نصف ساعة، أو ساعة، يعثر هيالتي على مخبأ، يحرر المجرفة التي ربطها إلى الزلاجة ويوسّع المخبأ بجرف حفرة كالكهف في الثلج. نرتاح ساعة ثم نتابع رحلتنا، من المرجح أننا في منتصف الليل تقريبًا، يضيف. لماذا نرتاح؟ يزمجر ينز وهو يراقب هيالتي يدفع التابوت في قلب المساحة الضيقة، ويحشره هناك بقدر المستطاع. فيقول هيالتي: مضى علينا ونحن نجاهد ما يقارب خمس عشرة ساعة على الأقل، والمرء يحتاج إلى الراحة، إلى استعادة نشاطه.

*

يجلس هو والفتى ويستندان بظهريهما على التابوت. لا أحتاج إلى الراحة، يقول ينز، ومع ذلك يتخلص من حقائب البريد، يجلس، وفي الحال يشعر بإعياء ثقيل، يخرج مؤونة الطعام، فالمزيد منه لن يضر. كان ينز قد رفض أن يأخذ كل ما عرضه عليه بيارني؛ يحتاج الأطفال إلى الطعام، نحن سنتدبر أمرنا، قال بصدق؛ والآن هو على حافة الندم. تبًا، أليس لديك أكثر من

هذا؟ يهتف هيالتي . سيكفي ، يجيب ينز . فيغمغم هيالتي وقد قضى على حصته فورًا : اللعنة على الجحيم . يناوله الفتى جزءًا من حصته . أنا لست بضخامتك ، يقول ، بينما يسأله ينز : ألديك ما يشغلك غير الأكل؟ كنت جائعًا طوال عمري ، يجيب هيالتي ، فيخيم عليهم الصمت . جائع وظمآن ومقرور ، لكن من الجيد الآن أخذ قسط من الراحة . نعم لا بأس ، يقرّ ينز على نحو مفاجئ تمامًا ، فينظر إليه هيالتي ، ووجهه المفعم بالأخاديد سعيد بشكل طفولي من وراء قناعه الجليدي الذي ينهار إلى شظايا بين أصابعه شيئًا فشيئًا . لا بأس في أن يغني المرء أحيانًا ، يعلن بعد ذلك ، يبقيك هذا دافئًا ، المرء الذي يغني لا يداهمه النوم .

ينز : الغناء يضجرني .

هيالتي : تبًا .

تعوي الريح في الخارج ، تهتاج ، تنتظر نافذة الصبر خروج الرجال ثانية ليكون لديها ما تلهو به إلى جانب الثلج ، لا شيء هنا سوى جبال ، ويتطلب الأمر آلافًا عديدة من السنين لزحزحتها ، لربّما تحظى بثعلب بين حين وآخر أو بغراب ، لكن الحيوانات لا تسمح للريح أن تعاملها بالسوء الذي تعامل به البشر ، البشر الذين يغدون عزلاً أمامها من لحظة خروجهم من بيوتهم . ترسل الريح نحو الرجال الثلاثة نفثاتها ، تسوطهم وتسوط التابوت بندف الثلج الرخوة كأنها تتفقدهم ، أرحلتم أم متم؟ يحاول هيالتي أن ينصب جدارًا ليمنع الهبات الأقوى ، يبني بسرعة ، وما يفعله يأتي بنتيجة ، هذا تقريبًا كما لو أنهم تقهقروا إلى الوراء ، تراجعوا مسافة أطول ، يصبح زئير الريح أوهن ، تضعف هباتها ، ويرون بخار أنفاسهم ، يشعرون بسكينة تحط عليهم ، يشعرون أنهم على ما يرام تقريبًا ، يحدقون خارجًا برضا ، ويترك الفتى العنان لنفسه لتغفو ، يسمح للأحلام أن تكتسح الواقع . يشرد هيالتي وينز في المدى ، ينتقلان إلى عالم آخر ، ويغفو الفتى شيئًا فشيئًا وينسج

عباءة واقية حوله . يغمغم ، فمه نصف فاغر ، يريِّل قليلاً وبصاقه يتجمد على ذقنه . ينز هو أول من يعود إلى رشده ، بسبب تجربته وشخصيته . ثمة شيء خطأ إذا شعر المرء أنه على ما يرام في رحلة كهذه ؛ هذا حينما يكون المرء في خطر . ينفض عن نفسه فتور السكينة ، يفرد أصابعه الباردة في قفازه المتجمد ، يحرك أصابع قدميه المتخدرة ويرى الفتى ينزلق نحو النوم العميق والأحلام . في بادئ الأمر يغرق المرء في أحلام زرقاء ، وهي تتحول ببطء بالغ وبشكل مريح إلى موت أسود . يمكن أن تكون كل شيء في آن واحد ، جميلة وحزينة ، وفظيع أن يراقب المرء شخصًا يستولي عليه النوم ، أن يشهد تهدل قسمات الوجه ، يلتقط لمحة من اللاشعور ، من دنياه الداخلية التي يحاول طوال عمره إخفاءها أو نبذها أو استكشافها . يتردد ينز ، كأنه لا يجرؤ على وكز الفتى ؛ وهيالتي يحدق في الفراغ ولا يكاد يكون واعيًا . أخيرًا يتنهد ينز بهدوء ويدفع مرفقه بقوة نحو هيالتي الذي يعتدل في جلسته فورًا ويصيح ، اللعنة على الجحيم! يصرخ تقريبًا فتتقشر الأحلام من على الفتى . أشكرك يا رفيق ، يقول هيالتي لينز ؛ ما رحبت بالعنف قطّ ولكن أشكرك على وكزك لي ، أنا في الحقيقة غفوت وخيل إلي أنني رأيت آستا تقف هنا خارج الفتحة ، أشارت لي لأخرج ، شعرت كما لو أنني انطلقت ، وفي الوقت نفسه كنت أجلس ثابتًا . يلاقي الناس حتفهم بسهولة كبيرة هنا في الجبال ؛ يكفي فقط أن تطبق جفنيك ، لكن اللعنة على الجحيم سيكون جيدًا الآن أن نأكل شيئًا . شيئًا مناسبًا أعني . يمكن أن أقتل من أجل شريحة لحم عجل مدخن ، شريحة كبيرة منه . ألستما جائعين؟ في وسعي أن آكل خروفًا بأكمله .

إن لم يكونا خروفين ، يضيف الفتى . كُفَّا عن ذكر الطعام ، ينهرهما ينز ويزحف نحو الفتحة ، يخرج رأسه ليستكشف الوضع بيد أن الريح تحاول بتره له . لقد ازداد الجو سوءًا ، يقول وهو يبصق الثلج من فمه .

صعب أن يبقوا مستيقظين. أوصالهم ترتعد من الإعياء، ودماؤهم تفور به، ينتفضون بين حين وحين مثل الحيوانات ولا يقولون إلا القليل، أو لا يقولون شيئًا، أفكارهم مثل سمك بليد في ماء راكد، لا يتحرك إلا في ما ندر، ولا يكاد يخلف أثرًا. إذا فكروا، يفكرون في الطعام، ومن غير أن يدرك، بدأ الفتى يدندن بينه وبين نفسه، أغنية شعبية محلية، ينبغي أن يُعطى الأطفال الخبز، ليقضموه في عيد الميلاد، يدندن وهو يحملق ببلادة، ثم يصحو عندما ينضم إليه هيالتي مدندنًا اللحن الذي يشيع في النفس المسرة، بصوت خافت في البداية ثم لا يلبث أن يصدح به، فيملأ صوته الكهف الثلجي، قويًا وصافيًا ورقيق الظلال. يرفع الفتى صوته أيضًا، يغنيان أغاني ميلاد أخرى، يغنيان بصوت عال، يصرخان تقريبًا هناك في أعالي الجبال، داخل حفرة ثلجية، بعيدًا عن المساكن المأهولة، وسط رياح عازمة على قطع الرؤوس، مستندين على تابوت وهم في نهاية شهر نيسان. يصبح غناؤهما حماسيًا جدًا، طريفًا جدًا، ومشوشًا جدًا بحيث ينضم إليهما ينز لا شعوريًا في نقطة ما، يدندن معهما، يسحره اللحن الأخّاذ، ثم لا يلبث أن يتوقف، يكتفي بالاستماع ولا يعترض. يغنيان، وينسون جوعهم في هذه الأثناء. يغنيان جميع أغاني الميلاد التي تخطر على بالهما. ثم يضطر هيالتي إلى التبول. يستنشق الفتى الهواء بعمق، يمتصه ويشم رائحة دخان. في بادئ الأمر يظن أن ذكرياته عن اللحم المدخن في الميلاد هي قوية جدًا إلى درجة أنه يستشف الرائحة، ثم يبدأ في تشمم الهواء من حوله مثل كلب. يحرك رأسه في نصف دائرة ويشم. أتشمان رائحة دخان؟ يسألهما، أعني أتفوح من هنا رائحة تشبه رائحة الدخان؟ تشبه رائحة الدخان، هنا في الأعلى؟ هراء! يقول هيالتي الذي ينهي إفراغ مبولته ويبدأ في تشمم الهواء، وكذلك يفعل ينز. اللعنة، يهمس ينز وينهض بسرعة وقد شحب لونه قليلاً، بينما يضغط هيالتي أنفه بالتابوت، ويتمتم وعيناه مغمضتان: على

الشيطان اللعنة، إنها رائحة لحم مدخن فعلاً. يوسّع فتحتي أنفه وفمه نصف مفتوح، تقرقر معدته ويتحرك بقدر ما يستطيع بعيدًا عن التابوت، وهذا ليس ببعيد كثيرًا في تلك المساحة الضيقة. يحاول ينز والفتى أن يتنحّيا جانبًا، يقحم ساعي البريد كفيه بالجدار الثلجي فينهار شيء منه عليه وعلى هيالتي الذي يكيل سيلاً من الشتائم واللعنات. كيل الشتائم مفيد وصحي للإنسان، صحي كالصلاة تقريبًا وأحيانًا أفضل بكثير. يغمض الفتى عينيه وفي الوقت نفسه يسمع ضحكة رقيقة وباردة وهازئة في رأسه؛ هل أنت جائع؟ يسأله الصوت، بينما يقول ينز: من غير الجيد أن نكون هنا. لكن هيالتي يهتف: هذا أفضل من الرحيل. تبًا للعاصفة، يشتم الفتى.

إنه الليل خارج الكهف الثلجي.

يتأرجح الفتى في جلسته برتابة، يستحضر مقاطع من الشعر والحكايات، يوسّع ينز فتحة الملجأ عندما تشتد الرائحة الدخانية سامحًا للريح بالدخول، وهذا ما تسارع الريح إلى فعله، وفي الحال يكسوهم الثلج بالبياض. يضيّق ينز الفتحة؛ فتحمّل الرائحة أفضل من تحمّل سياط الثلج. لم أكن مع امرأة منذ ثلاث سنوات، يقول هيالتي. غدًا، لا، بالأحرى نحن في اليوم الآن؛ يكون قد مضى على ذلك مئة وأحد عشر يومًا بالضبط.

ينز: مئة وأحد عشر يومًا.

هيالتي: هذا سيئ لرجل سليم الجسم. أنا على حافة التطلع إلى النعاج.

أين فعلت ذلك آخر مرة؟ يسأله ينز. الآن يتكلم، يفكر الفتى، الآن، بينما هو لا يعرف ما الملائم قوله في هذا المقام.

هيالتي: في سلياتريه؛ حيث نحن ذاهبون. مع بوثيلدر المباركة،

خادمة تعمل لدى طبيب وزوجته ، اللعنة ، فعلناها كالوحوش . كأننا أردنا التهام بعضنا بعضًا . يا لها من ملاك ، تلك المرأة . قوية كالثور ، جميلة مثل طائر من طيور الصيف .

أرأيتها مذ ذاك؟ يسأل الفتى .

هيالتي : نعم ، السنة الماضية . إنما بسرعة وبصحبة آخرين .

الفتى : وبعد؟

هيالتي : لا شيء ، وهكذا ينبغي أن تجري الأمور ؛ لا يمكن أن تتعدى ذلك .

لماذا؟ يسأل الفتى متفاجئًا .

أنت يافع جدًا ، يقول هيالتي . وأنا لا شيء لدي باستثناء هاتين اليدين ، ولا ينبغي أن أعاقر الكحول ، لأنني حينها أنقلب إلى وغد حقير ؛ ويمكن أن أحطمها وأحطم نفسي . الاحتفاظ بذكريات طيبة أفضل من تدميرها عن طريق التعمق في التعارف .

يزحف ينز إلى الأمام ليتعامل مع الفتحة ؛ يستغرق وقتًا . هم مقرورون . مضى وقت طويل منذ أن ذاب الجليد عنهم وتحول إلى قشعريرة . يتحركون ليبقوا دافئين بقدر المستطاع في المساحة الضيقة ويستنشقون الرائحة الدخانية القوية المنبعثة من التابوت . ينسى الفتى وهيالتي أين هما ويعودان إلى دندنة أغاني الميلاد ؛ يبدأ أحدهما وينضم إليه الآخر فورًا ، وأحيانًا يغنيان أغنية من مطلعها إلى خاتمتها ، بل حتى يرفعان صوتيهما تاركين الأنغام تُحمل إلى العاصفة التي تمزقها إربًا . لا يعترض ينز ، يكتفي بالتحديق بوجه متجهم . كعك الميلاد بالزبيب ، يقول هيالتي بعد أن ينتهيا من ترديد أنشودة : ينبغي أن يعطى الأطفال خبزًا للمرة الخامسة أو السادسة على التوالي .

الفتى : كعك مقلي .

هيالتي : عصيدة بالحليب المحلّى . وشموع .

ينز : لحم مدخن .

هيالتي : ها أنت ذا! لحم مدخن وشموع يا رفاق . تلك نعمة . يجب ألا يتذمر المرء ، بل يقنع بأن يحيا . بيد أنني عشت حياة فقر مدقع . في طفولتي لطالما رفستني الأقدار هنا وهناك ، لم يُرحّب بي في أي مكان ، لم أعش حياة طيبة إلا في رعاية آستا المباركة ، مع أن ذلك ليس بسبب اليسر والرخاء ؛ الحياة هنا قاسية ، يجب أن تريا الأمواج تهتاج وتصطخب على المنحدرات ، والأرض تزلزل تحت البيت وشجاعة المرء تتبدد داخله . وبعد ذلك تأتي فصول الصيف وهي لا شيء سوى أمطار خفيفة وضباب ، لسنتين ، لم تشرق الشمس إلا يومين في الصيف ، وخلالهما كانت هناك رياح عاصفة ، وما عداهما أمطار خفيفة لا نهائية والعلف كله فسد تقريبًا ؛ والشتاء التالي جاء عاتيًا ، ومع قدوم الربيع لم يكن قد تبقى لدينا شيء يؤكل . ويضطر المرء إلى قضم أصابعه مقابل أن يعطي الأطفال حصصهم من الطعام . فظيع سماع طفل يبكي من الجوع ، هذا مثل أن يُذبح المرء وهو حيّ . وأخيرا ما عاد بيارني يجرؤ على تلاوة الصلاة لأن بيتا الصغيرة باتت تشرع في البكاء كلما وصل إلى مقطع «أعطنا خبزنا كفاف يومنا» . مع ذلك ، لطالما كانت الحياة هناك طيبة ، إنه سقف فوق رؤوسنا ، وأبعد ما يكون عن معاقرة الكحول . عشت هناك خمس سنوات وما شربت إلا مرتين فقط ، وآخر مرة فعلت كدت أقتل بيارني ؛ أترياں ما أنا ، يقول وهو ينظر إلى الفتى ، ويتململ ينز في قعدته ، كما لو أن تململه ناجم عن نفاد صبر عظيم .

يحاول الفتى أن يتنفس من فمه المفتوح ، وبالتالي يتجنب استنشاق رائحة الدخان ورائحة المرأة الميتة . من زاوية عينه يرى وجه هيالتي غير المصقول ، يرى العينين الزرقاوين اللتين تحملقان في الفراغ ، وتعبير الوجه الذي يشبه جرحًا يفتح ويغلق . ثم يهز هيالتي رأسه ويتابع : أنا لا أستلطف

من أقابله أثناء معاقرتي الكحول، مطلقًا، لا أستوعب من أين جاء، لا أستوعب لماذا لا أستطيع التعامل معه. ماذا عن والديك؟ يسأله الفتى.

هيالتي: ماذا عنهما؟

الفتى: قلت إنك كنت تُطرد من مكان إلى آخر.

ينز: حياة الناس تخصهم وحدهم.

الفتى: سألت فقط؛ أحيانًا يسأل الناس.

ينز: أنت لا تسأل أحيانًا؛ بل تسأل في أغلب الأحيان. ماذا تعتقد أنك ستكتشف؟

هيالتي: لا حاجة إلى تأجيج النار يا رفاق، كان مجرد سؤال، ويجاب بسهولة. أنا لا أعرف شيئًا عنهما. ولدت، ولبطتني الأقدار من مزرعة إلى مزرعة، من حفرة ملعونة إلى أخرى. شتاء هنا، والشتاء التالي هناك، بيد أن أطول مدة قضيتها كانت في مزرعة جيل، الاسم الذي لن أنساه أبدًا حتى أستطيع أن أبصق عليه لحظة يحين أجلي. مكثت هناك ست سنوات، منذ أن كنت في الثامنة من العمر، ثم طردني المزارع عندما بدأ يخشاني. عندما بلغت ثلاث عشرة سنة كنت بحجم عملاق، شيء لعين غامض أن أكون قادرًا على النمو بأي حال من الأحوال، لا بد من أن ذلك يعود إلى عنادي الضاري. الشيء الوحيد الذي تمنيته هو أن أصبح ضخمًا لأنتقم من أولئك الذين طردوني، وقد حصلت على أمنيتي، ولا أدري أينبغي أن أشكر القدير أو الشيطان على ذلك. اسم المزارع في جيل يوسف واسم زوجته ماريا، مثل والدي المسيح، الوجود يمكن أن يكون هزليًا هكذا يا رفاق. ما زالا حيين على حدّ علمي، فأنا أسأل عنهما أحيانًا، أن يكره المرء الأحياء أسهل في الحقيقة من أن يكره الأموات. يوسف ذاك مهرج حقيقي، وغالبًا ما سخر من خوفي من الظلام؛ وأنا طفل رأيت أشباحًا ومختلف أنواع الرعب في كل زاوية. كان يحب الاقتراب مني خلسة في الظلام والتنفس

بشدة من وراء ظهري . وفي المساء قبل أن يرسلني لأنام في مدخل البيت يروي لي قصصًا مروعة . في مدخل البيت؟ يستفسر ينز . فيجيب هيالتي ، كانت مزرعة جيل مكتظة بالناس ، الغرفة العائلية مكتظة ، وقلوبهم مكتظة ؛ ولذلك جعلوني أنام خارجًا في الممر ، في ركن منعزل عند الباب الرئيس ، مع كومة خرق من ملابس بالية لأستخدمها كالغطاء . في بادئ الأمر خفت من الكلب اللعين بقدر خوفي من الأشباح ؛ كان مخلوقًا ضخمًا وأسود وشرسًا ، بيد أننا تآلفنا بعد عدة ليال ، وذاك على الأرجح ما أنقذ حياتي البائسة ؛ ولولا ذلك الكلب لكنت بكل بساطة مت من الجوع والبرد والخوف . كان صديقي المقرب ، الرفيق والمنقذ . ولهذا أدركت ما يجب عمله عندما ماتت أستا واضطر ساكارياس المسكين إلى اختبار قسوة الحياة . كان اسم الكلب بلاكي ، لكنني سميته ترستي أي موضع ثقتي ، وهذا هو الاسم الذي فضل دائمًا الاستجابة إليه . إلا أنكما تعرفان كيف تسير الأمور ؛ ينبغي أن يذهب شخص ما في الرابعة أو الخامسة صباحًا في فصول الصيف لجلب الخراف . ذلك الشخص كان أنا دائمًا ، أذهب بقدمين مبللتين في صقيع الصباح ، ولا شيء آكله قبل أن أنهي مهامي ، وحينها تعطيني ماريا النذر اليسير من الطعام وتقول ، أنت لن تلتهم كل ما في البيت ، ولا تعطيني إلا حصصًا ضئيلة دائمًا ؛ كنت جائعًا طوال فترة صباي وما زلت منذ ذلك الحين جائعًا ، ولا يمكن أبدًا أن أنال كفايتي من الطعام . حسنًا ، تلك ما زالت أفضل اللحظات ، أنا وترستي وحدنا في الخارج في الصباح الباكر وأحيانًا في جو جميل . في تلك الأويقات كنا سعيدين ، ونحن وحدنا فقط مع العشب والجداول وتغريد الطيور ، وأحيانًا كنت أسهو عن الوقت فأتلقى بضع صفعات لتأخري . ليس من قبيل الأذى الخالص بقدر ما هو من قبيل السفاهة ، إذ لا شيء جال في أذهانهم ما عدا ذلك . مع ذلك كان الأسوأ من كل شيء جلب الماء في الشتاء ، للعائلة وللماشية ،

سبع أو ثمان رحلات كل صباح ؛ وفي ذاكرتي هناك ريح شمالية أبدية ودلوان خشبيان ، دلوان ثقيلان ومدججان بالجليد . وكان الماء عادة يخضلني مع كل خطوة أخطوها . ومرة سقطت صريع المرض من هذا العمل ، وأنا في التاسعة أو العاشرة من عمري ، وبت أشبه بالميت . سيموت الصبي ، سمعت في هذياني شخصًا يقول ، وكنت نوعًا ما راضيًا بذلك ، فقد توقعت عبورًا سهلاً إلى السماء وأنا ما زلت بريئًا من الشرور ، الشيء الوحيد الذي ضايقني هو عدم اصطحاب ترستي معي ؛ فهو وأنا كان يمكن أن نكون مثاليين في رعي خراف الجنة . ثم في أحد الأيام في لحظة وعي قصيرة ، رأيت تابوتًا ينتصب قريبًا مني تمامًا ؛ نور السكينة المبارك ذاك ، كان لدى يوسف عمل في البلدة ، واستغل الفرصة ليجلب معه تابوتًا لي . ثمّ ، لسوء الحظ ، شعرت بشيء من الحقد ، وأتذكر أنني قلت لنفسي قبل أن يبتلعني الهذيان من جديد ، ستعلق أنت مع تابوتك اللعين! وآنذاك بالضبط فقدت براءتي ، على ما أظن ، أنقذ حقدي حياتي وقتل براءتي ؛ قوي عزمي واستعدت عافيتي تمامًا بعد بضعة أيام فقط . وبالتالي خلفت لهم ذلك التابوت الفاخر ؛ على الرغم من أنني أرغمت على النوم فيه عدة أسابيع حتى تكون له فائدة ، أو إلى أن انتشر الخبر ، والجيران الذين لم يكونوا وحوشًا كالزوجين التوراتيين المباركين ، هددوا بتقديم شكوى ضدهما بسبب معاملتهما السيئة لي . حسنًا ، ذاك هو ذاك . ولذلك أنا معتاد على مثل هذه الأسرّة ، يقول وهو يخبط التابوت المستقر وراءهم برفق . أعرفها جيدًا . إذا عانيت صعوبة في الاستيقاظ ، ولم أسارع في الوقوف على قدمي ، يخبط يوسف غطاء التابوت ليغلقه ويجلس عليه . حينها أغمض عيني وأعرف ما هي الحال في أن يكون المرء ميتًا .

١٣

في مكان ما تنبثق الشمس مخترقة العاصفة . في مكان ما يستيقظ الناس على صباح يجلل السماء الشرقية ، في مكان ما السماء مستوية في سكونها ، والجو على الأرض هادئ ؛ في مكان ما هناك أماكن يمكن أن يتنفس فيها المرء بلا جهد ، وفي وسع البشر الخروج والتثاؤب أمام جدار ما ، ليتبولوا من غير أن يخاطروا بحياتهم أو تقذفهم الريح . هناك الكثير من الأشياء الجميلة والغريبة في هذه الدنيا . إلا أن هؤلاء الثلاثة لا يرون أي سماء ؛ ولا يكادون يرون الأرض ، والاضطرار إلى التبول جدّ مدمر للأعصاب ، والاضطرار إلى تعرية مثل ذلك العضو الحساس في الصقيع هو أمر تعجيزي تقريبًا ، ناهيك عن الوقوف بقامة منتصبة وبثبات وقتًا كافيًا . ثم مع الصباح تأتي الرحمة ؛ يتسنى لهم فجأة أن يلقوا نظرة على مشهد الأرض من حولهم ، على منحدرات الجبل ، على تجاويفه ؛ في حوالي الساعة التاسعة تراجعت العاصفة كثيرًا بحيث أن رجلاً متوسط الحجم يجد أنه يستطيع الوقوف منتصب القامة بشيء من السهولة . لا يمكن القول إنهم كوّنوا صورة متكاملة للمشهد ، بل ذاك أقرب إلى مجرد لمحة خاطفة لكنها كانت كافية بالنسبة إلى هيالتي الذي يستعيد رباطة جأشه ويفلح في أن يهتف : نعم ، نحن هنا . وبالتالي يشعرون أن كل شيء أصبح أخف وطأة ، وأن العالم كفّ عن أن يكون عدائيًا . علينا أن نتجه أكثر قليلاً نحو الشمال ، يقول هيالتي . وإلى هناك يتجهون ، ييممون شمالاً ، ولو أنهم ما كانوا منهكين ومتعبين وجياعًا وظمآنين ، وليسوا مسؤولين عن امرأة ميتة تفوح منها رائحة لحم مدخن وروح

الميلاد، لغدا ذلك أمرًا مقبولاً، ولأمكنهم أن يغنوا ويفكروا في أشياء جميلة. إنما لسبب ما يصبح التابوت أثقل بكثير من ذي قبل، الموت يصبح أثقل مع كل خطوة يخطوها الإنسان، هكذا يقال في مكان ما، وهؤلاء الرجال الثلاثة يوافقون من أعماق قلوبهم على تلك المقولة. هما الاثنان يساويان بالتأكيد خمسة رجال، يفكر الفتى وهو يدفع التابوت، وبين تارة وأخرى يلتقط أنفه نفحة دخان، لكن على الرغم من ذلك ما زال الوضع هنا كئيبًا تحت السماء الواسعة.

لم يتجاسروا على الانتظار مدة أطول في الكهف الثلجي، كانت الرائحة تصيبهم بالجنون، والنوم يهزمهم، وصدّه جحيم قاتل، وحتى ينز شهق طلبًا للنفس في الريح القارسة وهم يسحبون التابوت إلى الخارج. كانت الساعة الأولى دامسة الظلام؛ تعثروا في طريقهم من غير أن يصلوا إلى أي مكان، ولا كانوا يتجهون نحو أي مكان، حاولوا فقط التركيز على ألا تقذفهم الريح، على أن يبقوا على أقدامهم، ولا يفقد أحدهم الآخر ولا يفقدوا التابوت، ثم ما لبثت أن هدأت سورة العاصفة قليلاً، وانفرجت السماء للحظة، وأمكن هيالتي أن يقول تلك الكلمات المباركة، نعم، نحن هنا. وتابعوا السير، أربعة أفراد، ثلاثة أحياء ورابعهم امرأة ميتة، أليس ذلك مآلاً حسنًا نوعًا ما؟ أكان الظهر يقترب؟ منتصف النهار؟ أم تراها هي ليلة أخرى تهبط عليهم؟ يمضون خطوة فخطوة وسرورهم بكلمات هيالتي يبهت؛ يسحبون ويدفعون ويغوصون ويشهقون ويلهثون وشفاه هيالتي وينز المطوقة بشاربيهما ولحيتيهما تتجمد، والفتى عاجز عن الإحساس بأي شيء ما عدا عينيه. تختفي منحدرات الجبل مرة أخرى؛ والثلج العاصف يحول العالم من جديد إلى ظلام، تتفاقم سرعة الريح، وتندفع عليهم مباشرة، المساء يقترب والفتى يغمض عينيه، وقدرته على الرؤية تعتم من شدة الإعياء. السعادة لا يمكن أن تدوم، تقول المرأة في رأسه، لكن المرارة يمكن أن

تدوم مدة طويلة وهي أكثر إخلاصًا لك، لا تهجرك؛ الحب يتداعى والكراهية تصمد. غير صحيح، يعترض الفتى. ما هو غير الصحيح؟ الحب هو... ماذا تعرف عن الحب يا فتى؟ تقاطعه؛ ماذا أحببت وأين هي تلك الأيام، أين السنين التي مرت على حبك هذا، ومن تحب؟ أمي، يريد أن يقول، أبي وليليا وباردور، لكنه لا يفعل لأنهم كلهم موتى. ينسى أن آستا هي في داخل رأسه، ولا شيء يخفى عليها وضحكتها باردة؛ طبعًا أنت لا تحب إلا الأموات؛ لماذا برأيك إذًا تتكلم معي؟ الأفضل كله موجود في هذا الجانب. لا تقاوم؛ أو هل يمكن أن تقدم لك الحياة ما يحويه الموت؟ أتحرقك الحقيقة؟ تسأل بينما يفتح عينيه على وسعهما، يجاهد ليفتحهما ليتخلّص منها، والعاصفة التي بدا أنها قد نأت، تطبق عليه ثانية بكل عتوها. الآن يمكنني مخاطبتك دائمًا، تقول، وهذا صحيح على الأرجح، فعيناه مفتوحتان ومع ذلك ما زال يسمعها. يلتقط لمحة خاطفة من هيالتي وينز أمام التابوت. سيتنفسان الصعداء إذا تخلصا منك، تقول له، أنت عبء عليهما، أنت ضعيف، هما قويان وذاك الـ ينز مضى عليه وقت طويل منذ أن سئم منك. يحاول الفتى التفكير في راغينهيلد، ينشد بالغريزة ما هو نقيض الموت، حرارة الدم والرغبة والعشق. يفكر في الحلوى التي حشرتها في فمه، لامعة برضابها، يفكر في الدفء عندما التصقت به هنيهة في الفندق، يفكر في كتفيها اللذين ببياض ضوء القمر، بشفتيها الطريتين بالنداوة... أتسمي ذلك حبًا؟ يسأل الصوت في رأسه. نعم، هو حبّ، هو بالتأكيد حبّ، ماذا تعرفين أنت، أنت ميتة. لماذا إذًا تفكر في المرأة التي في حوض الاستحمام؟ أنا لا أفعل. قطرات الماء على نهديها، نعم بالتأكيد تفعل، وهي أكبر منك بكثير. أتحب النساء الكبيرات في السن؟ أنا كبيرة، ويمكنك أن تحصل علي. أنتِ قاسية. هراء، أنا ميتة فقط، تمامًا مثل أولئك الذين تحب وتفتقد وتفكر فيهم بلا انقطاع أكثر من أي شيء فيه حياة.

أمامك فرصة الآن لتنضم إليهم ، عليك فقط أن تبقى معي لحظة أولاً ، استلق إلى جانبي . ألا تريد الخروج من هذه العاصفة ، أليس من المتعب أن تشعر دائمًا بهذا الصقيع ، بهذا الإعياء ، بهذا الجوع وبهذا الظمأ وما زالت أمامك على الأقل أربع وعشرون ساعة ، ذاك وقت أطول من أن يطاق ، ثم أليس من المتعب الشعور بسوداوية الحياة هذه ، أن تستيقظ كل صباح وتضطر إلى تحمّل الحسرة ؛ أنت تنتمي إلى الأموات لا الأحياء ، وبيتك معنا ، لا تخن أولئك الذين تحب ، استلق ، أغمض عينيك ، سأستلقي إلى جانبك ، سأستلقي معك ، سنستلقي معًا وعندما تفتح عينيك مجددًا سيكون كل شيء على ما يرام .

١٤

لا أعرف لماذا نظرتُ إلى الوراء ، يقول هيالتي بينما هم جاثمون يحتمون من العاصفة بظلّ التابوت ، وقد قام شبيها العمالقة للتو بانتشاله خارج الثلج . وذلك بعد أن فعل الفتى ما أملته عليه آستا وانبطح أرضًا ؛ كان في طريقه إلى عالم جميل وبنعومة الريش عندما نشلاه ، صاحا بكلام ما ، زعقا ، انتزعاه من الطراوة والجمال وأعاداه إلى هذه الحياة البغيضة والقرّ اللعين ، وقد سدد إليهما ضرباته بقدر ما يستطيع من قوة ، بيد أن ضرباته أخطأت الهدف ، وسيطر عليه هذان الرجلان الضخمان بسهولة محرجة بينما بدأ يعود إلى رشده . لا ، لا أعرف لماذا نظرت إلى الوراء ، يقول هيالتي ، فالنظر إلى الأمام صعب بما يكفي ، ناهيك عن الالتفات برأسي ، فهذه الكتلة اللعينة من الجليد متصلبة وملتصقة بثيابي ، وعلي أن ألتفت بكامل جسمي لأرى ماذا يوجد خلفي ، لكن لعل لديك ملاكًا حارسًا يرعاك لأنني عندما التفت اكتشفت أنك قد اختفيت ، كنّا نسحب التابوت فقط وأنت لست في أي مكان تقع عليه العين . بضع خطوات أخرى ونكون قد أصبحنا أبعد من أن نعثر عليك ؛ هنا أي شيء يسقط أرضًا يختفى ويُفقد ، يختفي ويموت .

يخرج ينز قرن سعوط ، يمد يده تحت سترة الفراء ويخرج هذا المجد السماوي ، كما فضّل هيالتي أن يسميه . أكان معك طوال هذا الوقت أيها اللقيط؟! نعم ، لحالات الطوارئ ، يجيب ينز ؛ ويتنشق منه كمية قليلة في كلتا فتحتي أنفه ، وكذلك يفعل هيالتي ، يتنهدان بسعادة ويأمران الفتى أن يفعل مثلهما ، يأمرانه بطريقة لا يستطيع معها أن يتفادى ذلك . أما جربت

السعوط من قبل قطّ؟ يسأله هيالتي المصدوم عندما يرى طريقة الفتى الخرقاء في التعامل مع قرن السعوط ، وبعد ذلك يعطس مرارًا وتكرارًا على مدى دقيقتين أو ثلاث دقائق . لا شيء أفضل من هذا لإيقاظك ، يعلن ينز قبل أن يعيد القرن إلى مكانه . ويقول هيالتي المبتهج من السعوط ، وهو يخبط ظهر ساعي البريد : القدير هو من خلقك بالفعل . يضطرون إلى رفع أصواتهم ، الستار الذي يحتمون به هزيل والريح تهتاج حولهم ، لكن التابوت يؤمّن لهم حماية كافية ليجثموا هناك طلبًا لبعض الراحة من العاصفة ، هذا الوحش الشفاف .

ينز : كم تبقى أمامنا باعتقادك؟

هيالتي : اللعنة إن كنت أعرف . ساعتين ، عشرين ساعة ، ما يهم أكثر هو البقاء على قيد الحياة ، ومع التبغ في عروقنا كل شيء ممكن ، كم تبقى لديك؟

ينز : ما يكفي شمّة أخرى لكل شخص .

الفتى : أفضّل أن أموت على أن آخذ شمة أخرى من تلك المادة البغيضة .

هيالتي : هذا ما يعجبني ، هكذا ينبغي أن يتكلم الرجال . عندئذ نعرف أنهم أحياء! أما الآن فعلينا ان نجلس هنا قليلاً ونستفيد من غطاء آستا .

الفتى : غطاء لعين لا يمكن الوثوق به .

هيالتي : بقدر ما يتعلق الأمر بآستا لا شيء أبدًا غير أهل للثقة . وأنا قد بدأت أدرك شيئًا فشيئًا أن هناك استحالة في أن يعيش المرء في هذه الأرض البائسة بلا زوجة ، زوجة مثل آستا ؛ وإلا فأنت وحيد ، وكل من هو وحيد عرضة للذبول .

ينز : الذبول؟

هيالتي : في طرفة عين ، ثم يتطاير كالغبار . وأي نوع من الوجود هو ذاك ، على أي حال؟

ينز : بائس ، على ما أعتقد .

ينظر الفتى إلى الرجلين الشبيهين بالعمالقة اللذين أنقذاه ، انتشلاه من حضن فراش الموت الوثير ، تمامًا قبل أن يتيبس ويتجمد . من المستحيل تمييزهما ، وقد جللهما بياض الثلج والجليد ؛ الشيء البشري الوحيد فيهما هو عيونهما ، العيون التي لا تتجمد ما دام المرء حيًا . يجثمون ، ثلاثتهم ، يحاولون أن يجعلوا أجسامهم أصغر ليستفيدوا من الغطاء على نحو أفضل ، يلتصق كل منهم بالآخر ، يجلسون في نصف دائرة تقريبًا وينظرون إلى الأسفل بين سيقانهم ، إلى الأسفل حيث الثلج . إنه لأمر حسن أن يجثم المرء ويشعر بحضور الشخص الآخر إلى جانبه ، يشعر بحضور الحياة تحت غطاء الموت . ينز ، يهتف الفتى . يردّد الاسم فقط ، ومع أن ينز يجيب «نعم» على كره منه ، إلا أنه يجيب فالرحلة قاربت بينهما إلى هذه الدرجة . أنت لست وحدك . لا . أعني لديك امرأة . ما اسمها؟ يسأل هيالتي عندما لا يقول ينز شيئًا . يهتزون تحت وطأة الريح ، يستسلمون لنصف إغفاءة ، وكان هيالتي والفتى قد نسيا السؤال تقريبًا عندما يقول ينز ، سالفر ، يوجّه حديثه إلى الثلج ، حيث ينظر ، كحال رفيقيه ، ولا يرفع أحد عينيه . سالفر ، يكرر هيالتي عندما يدرك من أين نبع الجواب ؛ إنه . . . أنتما لا تعيشان معًا؟ لا ، لم نصل إلى هذا الحد . أنت تعيش وحدك إذًا؟ نعم ، لا ، مع أبي وأختي . هالا ، يقول الفتى ، يحاول استرجاع الاسم وهو غير متأكد ، لكن ينز يهز رأسه إيجابًا .

هيالتي : ولماذا لا تعيش معها؟

تقرأني مثل كتاب مفتوح ، يقول ينز .

هيالتي : نعم ، هذا يمكن أن يكون صعبًا .

ينز : كانت متزوجة .

هيالتي : كانت ، إنها كلمة جيدة في هذا السياق ؛ كلمة واعدة .

ينز : قتلت زوجها .

هيالتي : تبًا .

ينز : حرقته هو والبيت .

هيالتي : هذا طبعًا . . .أسوأ .

ينز : نعم .

هيالتي : لكنّه على الأرجح سبّب ذلك لنفسه ؛ ألم يكن رجلاً قاسيًا؟

ينز : وحش عنيف في البيت ، ضربها وأذلها ، حتى الأطفال كانوا يخافون منه ، خصوصًا وهو مخمور .

هيالتي : المشروب الكحولي من اختراع الشيطان .

ينز : وغالبًا ما كان مخمورًا وهو في البيت . نادرًا ما كان صاحيًا في سنواته الأخيرة .

هيالتي : أين كان ، بالمناسبة ، في البحر؟

ينز : لا ، كان شخصًا خارجًا عن المألوف ، درج على التجول في الأنحاء وتسلية الناس بالقصص وما يشبهها . رجل شعبي ، ساحر ، كما أعتقد ، بيد أنه كان يتحول إلى وحش عندما يعود إلى البيت . وفي إحدى الليالي ، بعد أن أوسعها ضربًا وأذلها بأبشع طريقة يمكن تخيلها ، أشعلت سالفر النار في البيت وأحرقته . لاذت بالفرار مع طفليها إلى أقرب مزرعة ، وبقيت هناك منذ ذلك الحين . حدث هذا قبل خمس عشرة سنة . في الشتاء ، في عزّ البرد . مسيرة ثلاث ساعات بين مزرعة وأخرى والطفل الأصغر لم يتحمل الرحلة ؛ وإلى اليوم لم تسامح نفسها .

هيالتي : فعلت ما فعلته لتنقذ نفسها وتنقذ حياة طفليها ، وذاك شيء مقدس . كان موسومًا بعلامة الشيطان ، الأمر ليس أكثر تعقيدًا من ذلك .

ينز : لكنّها فشلت ، لم ينج الطفل الأصغر من الرحلة ومن البرد . وأكبر أطفالها ، البنت ، نُقلت فورًا إلى مزرعة أخرى ، لا تبعد عنها كثيرًا ولكن بعيدة بما يكفي . المسؤول عن سالفر حال دون محاكمتها ، ومع ذلك ما زال هناك أناس يعتبرونها مجرمة . لم تر ابنتها منذ ثلاث سنوات ، كما أعرف ؛ بل حتى نُقلت مرة ثانية إلى مكان أبعد . إلى منطقة أخرى وإلى جالية مختلفة .

هيالتي : ألا تعرف أين؟

ينز : لا فكرة لدي . أنا لا أعرف اسمها حتى .

هيالتي : وماذا يعترض طريقك؟

ينز : هي لا تريد إخباري .

هيالتي : تبًا يا رجل ؛ أعني بالنسبة إلى كونكما لا تعيشان معًا؟

ينز : تقول إنها لا تريد خيانة أرباب العمل بالرحيل . بعد كل ما فعلوه من أجلها .

هيالتي : أن تكون ممتنًا شيء ، وأن تضحي بنفسك شيء آخر .

ينز : أعتقد أيضًا أنّه مجرد عذر . وأنا أتفهمها جيدًا . أنا لست أهلاً للثقة . هذه حقيقة . أمثالي من الناس موسومون بعضة الشيطان ؛ هم عاجزون عن السيطرة على أنفسهم .

تكاد الريح تطير الفتى ولكنه ينجح في التمسك بينز : عضة الشيطان؟ أنت لم تهجر هالا أو أباك ؛ هذا شيء يحتسب ، لا بدّ من أنه شيء يحتسب!

ينز : كان زوجها يعاقر الخمر كالوحش . الخمر غيرته وحولته إلى وحش .

هيالتي : أحيانا أعتقد أن الشيطان قد بصق في جميع قناني الخمر في العالم .

ينز : ربّما . أنا أخذل الناس عندما أشرب .

هيالتي : هل رأتك وأنت مخمور؟

ينز : لا تحتاج إلى ذلك ، هي تقرأني مثل كتاب . ولذلك لا تثق بي . ليس أكثر مما أثق بنفسي . ليس هناك ما هو أبشع من أن يضرب المرء زوجته ؛ يجب أن تقطع يدا أي رجل يفعل هذا . مع ذلك ، أأضمن ما يمكن أن أفعله بعد خمس سنوات ، بعد عشر سنوات؟ أيمكن أن أثق بيدي؟

ينظر إلى يديه كما لو أنّه يبحث عن جواب ، بيد أنهما مختفيتان في قفازيهما ، وبالتالي لا تبوحان بشيء .

هيالتي : نحن عالقون في وسط عاصفة شنيعة ، شيطانية صرف ، ومن غير المؤكد أن ننهي الرحلة وكلنا أحياء ، ثلاثة أفراد أحياء وامرأة ميتة ، أليست هذه نسبة أروع من أن تُصدق؟ لكن أنت يا أخي ، تحتاج إلى أن تنهي الرحلة حيًا ، وأن تهزم العاصفة المظلمة داخلك ؛ تلك هي معركتك ، إنها معركة انخراطك في صراع الحياة والموت الخاص بك . أحسب أن فرص الهزيمة والنصر متساويان . إذا لم تفعل شيئًا ، لا فرصة لديك للانتصار . إذا لم تفعل شيئًا تخون أولئك الذين يهمك أمرهم ، وعلى الأرجح تخون الحياة بحد ذاتها ، هذا على الرغم من أنني لا أعرف شيئًا عن ذلك . أنت محظوظ ، ربّما لست مباركًا ، لا ، لا على الإطلاق ، بل أنت محظوظ ؛ القدر يمنحك فرصة! ولهذا ينبغي أن تنجح في العودة إلى منطقة الحضارة ؛ اذهب إلى تلك التي تسميها سالفر وقل ما تريد قوله ، وأقسم أمامها أنك ستنخرط في صراع حياة وموت مع نفسك لتكون طيبًا وجديرًا بالثقة . ثم قل : أتريدين قلبي؟

ينز : أتريدين قلبي؟

هيالتي : نعم .

الفتى : هذا جيد جدًا .

ينز : لا أحد يتكلّم هكذا .

هيالتي : بلى ، بلى ، عندما يعتمد كل شيء عليه ، نتكلم مثل البلهاء ، صدقني! وستقول نعم . أنا أعرف . إنها فقط تنتظر منك أن تفتح فخّك اللعين ، تفتحه على وسعه لتستطيع أخيرًا أن ترى كيف يبدو قلبك فعلاً ، وعندئذ ستقول نعم . عندئذ ستعرف أن لديك الجرأة لتتحدى نفسك .

يزيح ينز عينيه عن الثلج ، يبتسم ، وإن بكآبة ، يتأرجح في الريح . ربما أنت على حق . أنت مخلوق طريف . لكن ماذا عن بوثيلدر ، ألا تنتظرك في سلياتريه؟

هيالتي : مطاردة الأحلام ليست سهلة دائمًا .

الفتى : لماذا لا تساعد نفسك كما تساعد ينز؟

هيالتي : المرء لا يساعد إلا أولئك الذين يستحقون المساعدة .

١٥

هل يبدو كما لو أن العاصفة قد انحسرت قليلاً؟ أليس هذا كأن أحدًا ، العالم ، القدير ، السلطة العليا ، أو أيًا كان ترأف بحال هؤلاء الرجال الثلاثة ، ربما ببساطة لأن ثلاثتهم جلسوا معًا ، ثلاثة أرواح كانت متباعدة ، ثم دنت من بعضها إلى حدّ كبير حينما نهضت؟ لأن شيئًا أجمل أو أفضل من الكلمات ربطها؟ هل خفّت وتيرة الريح ، هل همدت رغبة العاصفة القاتلة ، أو أن نجاة المجموع باعتباره واحدًا أسهل من نجاة ثلاثة أجزاء منفصلة؟ ينطلقون الآن مجدّدًا ، لا تواري ، ولا تردد ، ولا مقاومة فاترة ؛ بل يستمرون في طريقهم ويجابهون كل شيء ، السماء والليل ، لأنهم الآن في الليل ، ليلة أخرى في الجبال .

بيد أن هذه الليلة الأخرى قد انقضت .

بدأتُ أستشف محيطي ، يصبح هيالتي ؛ إنه النهار ، الظهر ، ونحن نقترب من تلك الضفة الرملية اللعينة ، ربما بعد ساعة أو أكثر ، ساعتين ونقف ننظر إلى اللسان البحري ، هذا إذا كانت هناك أي بارقة أمل في هذا العالم اللعين!

لكن ربما لا بارقة أمل هناك ؛ تثور الريح ثانية ، وتهتاج عاصفة مسعورة . هم بكل تأكيد أصبحوا على دراية وثيقة بالريح في هذه الرحلة ، إلا أنها لم يسبق أن كانت عنيفة كحالها الآن ، إنها الآن صرخة من الجحيم . يمشون ويتقدمون ببطء ، خطوة خطوة ، يسحبون التابوت الثقيل معهم . وثمة احتمال في أنهم يزدادون اقترابًا من لسان بحري ، ثم قرية صيد سمك

صغيرة فيها استراحة ، فيها أسرّة ، فيها كنيسة بباحة لدفن أستا ، وربما هناك امرأة حية اسمها بوثيلدر ، من يدري؟ لا أعتقد! يزعق هيالتي وقد توقفوا ليستعيدوا أنفاسهم تحت صخرة كبيرة ، يعبّون الهواء ، يكسرون بعض الجليد المتراكم على أنوفهم وأفواههم ؛ يعرجون من شدة الإعياء والجوع ، والظمأ يعذبهم . لا أعتقد أنها هناك . أحيانًا يبدو لي أنها كانت مجرد حلم ، وفي حال كانت هناك فهي قطعًا لا تنتظرني ، هي لا يمكن أن تكون يائسة إلى هذه الدرجة . القوم هناك رأوني وأنا مخمور ، وهذا كفيل بإفزاع جميع نساء العالم ، باستثناء من كان النحس قدرهن ، أو عضهن الشيطان مثلي . أولئك الذين يرونني وأنا مخمور يتاح لهم إلقاء نظرة على حمأة من الجحيم . تبًا يا رفاق ، أفضّل أن أطلق ساقي للريح إذا رأيت بوثيلدر لأنقذها من براثني ، لأنقذها يا رفاق!

اللعنة على الكحول! يصيح ينز .

هيالتي : ألف لعنة على الكحول المقيت!

ينز : كحول بغيض منحوس!

تعوي الريح حول الرجال الجاثمين في حماية صخرة ، اثنان منهم يصيحان في وجه العاصفة الضارية لاعنين الكحول ، يصيحان بألم وغضب وقلة حيلة ، الكحول اللعين الذي يلوثهما بالعنف والخيانة والخطيئة والابتذال ، الكحول الذي يوقظ فيهما العفاريت الصغيرة . هناك لطخة سوداء على قلبي من الكحول المنحوس! يصيح هيالتي ، وينز يطالعه بذهن مشوش ، بينما يتخلى الفتى عن محاولة متابعة سيل صيحات رفيقيه غير المترابطة ، يتكئ على التابوت ويغمض عينيه ، هو يشعر بالبرد في جميع أوصاله ، وأفضل شيء في العالم الآن أن ينام ، بل حتى تلتقط عيناه ومضة من النوم تشبه شروق شمس وديع ، وسكينة خلف الجنون ، بيد أنه يجفل ويتنبه إزاء وكزة من مرفق ينز ، يجاهد ليفتح عينيه بسرعة فيصفعه هدير

العاصفة مجدّدًا . هيالتي يحذرهما من الوادي الذي سيكون على يمينهم ، منحدر سحيق الغور إلى درجة أنه يخدش سقف الجحيم ، وقد ابتلع أحد عشر رجلاً خلال مئة وخمسين أو مئتي سنة ، هذا على الرغم من أن آخر اثنين منهم نادرًا ما يضافان إلى قائمة الضحايا ، لأنهما كانا نرويجيين كما تقول الحكاية ، يصيح هيالتي ليتفوق بصوته على زئير الريح ، الريح التي لا تستسيغ أن يكون لأحد غيرها صوت ، فهي التي تروي الحكايات هنا ، إلا أن صوت هيالتي قوي ، ويدنو أكثر من رفيقيه ليسمعاه . تقول الحكاية التي تعود إلى زمن سابق أن أمًا شابة ألقت بنفسها في أعمق منطقة من الوادي وطفلها الميت بين ذراعيها ، بعد أن استبد بها اليأس . حدث هذا في ذات خريف . كانت خادمة وقيل إن سيدها أساء معاملتها وألحق بها العار وضربها وهددها بأخذ طفلها منها إذا قاومته . وما الأم بدون طفلها؟ لذلك تحملت تصرفاته الشائنة . القوم في المزارع المجاورة ، وطبعًا في المزرعة نفسها عرفوا هذا أو اشتبهوا فيه ، بيد أن الرجل كان شخصًا مهمًا في الأبرشية ، محترمًا وصاحب شعبية وصارمًا . خشيه الناس بسبب قسوته ، وفي الوقت نفسه احترموه للسبب عينه ، فنظروا في الاتجاه الآخر لكيلا يشهدوا أفعاله الآثمة . المرء يمكن أن ينسى أغلب الأشياء أو ينكرها بالنظر في الاتجاه الآخر فقط ، ومن الأسهل دائمًا تقريبًا أن يغضّ المرء الطرف بدلاً من أن يراقب ، لأن من يراقب عليه أن يقرّ بما يرى ، ثم يتصرف حياله . مات الطفل من الخانوق ، قال معظم الناس ، لكنهم عرفوا أن تلك كانت كذبة ؛ فذاك الرجل الفظيع ضربه بقسوة عندما حاول الدفاع عن أمه ؛ فكّرا في هذا يا رفاق ، مجرد طفل في الخامسة أو السادسة من العمر . تسللت وهي تحمله إلى الخارج نحو الليلة الخريفية بأمطارها الغزيرة ، ومضت إلى بيت صغير تقطنه امرأة من معارفها . يمكنكما أن تتخيلا هذا ، ليلة مغرقة في السواد وعاصفة ماطرة ؛ سمعت الصديقة قرعًا على لوح النافذة واسمها يُهمس ، أو كيفما جرى الأمر

لتستدعيها تلك الأم، مع العلم أن قلة من الناس يفتحون الباب وهم وحدهم في مثل تلك الليلة، لكنّها مضت إلى الباب، نصف نائمة وقد تدثرت بشيء ما، وفي الخارج وجدت الأم التعيسة تنتظر. ماذا لديك بين ذراعيك؟ سألتها صديقتها. طفلي، أجابت الأم. في هذه العاصفة؟! صاحت الأخرى. لن يشعر بمزيد من الألم، قالت الأم وهي تدفع الخرق بعيدًا عن وجه الطفل لتكشف عن الدم المتخثر وأردفت، هو فعل هذا. كانت حاسرة الرأس في العاصفة وحافية. قدماها مكدمتان وداميتان. ادخلي قالت صديقتها، يعلم القدير أن ذلك الشيطان سيعاقَب، حتى لو اضطررت إلى أن أفعل ذلك بنفسي! فردّت الأم: القدير لا يكترث لحال النساء الفقيرات، وأنت تعرفين كما أعرف أننا لا نستطيع مسه، وإذا حاولنا سأُرسل إلى سجن بريمرهولم بتهمة قتل طفلي. لكنني سأستدعي عشرة رجال؛ ذاك سيكون انتقامي. ماذا تعنين؟ سألتها صديقتها، ادخلي، ستموتين في الخارج الليلة وأنت بهذا اللباس. عندئذ يفترض أن الأم ضحكت وصاحت: أتظنين حقًا أنني أنوي الاستمرار في الحياة بعد هذا، وأترك طفلي وحيدًا في عالم الأموات؟ اطلبي منهم أن يتحروا الوادي! وعند هذا الحدّ اختفت، جرت، اخترقت أعماق الليل وتلاشت. فعلت ذلك بسرعة كبيرة إلى درجة أن صديقتها فقدت أثرها فورًا. لم يُعثر عليها إلا بعد عدة أيام، أو بالأحرى على بقاياها؛ قفزت في أعمق بقعة من الوادي، مسافة تعادل مئة متر تقريبًا، ارتطمت بالقاع من غير أن تفلت طفلها، ولا بدّ من أن سقطتها دوت في الجحيم عندما اصطدمت بسقفها.

الفتى: عسى أن يكون قد تعامل أحد مع صاحب البيت.

هيالتي: هل أنت بسذاجة الأطفال؟ كان رفيع الشأن، رفيق كأس مع مدير الأبرشية والقسّ؛ وقيل إن الأم أصابتها لوثة جنون، وكلهم عاشوا مدة طويلة وماتوا ميتة هنية. الناس الوحيدون الذين يعاقبون في هذه البلاد هم

الذين لا يملكون شيئًا ، ألم تدرك ذلك بعد؟ الآخرون لا يعاقبون أبدًا إلا في الحكايات . والآن التحق بها هناك تسعة رجال ؛ كان النرويجيان مخمورين وضلّا الطريق بعد أن تسلقا الجبال لاصطياد طيور الترمجان . تسعة ذهبوا ، وبقي واحد . طبعًا يجب أن أذهب أنا إليها ، بفعلي هذا أهزم الشيطان والكحول وأزودها بشيء من الراحة . عليكما أن تتذكرا هذا : عندما تبدأ الطريق في الانحدار بشدة ، نحن بأمان ؛ وبذلك نكون قد نجحنا في الخروج من الجبال ، لكن الوادي خطر في مثل هذه العاصفة اللعينة . درب النزول يمتد قريبًا منه ، وكتل الثلج الضخمة تنهار تحت وطأة الأشخاص الثقيلين ؛ على هذا النحو سقط بعض الناس مع الثلج . كم تبعد المسافة إلى أن نصل إلى هناك؟ يسأل الفتى وهو في غاية التعب بحيث أنه بذل جهدًا عظيمًا ليسأل ، ويفكر بينه وبين نفسه ، عساها ليست أكثر من مسيرة نصف ساعة ، فأنا ما عدت قادرًا على التحمل أكثر من ذلك . نصف ساعة ، يقول هيالتي ، في الجو الهادئ المعتدل ، ثلاث ساعات الآن وليس أقل من ذلك إذا صادفنا الدرب . من السهل أن نتيه وننتهي بين ذراعي الشيطان ونتجمد هناك .

*

والمدة ما كانت أي ثلاث ساعات جهنمية .

هم على الأرجح في المساء حينما يقررون أخيرًا تغيير وجهتهم من جديد ، يتجهون الآن إلى الجنوب ، الريح خلفهم تقريبًا وعليهم أن يستخدموا جلّ قوتهم ، القوة المتضائلة ، ليتماسكوا ويحافظوا على التابوت كي لا يتهاووا على الجرف الذي ازدادت درجة ميله ، أصبح الآن ، باسم الربّ ، شديد الانحدار . يتوقف هيالتي ؛ ويأخذون موضعهم أمام الزلاجة التي كان يمكن أن تطير لو لم يحكموا تمسكهم بها ؛ عليهم أن يصمدوا في

وقوفهم بينما الريح تزعزعهم بشراسة. هنا! يصيح هيالتي، هنا منحدر بالغ الحدة، لا يقلّ عن مئة وخمسين مترًا، يليه صعيد جبلي مستوٍ، إنما ليس سيئًا جدًا؛ مساحته حوالي كيلومتر واحد تقريبًا، ثم منحدر آخر، يماثل هذا وعورة، وعند قدميه تقع أعلى مزرعة في القرية، وهي ليست أبعد من ذلك يا رفاق! أهي المزرعة التي عاشت فيها الصديقة؟ يصيح الفتى. ماذا؟ لا، تلك المزرعة هُجرت منذ زمن بعيد، لكن الآن يجب أن نركز على الحفاظ على التابوت، إذا واجهت الزلاجة دفعة إلى الأمام ستطير، ولن تواتينا أي فرصة للعثور على التابوت في هذه العاصفة التي يتهيأ لي أنها قادرة على تدمير الكثير. نحن حتمًا يجب ألا نفقد التابوت اللعين!

وهذا ما لن يفعلوه.

يتحسسون طريقهم نزولاً، فرائصهم مرتعدة كالرجال المسنين، يترنحون على أقدامهم مثل عجول حديثة الولادة، يحاولون مقاومة الانحدار المسبب للدوار والريح المسعورة، والزلاجة تصطدم باستمرار بكعوب أحذيتهم ولسان حالها يقول: أفسحوا الطريق أفسحوها، فالموت في عجلة من أمره. رويدًا، رويدًا، يقول لهما هيالتي. لكن تبًا، هذا منهك. يتوقفون تقريبًا بين خطوة وخطوة، مُستنزَفين ومتهالكين، الريح تعوي حولهم، والآن يمكنهم أن يسمعوا دمدمة خافتة وعميقة صادرة من اليمين؛ إنه صوت الوادي. يقفون، لا بل شبه ينبطحون في نصف دائرة. أتسمعان؟ يهمس هيالتي؛ تكوموا غريزيًا جنبًا إلى جنب كما لو أنهم يحاولون الاختباء، وليشعر كل منهم بنبض حياة أخرى إلى جانب حياته. إنها هي، إنها هي تستدعي العاشر! لكن ينز ينهره بفظاظة قائلاً: كفّ عن هرائك! يدنو هيالتي منهما أكثر من ذي قبل، يصبح وجهه مقابل وجهيهما؛ يشعران بأنفاسه، يتبحران عميقًا في عينيه اللتين يبدو كما لو أن بؤبؤيهما قد خدشهما

الإحباط والألم والوهن؛ اللعنة يا رفاق، ألا يأتي المرء إلى هذه الحياة إلا ليموت؟

وما يمكن أن يكون جواب ذلك، لا شيء طبعًا، مع ذلك، ولعدة لحظات بدا كأنما يحاولون هم الثلاثة العثور على جواب، أو على الأجوبة، أو ربما نكسوا رؤوسهم بلا مبالاة من غير أن يُعملوا عقولهم ويعانون من الإعياء فقط، لا يفكرون، غير واعين، وغير مدركين شيئًا، مستسلمين للإنهاك. وتنزلق الزلاجة. تنزلق ببطء، كأنها تتسلل خلسة. يشعر ينز بشيء يمر به، يرفع رأسه، يرى الزلاجة تنزلق ببطء بعيدًا؛ ها هو التابوت يبتعد، يفكر وينحني مجدّدًا. إنما لا يفعل ذلك لأكثر من ثانيتين أو ثلاث ثواني قبل أن ينتفض فجأة بحيث تكاد الريح تطيره، يصيح: التابوت! ويندفع جريًا. يدرك الفتى وهيالتي في آن واحد ما يجري، يتحاملان على أقدامهما ويجريان وراء الزلاجة. كانت الزلاجة قد انزلقت فوق ربوة صغيرة وبدأت سرعتها تتزايد. التلة شديدة الانحدار والريح تعصف والرجال الثلاثة يجرون وراء الزلاجة. هذا إذا كان ممكنًا أن نسمي ما يفعلونه جريًا. هؤلاء الرجال منهكون، إلى جانب أن هيالتي وينز متصلبان، غير معتادين مطلقًا على الجري، يشبهان أكثر ما يشبهان فقمتين مرتبكتين، فاغري الفم ويلهثان لهاثًا حثيثًا، ومع ذلك يتابعان جريهما الأخرق. من الناحية الأخرى يمكن القول إن هذه لحظة الفتى. لأنه إذا كان هناك شيء يعرف كيف يقوم به، إذا كان هناك شيء يستطيع القيام به، فهو الجري. الإعياء الذي شلّه قبل لحظات تلاشى، كنسته عنه إثارة المطاردة التي تندفع في عروقه، بسهولة يتجاوز شبيهي العمالقة، ينطلق عبرهما ويسمعهما يشهقان طلبًا للهواء. يلاحق الزلاجة والتابوت، يركض بسرعة رهيبة على المنحدر المسبب للدوار، والريح العنيفة تصفع ظهره؛ هو كأنما يطير، بل حتى لديه القدرة على الجري بوتيرة أسرع بينما الضحك يبقبق فيه. يركض، يطير، يقترب

أكثر من الزلاجة ، يمد إحدى ذراعيه ، يحكم قبضته على التابوت ويقفز من فوره ، ترفعه الريح وتلقيه فوق التابوت بقسوة بالغة بحيث يوشك أن يُقذف بعيدًا ، بيد أنه ينجح في التشبث ، يعتدل ويمتطي التابوت ، يحكم التمسك بالحبل المتجمد ، يفلح بطريقة ما في دفع قفازيه تحته ويبقى متشبثًا على هذا النحو مهما اندفعت الزلاجة ومهما تمايل التابوت . تطير الزلاجة مرة من على حافة عالية لكنه ينجح في الصمود ، يغدو المنحدر أشد حدة ، هو منحدر عميق الغور وهناك فتى على قيد الحياة وهناك امرأة ميتة ، واحتمال المضي بسرعة أكبر شبه مستحيل ، الريح تزعق خلفهما ، على قاب قوسين من الإطاحة بهما ، الثلج المتساقط يعمل تقطيعًا في جلد الفتى المتجمد ، تتسع فتحتا أنفه ويشم رائحة الدخان ، رائحة اللحم المدخن القوية ، وكان قد توقف عن الضحك ، توقف منذ مدة طويلة ، يطبق جفنيه ليحمي عينيه من الثلج والجليد ويستمع إلى ضحكها هي ، ضحكها السطحي والبارد والخبيث الذي يملأ رأسه شيئًا فشيئًا ، يملأه بالبرد القارس ، ويستقر الجليد على ذكرياته كلها ، على أحلامه ؛ لقد أغار عليه الشتاء الأبدي . أهكذا يموت المرء ، يفكر وهو يفتح فمه . يفتحه آملاً أولاً في أن تخف وطأة البرد وأن تصمت المرأة . ثم يبدأ في الصراخ ، ربما هو رد فعل من الحياة التي فيه ، وردّ فعله تجاه كل شيء خلّفه وراءه . موت أولئك الذين يهمه أمرهم ، خيبة الأمل . عدم اليقين الجارح الذي لا يبارحه أبدًا . الشعور بالذنب لكونه على قيد الحياة ، ولرغبته في الحياة . يصرخ وفي تلك الصرخة يكمن كل ما آل إلى الفناء ، يصرخ وصرخته تحتوي الأيام السابقة ، الأيام والليالي التي قضاها مع ينز . تندفع الزلاجة بعنف على منحدر حاد ، يجلس ممتطيًا تابوتًا يرتج ويهتز وقد بدأ يتفكك ويتحرر من الزلاجة ، والمرأة تضحك وتضحك في رأسه ، ويصرخ لأن واديًا فاحم السواد يستقر على يمينه ، والزلاجة في بعض اللحظات تندفع في ذلك الاتجاه ، وربما لن يلبثا أن يطيرا معًا من فوق الحافة

وتبدأ السقطة، سقطة قاسية لا يعوقها شيء إلى أن يرتطم بقاع الوادي، ويكون العاشر. يصرخ من الخوف، يصرخ لأنه حيّ، لأن ما يحمله من أسف أكثر مما ينبغي أن يطيقه القلب، يصرخ لأنه هو وينز قد كافحا خلال العواصف، على المروج الجبلية، والحياة ليست إلا خيطًا يصبح هشًا وواهنًا في الصقيع، يصرخ لأن هناك في فيترارسترند طفلة تكح، عيناها بلون المستنقعات في الصيف، تكح وتكح وتكح ولا تقدر دائمًا على التقاط أنفاسها. لا أحد مسموح له أن يموت، تقول في مطلع كل قصة، طبعًا لا، تقول أمها، هذا على الرغم من أن القصص لا فائدة منها إطلاقًا أمام الموت. يصرخ ويتمسك بالحبل من أجل الحياة الغالية، يرتج إلى الأمام والوراء، تندفع الزلاجة طائرة، ويصرخ، وماريا تغفو قرب الموقد الحجري في فيترارسترند، تغرق نفسها في كتاب كأنما هي تتوقع أن تعثر فيه على حياة ولّت منذ أمد بعيد، تعثر على البنت التي ماتت وهي في السابعة من عمرها، ولم يتبق شيء من حياتها سوى الذكريات التي تبهت ببطء، وبعض أسنان طفلة في كوة حائط مصطبغ بالسخام، يصرخ الفتى وعالم آنا في فييك يتلاشى خلف ضباب قاتم وكذلك عالم كيارتان، إلا أن الضباب الذي يخصّه مختلف، ضباب أسوأ، والقنينة الأخيرة فارغة، وما عاد قادرًا على النوم، يجلس إلى منضدته بين حشد الكلمات، بين الكلمات السخية التي بلا فائدة، إذ ما الكلمات بلا وجود شخص آخر، ما الكلمات بلا تلامس. يستمع كيارتان إلى العاصفة تضرب البيت، ما نفع الكلمات إذا ما عاد المرء يطيق أن يلمس زوجته، ما نفع الكلمات إذا كفّ المرء عن الإيمان بالحياة؟ يصرخ الفتى، يصيح ويبكي لأن صبيًا مراهقًا مات من التعرض للبرد قبل خمسين سنة، تجمد حتى الموت مع أن المزارع ضمّه بين ذراعيه وهمس، أنا آسف، أنا آسف، أنا آسف، إلى أنّ أصبحت شفتاه أبرد من أن تنطقا بالكلمات، ثم مات المزارع أيضًا، ولا أحد يتذكر حياتهما، لا

أحد يتذكر سوى موتهما ، فإلى أين ذهبت اللحظات الطيبة التي عاشاها ؛ أتصبح لا شيء في الموت؟ سفح الجبل لا نهائي ، يندفع بالزلاجة والتابوت نزولاً فنزولاً ، ربما هو يتجه مباشرة نحو الجحيم ، والتابوت يتفكك ، امرأة ميتة وفتى حي ، يتمسك بيأس وغضب بحبل متجمد ، عيناه مغمضتان وهو يصرخ ويصيح لأن العديد العديد من الناس غرقوا هنا ، البحر يغصّ بالأموات الغرقى ومع ذلك لا يصطاد الناس إلا السمك ، لا يصطادون أبدًا الأرواح . يصرخ الفتى لأننا لا نستطيع أن نجدف في عرض بحر الموت ونجلب أولئك الذين نفتقد ، نتقلّب في الليل ونكابد معاناة صامتة ، ماذا يمكننا أن نفعل لنستعيد أولئك الذين رحلوا باكرًا جدًا؟ هل الحياة مغلوبة على أمرها تمامًا ، ولا كلمات هناك قادرة على خرق القوانين ، لا جمل قوية بما يكفي لتتغلب على المستحيل ، لماذا بحق الجحيم لا نعيش ونموت إلا لنقهر المستحيل؟ يصبح سفح الجبل عموديًا ، والزلاجة تُقذف من جانب إلى جانب ، ثم تُقحم في سقطة مباغتة ، وتعدّل وضعيتها بسرعة مماثلة فيُقذف وجه الفتى بعنف فوق غطاء التابوت ، جلده المتجمد بردًا يتمزق ، ودمه الحار يلون التابوت ؛ ثمّ تتوقّف المرأة عن الضحك أخيرًا وتشرع في البكاء ، تبكي أسفًا على حياتها التي انتهت ولن تعود أبدًا . يصرخ الفتى وتبكي المرأة ولا يلبث أن يشعر بألواح التابوت تتحطم شيئًا فشيئًا تحته ؛ يفتح عينيه ، يجثم محدودبًا وعيناه تنظران عبر الشقوق ، للحظة يرتئي أن يقفز خارج التابوت لولا أن السرعة التي تنحدر بها الزلاجة شديدة جدًا ، إلى جانب أنه لا يريد أن يفقد التابوت ، فالمرأة على الأرجح لن يُعثر عليها إلا في أواخر الربيع ، سيتتبع الناس رائحة اللحم المتعفن الكريهة ، سيتتبعون أزيز الذباب ، نعيق الغراب المتوقّع الذي يحلق عاليًا وفي منقاره عين ميتة ، هذا لا يمكن أن يحدث ، هو لا يستطيع أن يفعل ذلك للأطفال أو للمرأة نفسها التي توقفت عن الضحك وأخذت تبكي أسفًا على حياتها وعلى أطفالها ، وقد جاءت

إليه هو وينز في العاصفة على أمل أن تدفن في أرض مقدسة ، وبفعلها ذلك أنقذتهما ؛ يمعن في الانحناء فوق التابوت ، يريد أن يقول لم أخذلك ، إلا أن الأرض تختفي ، تختفي نهائيًا والزلاجة والتابوت والفتى في الهواء .

يرخي قبضته أو يحررها ، يصرخ فجأة ، يطير عاليًا فأعلى ثم يبدأ في السقوط . ربما نحو الوادي حيث لن يلبث أن يرتطم بالقاع بقوة أعظم من أن تقاومها الحياة . ولعدة لحظات يغرق كل شيء حول الفتى في الصمت .

١٦

أنت مدهش، يقول الفتى لينز. سقط ولم يتكسر، هبط فوق كومة ثلج طرية. كيف بحق الجحيم استطعت العثور علي؟ لا يجب ينز بشيء ردًا على ذلك، بل يعلّق ببساطة: قدرتك على الجري جهنمية. وذلك قبل أن يقع نظره على آستا بين حطام التابوت؛ عيناها مغمضتان أما فمها فمفتوح على ابتسامة ساخرة، كاشفة عن أسنان داكنة الصفرة. يقطع ينز المسافة نحوها؛ هذا ما أنتِ عليه إذًا، يتمتم. يضطر إلى الانحناء بعض الشيء ليلقي نظرة جيدة على وجهها؛ وساقاها مطمورتان جزئيًا بالثلج. لا يبدو أن ينز يستهجن رؤية المرأة مستقرة بين الثلج وقد كانت قبل وقت قصير في تابوت. مستقرة بين الثلج تبتسم ابتسامة ساخرة، شبه منحنية، ويدها اليسرى تشير بتصميم إلى العاصفة وتقول اذهبا إلى هناك. طبعًا من اللافت للنظر إلى حدّ ما أن ينجح ينز في العثور على الفتى بهذه السرعة وبدون بذل جهد خارق. سابقت الزلاجة الريح إلى الأمام وعلى الجانب في طريق رحلتها الجنونية إلى الأسفل، منحرفة إلى حد بعيد عن مسارها؛ ركض ينز بكل ثقله وراءها، تعثر، تمرّغ وانزلق خارج إرادته عدة عشرات من الأمتار على حقائب البريد، ملوحًا بذراعيه، يشبه في ذلك حشرة ضخمة ومضحكة في محاولاته اليائسة للاتجاه نحو اليسار، ليبتعد عن الوادي السحيق الذي سمع أنينه على مقربة عظيمة منه، واستطاع التوقف أخيرًا، تثاقل على قدميه مشوش الذهن وشاردًا، التفت في دوائر، مناديًا هيالتي، مناديًا الفتى، نفخ بوقه البريدي عدة مرات، بيد أن الريح وحدها

هي التي أجابت ، فمشى قدمًا والأرض تحته كفّت عن الانحدار ، ثم عن طريق حسن حظّ غامض تعثر بالفتى الذي انبرى يسأل عن هيالتي. سيتدبر أمره هنا ، يقول ينز ، وبسهولة إن لم يكن لديه من يعتني به سوى نفسه ، أما نحن فعلينا أن نتابع طريقنا . أنا لا أستطيع النهوض ؛ انتهى أمري ، سأكتفي بالجلوس والارتياح هنا ، لن تلبث الريح أن تنحسر في وقت ما ، وسيتوقف الثلج عن التساقط . لكن ينز يقول : في وقت ما سيكون الأوان قد فات بلا شك ؛ أتشعر بالبرد؟ لا ، يجيب الفتى ، وهذه هي المشكلة ، أشعر أنني بخير ، ولذا لماذا يجب أن أنهض ، إذا فعلت سيلسعني البرد ثانية . فيعاجل ينز إلى القول : الأخطر من أي شيء آخر في مثل هذه العاصفة ، أنك عندما تكف عن الإحساس بالبرد تنام في غضون نصف ساعة .

الفتى : ولا أستيقظ أبدًا ثانية؟

ينز : ليس أكثر من آستا الراقدة هنا . ومعًا ينظران إلى المرأة المتكئة على أحد جانبيها والمبتسمة بسخرية ، ولكن لا تشعر بالبرد مطلقًا .

الفتى : أهذه هي؟

ينز : ماذا تعني؟

الفتى : أليست هذه المرأة التي سبق أن رأيت ، أعني المرأة التي ظهرت لك؟

ينز : أنا لا أعرف ما رأيت ، أو سواء رأيت أيّ شيء .

الفتى : أنا رأيتها . نظرت إليها . إنها هي .

ينز : وإذًا . . .

الفتى : ظننت أن هذا يحدث في الحكايات فقط ، أن ميتًا يسافر مسافة طويلة ليزور الأحياء .

ينز : لا تغلق عينيك يافتى! وإلا فستكون ميتًا بقدر ما هي ميتة ، وما

الفائدة التي ستعود عليك من ذلك؟

الفتى : كنت أسمعها طوال الوقت ، والآن ما عدت أسمعها .

ينز : تسمعها؟ لا تكن سخيفًا . هي ميتة . ما يُسمع من الأموات أقل من القليل .

الفتى : ما برحت أسمعها منذ وقت طويل ، في الحقيقة منذ أن افترقنا عن بيارني عند أعلى الجبل . أسمعها كلما أغمضت عيني ، ومرة سمعتها وهما مفتوحتان .

ينز : وماذا سمعت؟

الفتى : ضحكت .

ينز : لم أعرف أنّه من المسلي أن يكون المرء ميتًا .

الفتى : لا ، تلك كانت ضحكة جليدية ، مغمومة جدًا . الآن أعرف كيف تضحك رقاقات الثلج .

ينز : قرأتَ كثيرًا يا فتى . من الخطر أن يقرأ المرء كثيرًا ، يتشوش ذهنك وتنتهي عالة على الأبرشية .

الفتى : تكلمت معي أيضًا ، وليس بطريقة يمكن اعتبارها لطيفة ، لم تكن ولا قيد أنملة ودودة وأنيسة ، كما قال هيالتي عنها وهي حية . . .

ينز : ذلك لأن الموت أقسى من الحياة . لكن أوقف هذه الثرثرة وانهض . عندما يموت شخص ، يكون شخصًا ميتًا ؛ يصبح هو أو هي بعيدًا عن كونه على قيد الحياة بقدر بعده عن إمكانية رجوعه إلى الحياة . انهض الآن يا فتاي المسكين .

الفتى : لكنّها بكت في النهاية . بكت بكاء مرًا .

ينز : انهض الآن .

لا أقدر ، يقول الفتى مغمضًا عينيه ، فهو أكثر إحساسًا بالتعب من أن يتعارك مع ينز . في النهاية بكت ، يقول ثانية . أما آستا فتبدو أنها تراقبهما

وعلى وجهها ذلك التعبير الساخر، شعرها المشوب بلوني الملح والفلفل تطيره الريح. أنا متعب أيضًا، يقول ينز ببطء، ويرغم نفسه على النظر بعيدًا عن المرأة؛ فهما بين حين وآخر يلتقطان نسمة عبقة بالدخان تثير جوعهما. يفتح الفتى عينيه مع أن هذا صعب نوعًا ما؛ فقد بدأ يسمع صوت جريان دمه، ذلك التدفق الهادئ في عروقه الذي يهدهده داعيًا إياه إلى نوم هنيء، لكنه مع ذلك يفتح عينيه وينظر متفاجئًا إلى ينز. أنت، متعب؟ يقول. يشيح ينز بوجهه، لحيته قطعة صلبة من الجليد، ثم يعود وينظر إلى الفتى ويقول: كنت تنزف. يقول. نعم، يجيب الفتى، هذا ما بدا لي أنا أيضًا، إنما لا أظن الأمر خطرًا؟ لا، يقول ينز وهو ينظر إلى المرأة من جديد ويردف: ما عاد في وسعي الاستمرار أكثر مما في وسعك، ما سبق لي أن شعرت بهذا البرد ولا بهذا التعب، بيد أن الأمر الآن ليس مسألة ما تستطيع فعله، بل ما أنت فاعله. ينحني بصعوبة، يمد ذراعه اليمنى نصف الخدرة ويرفع الفتى على قدميه؛ يقفان هناك جنبًا إلى جنب والعاصفة تثور حولهما وامرأة ميتة تسخر منهما. أنا متجمد بردًا، يقول الفتى. جيد، يجيب ينز، الآن نحتاج إلى أن نعرف أي اتجاه نسلك. يلقي الفتى نظرة متفحصة على آستا، يخطو نحوها؛ يشعر كما لو أنها تنظر في عينيه وتخترقهما أعمق فأعمق، أعمق نحو إدراكه ووعيه، إنما تفعل ذلك بلطف الآن، ثم يهتف: هي تشير نحو اليمين. يهز ينز رأسه ومع ذلك يقول: لا اتجاه أسوأ من اتجاه آخر. يتمططان قليلاً، ينظران حواليهما، يجتليان العاصفة، ينظران إلى الأعلى، أو ما يظنان أنه الأعلى، لكن بطبيعة الحال لا يبصران شيئًا غير الثلج. يصيح ينز، يتناول البوق البريدي وينفخ، ينفخ ثلاث مرات مع مهلة قصيرة بينها، يتسلل الصوت صاعدًا الجبل، وينتظران ردًا بقدر ما يسعهما الانتظار، بيد أن شيئًا لا يطرق أسماعهما، وليس ثمة دلالة تنبئ عن هيالتي. يتهيئان للانطلاق، قبل أن يقصم البرد والجوع والعطش ظهريهما إلى الأبد؛ يتأهبان

للانطلاق متبعين الإشارة المعطاة من آستا التي جللها الثلج بالبياض تمامًا ، وهي بلا شك لن تلبث أن تختفي . قبل أن يمضيا يتلمس ينز بقايا التابوت الخشبية ، يغرزها في الثلج حول المرأة ، على أمل أن هذا سيساعد في تحديد مكانها إذا نجحا في الوصول إلى القرية ، وهذا أمر بعيد الاحتمال جدًا بطريقة أو بأخرى ؛ إذ ، ألا يبدو كما لو أنهما تخطيا حدود الزمن؟ أصبحا خارج الدنيا ومحكوم عليهما بالتجول خارج الحياة في قلب عاصفة ما على مدى السنوات الألف القادمة أو ما يقاربها ؛ وبعض أولئك الذين على قيد الحياة سيلتقطون لمحة منهما ، مثل وهم مبهم في اللحظات التي تتوسط النوم واليقظة ، مثل يأس ناءٍ لا شيء يمكن أن يخفّفه ، والزمن أقلّ الأشياء قدرة على ذلك .

ولا هو من المحتمل القول إنهما الآن يمشيان . هما يترنحان ، يقعان ، يزحفان ، وأحيانًا يبدأ أحدهما في الضحك فيضحك الآخر ، ثم يجلسان ويضحكان أو يصرخان ، مستحيل التمييز بين الحالتين ، ثم يجاهدان بصمت ليقفا من غير أن يتبادلا النظر . يقع ينز ، ويستغرق الفتى وقتًا طويلاً ليساعد جسمه الثقيل على النهوض . يقع الفتى ، ويتوجب على ينز أن يستخدم ما تبقى من قوته المتضائلة ليرفعه ، وبعدئذ يتعلق الفتى لبعض الوقت بكتف ينز مثل حقيبة بريد عجيبة ؛ يضطر ينز إلى تثبيت قدميه بحزم ليدعم الوزن الذي يستطيع في الظروف الطبيعية أن يحمله مسافات طويلة حتى من غير أن يلاحظ . أنا لا أحبها ، يغمغم الفتى على مقربة من أذنه . مَن؟ راغينهيلد . أي راغينهيلد؟

الفتى : كما تعرف ، ابنة فريدريك .

ينز : أكان لك شأن معها؟

الفتى : لا أدري ، لا ، أنا ما كان لي شأن مع أي أحد ، كل ما أعرفه أن لديها كتفين مجبولتين من ضوء القمر .

ينز : اللعنة ، ابتعد عن أولئك الأشخاص يا فتى .

الفتى : عندما أراها أكون بلا حول ولا قوة ، أذاك هو الحب؟

يينز : لماذا تسألني؟

الفتى : أنت واقع في الحبّ .

ينز : كفّ عن التشدق بمثل هذه الكلمات .

الفتى : هذا ليس سوى قلبي يخفق يا ينز .

ينز : لا مصلحة لدي في إنقاذك من الصقيع والجبال إن كنت ستذهب زحفًا إلى فريديريك .

الفتى : هي التي لديها كتفان من ضوء القمر وليس هو .

إنه الأمر نفسه ، يقول ينز .

ربما أنا لا أحبّ مطلقًا ، يقول الفتى ؛ مع ذلك يمكنها ربما أن تأمرني بأن أموت . اللعنة على سماعك تتحدث هكذا ، يصيح ينز . لم ينتقلا من مكانهما ، هما يترنحان تجاوبًا مع غضب الريح ، يميل أحدهما برأسه على رأس الآخر كأنهما ينشدان غطاء ما ، أشد إنهاكًا من أن يحاولا الانفصال ، أوهن من أن يفكرا ، يكتفيان بالكلام ، تظهر الكلمات على السطح ويجمعانها معًا هناك . يسأله الفتى : أتنوي الذهاب إليها؟ نعم ، يجيب ينز . إذًا عليك أن تنجو من هذا . فيقول ينز : ليس في وسعي تفاديه . ثم ينفصلان ، يتابعان التقدم نزولاً بما أن الأرض تبدأ في الانحدار ، ثم يشتد انحدارها أكثر ، وتحاول الريح أن تطيرهما . يستحسن ألا تفقد موطئ قدميك يا فتى ، من الصعب التكهن بما يستقر في الأسفل . يصيح ينز الذي يتحسس دربه المنحدِر ، محاولاً في الوقت نفسه أن يقاوم الريح والانحراف ، لا ، لا يمكن! يصيح الفتى بدوره ، ربما هناك صخرة شاطئ عظيمة ، ثم جرف ثم البحر تحته ، وبالتالي نندفع ونغوص في جوف البحر بزرقته الداكنة! يندلع غضب ينز على الفتى الذي لا يمكنه أن يسكت أبدًا ، فيزعق : تبًا . ثم

يصيح : يا لهذا الجحيم! ويفقد تركيزه للحظة ، يخطو إلى الأمام بطيش وهذا كل ما يستلزمه الأمر . يسقط ، وفي الوقت نفسه يدفع ساقي الفتى تحته . وإذا بهما يطيران في الحال مغلوبين على أمرهما . رجلان ينزلقان نزولاً على ظهريهما بجنون وبلا هوداة ، على منحدر ، على سفح جبل ، وربما يمتد البحر العميق عند نهايته . ربما لن يلبثا أن يتدهورا من حافة جرف هائل ، يحوما مثل ندف الثلج عدة ثوانٍ ، مثل أجنحة الملائكة ، مثل حزن الملائكة ، ثمّ يسقطا كالأحجار نحو ميتتهما الرطبة . يقذفان نحو السفح وينز أول من يصرخ . ثم يصرخ الفتى . رجلان يعلو صوتاهما بالصراخ في انحدارهما اللجوج من جبل ، من جرف ، خلال الليل وخلال العاصفة . رجلان يعلو صوتاهما بالصراخ يرتطمان أخيرًا وبعنف بشيء صلب . ينز أولاً ، ثم بعد ثانيةٍ الفتى ، على بعد نصف متر من ساعي البريد . وسرعان ما تختفي الدنيا .

رواية عميقة وخالدة . تستعرض بصورة نابضة بالحياة صراع الإنسان مع قوى الطبيعة المهيبة . استوحاها ستيفنسن كما صرح لصحيفة «ذا إندبندنت» من زيارته لخلجان آيسلندا الغربية بقوله « . . . كانت مثل لكمة على أعصاب المعدة . . . وبدت الجبال كأنها تقول لي : لماذا لا تكتب عنا؟»

المميز جدًا في هذه الرواية ليس القصة بقدر ما هو اللغة : كلمات بسيطة مرتبة بطريقة ساحرة . كلمات نثرية تتحول إلى لوحة فنية مذهلة ، وكل مقطع فيها ينضح بالشعر الخالص ، ويجد القارئ نفسه مضطرًا إلى التوقف عن القراءة بين صفحة وأخرى ليتشرب ما جاء فيها .

انتهى مطاف الفتى الذي أفقدته إمبراطورية البحر المالح عائلته ورفيق روحه إلى عشق الأدب ، على الرغم من إدراكه أن سمك القد والشعر على طرفي نقيض ، وأن الأحلام لا تسد جوع أحد . وهذا العشق يحمله معه عندما يرسل في مهمة مع ساعي البريد الذي يخاف من البحر ، حيث ينطلقان في مهمتهما العسيرة وهما يرزحان تحت ثقل حقائب البريد ، وتحت ثقل حوار الذات الملغز ، والثلج المدوم يتربص بهما . لكنهما في هذه الرحلة يكتشفان الكثير عن الحياة وعن أعماقهما الخفية .

هي حكاية عن الحب والموت في تضاريس وعرة تجمع بطريقة سحرية بين اليأس والتسامي .

ISBN 978-91-87333-65-1

9 789187 333651

دار المنى